Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تأليف

لانكستر هاردنج

آثار الأردن

تعريب

سليمان موسى

من منشورات اللجنة الاردنية للتعريب والترجمة والنشر

أخرجته ، مجلة "رسالة المعلم"

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اهداءات ٢٠٠٠
ا.د.رشيد سالم الناضورى
أستاذ التاريخ القديم
جامعة الإسكندرية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آثار الأردن

تأليف

لانكستر هاردنج

تعريب

سليمان موسى

من منشورات اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر
اخرجته مجلة "رسالة المعلم"

عن العددين : (١ — ٢) من السنة الثامنة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطبعة الاولى

كانون الثاني

١٩٦٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

راجع هـذا الكتاب ، وتحرّى ما فيـه
من حقـائق ، الأساتذة :

١ — زوفان الهنداوي

٢ — محمود سليمان العابدي

٣ — الدكتور محمد حسين علي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نقل هذا التعريب عن كتاب :

The Antiquities of Jordan

by

G. Lankester Harding

الذي قامت باصداره دار النشر البريطانيـــة :

Lutterworth Press London, 1959

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كلمـــة المعرب

دفعني الى نقل هذا الكتاب الى اللغة العربية ما يتضمنه من معلومات عن آثار بلادنا . واقد قضى مؤلفه المستر لانكستر هاردنج عشرين عاماً في الاردن مسؤولا عن دائرة الآثار ، فأتيح له ان يتعرّف عليها ويعكف على دراستها ، بحيث جاء كتابه مرجعاً علمياً موثوقـــاً لم يظهر حتى الآن في اللغة العربية ما يغني عنه او يماثله . وقد يكون من المفيد ان اذكر هنا ان هذا الكتاب ترجم ونشر في اللغات الفرنسية والالمانية والهولندية ، وطبـــع بالانجليزية اربع مرات حتى الآن .

ولما كانت معالم بلادنا الاثرية من الاهمية بمكانة عالمية ، ولها اثر عظيم في اجتذاب السياح من مختلف الاقطار ، فقد اصبح من الواجب الوطني والثقافي ان تزداد معرفتنا بهذه الآثار التي تمثل الحضارات العديدة للشعوب المختلفة التي تعاقبت عبر العصور على الاقامة في بلادنا وقد شجعني على ترجمة الكتاب انني كنت نشرت بعض فصوله في مجلة (رسالة الاردن) التي تصدرها دائرة المطبوعات والنشر ، فلقيت اهتماماً من بعض ذوي العلم والفضل ، وحضّني الكثيرون منهم على القيام بترجمة الكتاب كله ونشره استتماماً للغاية المتوخاة .

ويلاحظ القارىء انني حرصت على وضع بعض الملاحظات الضرورية على هوامش الصفحات ، من اجل فائدة المواطن العربي وخدمة للحقيقة والعلم .

وليس هذا الكتاب سوى بحث موجز عن الآثار في الاردن ، لذلك ارجـــو ان يتعهد المترجمون الغيارى الى ترجمة الكتب التفصيلية الاخرى التي كتبها الاجانب ، باعتبارها ثروة علمية ثمينة لا غنى عنها للباحث والمؤرخ . ولما كانت الحضارة تراثاً عالمياً مشتركاً ، فلا بدّ من الترجمة حتى يظهر من بيننا علماء يشتركون في حمل مشعل الحضارة مع اقرانهم من العلماء الاجانب .

ولا يسعني هنا الا ان اعبّر عن امتناني لجميع الذين اعانوني في تنقيح المعلومات وترجمة بعض المصطلحات الفنية ، واني اخصّ بالذكر الدكتور يوني الدجاني والاستاذ محمود العابدي والسيد فرح معايعة ، واذا كنت قد قمت بالترجمة ، فان الفضل في نشر الكتاب يعود الى اللجنة الاردنية للتعريب والترجمة والنشر المنبثقة عن وزارة التربية والتعليم الجليلة ، تلك اللجنة التي قرّر اعضاؤها الافاضل تبنّي الكتاب ونشره وتعميمه .

واخيراً ، ارجو ان يكون في هذا الجهـــد المتواضع ما ينال رضى القـــراء ويشجّع المتحمسين منهم على المزيد من الاستقصاء .

كانون الثاني ١٩٦٥

معرب الكتـــاب

سليمان موسى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة المؤلف

لقد قضيت في الأردن سنوات عديدة، حتى لم يعد في مقدوري ان اؤلف عنها كتاباً جيداً، وذلك لأن المعرفة الوثيقة بمكان ما لفترة طويلة من الزمن، تمحو الانطباعات التي يكوّنها المرء في البداية، الا اذا احتفظ بمذكرات يومية، وهو ما لم أقم به مطلقاً.

اضف الى هذا ان المرء مع مرور الوقت يفقد القدرة على تكوين فكرة عامة عن البلاد، بسبب انصرافه الى التفاصيل. ولما كنت قد قمت بزيارتي الاولى للاردن عام ١٩٣٢ وبدأت اقامتي فيها بصورة دائمية عام ١٩٣٦، فان مرور الزمن استطاع ان يفعل فعله في تكييف انطباعاتي.

ولقد زرت البلاد لأول مرة بصفتي سائحاً، حيث قضيت فيها اياماً مع رفاق لي من اعضاء بعثة الحفريات التي كانت تعمل برئاسة السير فلندرز بيتري في تل العجول في جنوب فلسطين. واثناء تلك الزيارة لم نهتم كثيراً ببعض الأماكن، مثل اريحا القديمة التي صارت فيما بعد ذات اهمية بالغة، بينما تركت بعض الأماكن الأخرى انطباعاً قوياً في نفوسنا للوهلة الأولى — جرش مثلا — ولكن الأبحاث التي أُجريت فيها بعد ذلك لم تكشف عن اشياء جديدة فائقة الاهمية: ومن الطبيعي انه لم يخطر ببالي يومذاك، اذ كنت اشاهد آثار جرش والبتراء لأول مرة، انني سأتولى يوماً ما مسؤولية المحافظة عليها، وعلى جميع الأماكن الأثرية القديمة في شرقي الأردن.

وعدت عام ١٩٣٦ لأشغل منصب «مفتش الآثار» وهو منصب تحوّل فيما بعد الى «مدير الآثار». ولحسن الحظ لم ادرك يومذاك خطورة المهمة التي أُلقيت على عاتقي. وفي عام ١٩٤٨ أضيفت الى مسؤولياتي منطقة واسعة من فلسطين، وهي المنطقة التي أُكتشفت فيها مخطوطات البحر الميت، واستأثرت بالكثير من وقتي ونشاطي خلال السنوات القليلة الماضية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومهما يكن من امر فان الحياة كانت اكثر هدوءاً قبل عام ١٩٤٨ بحيث استطعت ان ازور معظم الأماكن في شرقي الأردن . وقمت باكثر تلك الزيارات في سـيارتي الامينة (الفورد) التي ابتيعت جديدة سنة ١٩٣٦ وكانت ما تزال في حالة لا بأس بها عندما غادرت الاردن سنة ١٩٥٦ .

وفي معظم هذه الرحلات كان حسن عواد هو رفيقي الامين الذي لم يكن لي غنى عنه ، وكنت قد عرفته اولا عام ١٩٢٦ فتى صغيراً في الثالثة عشرة او الرابعة عشرة من العمر ، بحيث استطاع ان ينمو ويكبر في ظل الآثار ؛ انه يملك ميلا غريزياً ملحوظا للآثار ، وعينا حادّة النظر بالنسبة للمخلّفات الأثرية ، ولطالما كان اول من اكتشف كثيراً من المواقع التي تعود الى ما قبل التاريخ . وهو بالاضافة الى ما تقدم من افضل الاشخاص الذين عرفتهم في اعمال الحفريات ، اذ يمتاز بالمثابرة والصبر ، وبمقدرته العظيمة على قهر ما يعترضه من مختلف المصاعب .

كنت قد بدأت هذا الكتاب قبل بضع سنوات ، وغرضي منه ان يكون دليلا للمواقع الأثرية المهمة ، التي يراها الزائر العادي ، مع أضافة معلومات قليلة عن البلاد وتاريخها . والواقع انه لم يؤلّف كتاب مستقل عن آثار البلاد بأكملها سوى كتاب (بديكر Baedeker) . وكانت الحاجة لوجود كتاب كهذا تبدو واضحة ، من الاسئلة التي كان يوجّهها اليّ عدد كبير من السيـاح ، عما اذا كان هنالك ما يستطيعون قراءته عن البلاد اثناء زيارتهم لها . على انني بعد ذلك أعدت كتابته مجدّداً على أمل ان يكون اكثر نفعاً للزائرين ، سواء في اوقات الفراغ او عند الوقوف على الآثار نفسها .

ولقد انصرفت جهودي بصورة رئيسية الى شرقي الاردن بسبب وجود كتب كثيرة جيدة عن آثار فلسطين ، الا أنني اضفت فصلا جديداً عن الاكتشافات الحديثة في منطقة اريحا بالنظر لأهميتها وجدّتها . كما إنني شعرت ان كتاباً كهذا يجب ان يتضمن فصلا خاصاً عن مخطوطات البحر الميت ، بالرغم عن ظهور مئات الكتب والمقالات حولها . ولا بدّ من القول ان كتابات الدكتورة كاثلين كينيون عن اريحا القديمة ، وكتابات الاب ديفو عن قمران ، ومخطوطات البحر الميت ـ أصبحت الآن ذات شهرة عالمية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكنت انوي ان أبدأ الكتاب بفصل يتضمن معلومات عامة عن البلاد ، ولكن سرعان ما أهملت تلك الفكرة بسبب التطورات السريعة المتلاحقة . وكنت انوي كذلك ان يتضمن الكتاب جدولا بمسافات الطرق والوقت الذي تستغرقه الرحلة من مكان الى آخر ، ولكني اهملت هذه الفكرة ايضاً لان العمل يجري بهمة ونشاط في شق طرق جديدة ، لم يكن بعضها قد تم شقه عندما غادرت البلاد سنة ١٩٥٦ . ومن غير المجدي أن تعطى تفاصيل عن حالة الطرق القديمة ، التي لم تكن سوى دروب شبه ممهدة اخذت تحل محلها الطرق الحديثة ، من اقصى البلاد الى اقصاها .

وهنالك مئات من المواقع الاثرية القديمة ، التي لم يرد ذكرها في الكتاب ، ولكنها من نوع الاماكن التي لا تهم الا عالم الآثار ، فضلا عن صعوبة الوصول الى معظمها حيث لا يوجد ظاهراً للعيان في كثير منها سوى بقايا ضئيلة .

ومن المعلوم ان الزوار في ايامنا هذه يميلون الى قضاء اقصر وقت ممكن في قطر ما ، حيث يسعون الى مشاهدة ما يمكن مشاهدته من المعالم خلال ذلك . وهكذا ركزت جهودي على اكثر المواقع الاثرية اهمية واجلها شأنا . والواقع انه يوجد في البلاد كثير من هذه الاماكن المهمة ، بل ان اقطاراً قليلة في العالم تستطيع أن تفاخر — كما يفاخر الاردن — بوجود موقعين اثريين لا مثيل لهما داخل حدوده ، كجرش والبتراء .

ولا يسعني الا الاعتراف بانني مدين لمن سبقني من الرحالة والعلماء ، ذلك لان كل مؤلف لكتاب من هذا الطراز ، يجب ان يعتمد على ابحاث من سبق لهم ان عالجوا الموضوع الذي يكتب فيه .

كما انني مدين ايضاً للكثيرين الذين قرأوا مسودة كتابي وأهانوني باقتراحاتهم ونقداتهم .

المؤلف
لانكستر هاردنج

١٩٥٨ ليماسول — قبرص

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

التضاريس ـ المناخ ـ التاريخ الطبيعي
السكان ـ دائرة الاثار

تتمثل في شرقي الاردن مجموعة متعددة من المشاهد الطبيعية المختلفة ، وهي مشـــاهد تتراوح من الاراضي المقفرة ذات الحجارة النارية السوداء التي لا يكاد المرء يرى فيها دليلا من دلائل الحياة ـــ الى الاودية الخضراء الجميلة ذات الجداول الصافية التي تغطي شجيرات الدفلى ضفاف مجاريها ، ومن رتابة الصحراء المنبسطة التي لا لون لها ـــ الى جبـــال رمّ وصخورها ذات الالوان الزاهية . ومع هذا فأن مناطق الحجارة النارية لا تخلو من سحر ، وهنالك كثيرون ممن تستهويهم الصحراء بهدوئها وسكونها . على ان الحب والبغض بالنسبة للمشاهد الطبيعية ـــ أمور تتعلق بميول الانسان الشخصية ، حتى يغـــدو المديح والتقريض لجمال بقعة من بقاع الدنيا ، عبثا لا طائل بعده ؛ وافضل ما يفعل المرء في هذا المجـــال ان يحاول الاشارة الى ما هنالك ، ثم يترك الحكم للزائر لنفسه .

وتحقيقا لاغراض الوصف ، يمكن تقسيم البلاد الى منطقتين رئيسيتين ، على ان يكون خط سكة الحديد الممتد من الشمال الى الجنوب ـــ حدا فاصلا تقريبياً بينهما . والجزء الغربي الضيق جبلي ولكنه خصب ، اما الجزء الشرقي فهضبة منبسطة تشمل الصحراء وارض الصوّان :

تشكّل جبال الجزء الغربي خطاً يكاد يكون مستقيما على امتداد اطراف وادي الاردن والبحر الميت ووادي عربة ، ابتداء من بحيرة طبريا حتى خليج العقبة . وتقسم سلسلة الجبال هذه الى عدة اقسام تفصل بينها أنهار وجداول دائمة الجريان : وتسمى الاوديـــة التي تجري فيها تلك الانهار والجداول ، من الشمال الى الجنوب : وادي اليرموك ، وادي الزرقـــاء (يبوق القديم) وادي شعيب ، وادي الموجب (ارنون القديم) ووادي الحسا (زرد القديم) . وبينما تصب الجداول الثلاثة الاولى في نهر الاردن ، فأن الجدول الرابع يصب في المنتصف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشرقي للبحر الميت ويصب الخامس في الطرف الجنوبي منه. وهنالك جداول اخرى صغيرة، ومنها الجداول التي تسير في وادي اليابس ووادي نمرين ووادي حسبان ، بينما يعتبر جدول وادي الوالا رافداً مهمّاً للموجب. وهناك بالاضافة الى ما تقدم ينابيع المياه المعدنية الحارة في زرقاء ماعين قريبا من مادبا وينابيع الحمة في وادي اليرموك . وتعتبر ينابيع هذين الموقعين من المنتجعات الصحية خلال فصول معينة من السنة . وهذه الاودية كلها تبقى مخضرّة على مدار السنة نتيجة لجريان المياه فيها ، لذلك تسرّ العين بمناظرها كما تسرّ الاذن لسماع خرير المياه : وفي فصل الربيع ، من منتصف كانون الثاني حتى نهاية آذار — تكتسي الجبال بالزهور البرية من مختلف الانواع والالوان .

تتألف الجبال من اليرموك حتى الحسا من الحجر الجيري ، اما قممها فسهلة مستديرة . وتغطي الجبال الممتدة بين اليرموك والزرقاء — غابات من شجر البلوط ، كما توجد في منطقة عجلون غابات من شجر الصنوبر الجميل . وتقوم الى جانب الطريق بين جرش والحصن — شجرة كبيرة منفردة وهي البقية الباقية من الغابات التي ظلت تكسو اراضي تلك المنطقة حتى الحرب العالمية الاولى . ويعتقد الاهلون بقداسة هذه الشجرة ، لذلك يقدمون أدعياتهم اليها ويربطون قطع القماش الى اغصانها . ولكن لا يمكن التحقق مما اذا كانت هذه الشجرة قد كتب لها البقاء نتيجة لقداستها او انها صارت مقدسة نتيجة لبقائها . (١)

على ان نوعية الصخر من وادي الحسا جنوبا تبدأ بالتحول تدريجيا من الحجر الجيري الى الحجر الرملي ؛ وتتخذ التلال شكلا مشرشرا ؛ كما تغدو المشاهد الطبيعية اكثر وحشية وإثارة . اما حول العقبة في اقصى الجنوب ، فيتنوع الحجر : من الجرانيت الى الناري الاسود الى انواع صوانية اخرى — بل انك لتجد حجر العقيق ، واحيانا حجر الفيروز وبعض الحجارة الكريمة . وتوجد في المنحدرات الغربية لهذه الجبال — في وادي عربه — رواسب من النحاس والحديد كانت تستغل في العصور القديمة . ان المعدن الخام ما يزال هناك ، ولكن كمياته قليلة بحيث لا يعتبر استخراجه وتصنيعه عملية ناجحة من وجهة تجارية

---

(١) هي شجرة المنوة التي سقطت في فصل الشتاء سنة ١٩٥٧ . وفي الاردن عدد من الاشجار التي يعتقد الاهلون بقداستها فلا يمسونها باذى . ومن هذه الاشجار : شجرة القينوس في قضاء الكورة ، بطم ياجوز ، شجرات عين لحظة في الطفيلة ، شجرة الطيار شرقي قرية ضانا ، دابة ابو مخطوب في الشوبك . شجرة الخنيطي في الحمر ، شجرة الميس في قضاء جرش ، شجرة ابراهيم الخليل في مدينة الخليل، شجرة مفلح قرب سيل الأزرق ، وعلى الطرف الجنوبي من جبل جلعاد . شجرة حزير في وادي السلط .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في يومنا هذا ، خاصة للمصاعب الكبيرة المتعلقة بالنقليات . وهناك ايضا رسوبات صغيرة جدا من المعادن الاخرى في هذه الجهات كالمنغنيز ، بينما توجد في الرصيفة قرب عمان كميات طيبة من الفوسفات يجري استغلالها حاليا . وفي قصر الحمّام شرقي زيزياء ، تلال من الرخام الملون بين احمر وازرق واخضر يعتبر قطعها وتصنيعها من الصناعات المحليـة الكبيرة . وبالاضافة الى ما تقدم توجد في نواحي ماحص الى الغرب من عمان كميات من تراب الفخّار والصيني والمغره .

ان الشقة الغربية من البلاد هي الشقة الصالحة للزراعة والتي تنمو فيها جميع المزروعات من الحبوب المتنوعة والاشجار — كما توجد فيها جميع المدن والقرى الكبيرة . اما الى الشرق من سكـة الحديد فلا توجد سوى قلة من القرى الصغيرة ، وكذلك لا يزرع من الارض سوى مساحة محدودة جدا . وهنا لا بد من القول ان السلم والامن اللذين تمتعت بهما البلاد منذ عام ١٩٣٠ — قد نتج عنهما امتداد مطرد في إعمار الاراضي الشرقية ، حتى اصبح القمح والشعير يزرعان في اماكن لم يزرعا فيها من قبل .

ليس هناك الكثير مما يجب ان يقال عن الشقة الشرقية . فالزاوية الشمالية الشرقية هي الارض البركانية (Lava) وارض الصوان : سوداء عابسة تمتـد حتى الازرق على رأس وادي السرحان ، وهو الوادي المنبسط الذي ينحدر حتى يدخل في البـلاد السعودية . وفي الازرق نفسه توجد مياه غزيرة كما تكثر الطيور البرية في فصـل الصيف فيخرج هواة الصيد لاصطيادها : كالبط البري والاوز والشنقب وغيرها . ولكن مشاريع الاعمار وامتداد حركة التطور جعلت أعداد هذه الطيور تتناقص عما كانت عليه في السابق . هنا تبدأ الصحراء الواسعة التي تغطي وجهها الحجارة الصوانية والحجارة الجيرية التي غدا لونها قاتمـا بفعل حرارة الشمس عبر الاف السنين . ويستمر امتداد هذه الارض الصحراوية جنوبـا حتى تنتهي فجأة عند جبال الطبيق ذات الحجر الرملي .

المنـاخ :

مناخ الاردن متقلّب صحي ، وفي الشتاء تتساقط الثلوج مرة واحدة على الاقل ، بينما ترتفع الحرارة في الصيف حتى تبلغ ١٠٦ درجات فهرنهايت ، مع أن المعدل حوالي ٨٦ درجة ؛ وعلى العموم لا يستحسن القيام بالسياحة في البلاد خـلال فصل الصيف ، بسبب الحرارة وكثرة الغبار ، ولعدم كثرة الاشجار والمزروعات التي يمكن ان تلطف من رتابـة منظر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الارض السمراء . اما فصل الشتاء فيبدأ بزخات متفرقة من الامطار خلال شهري تشرين الثاني وكانون الاول ، ثم تتلو ذلك الأمطار الغزيرة خلال شهري كانون الثاني وشباط ، وهي امطار يستمر هطولها احيانا ثلاثة او اربعة ايام دون انقطاع . ولكن هذه الامطار لا تلبث ان يخف انهمارها خلال شهري آذار ونيسان . وهذان الشهران – آذار ونيسان – رغم احتمال سقوط المطر خلالهما ، يعتبران افضل ايام السنة بالنسبة للمسافر . ومع هذا فلابدّ من القول ان الطقس يمكن ان يكون شديد البرودة في هذين الشهرين ، ويحسن بالمسافر ان يحمل معه معطفا ثقيلا . ومن المعروف ان عاصفة ثلجية هبت على البتراء مرة في اواسط نيسان ، ولكن عواصف نيسان امور نادرة على كل حال . ثم ان موقع وادي الاردن الجغرافي الفريد يجعل من اريحا منتجعا شتوياً مثالياً ، لان الطقس هناك مشمس دافيء في جميع الاوقات تقريباً .

التـــاريخ الطبيعي :

تخلو البلاد كلياً من الحشرات التي تنقل الاوبئة الفتاكة ، حتى في فصل الربيع فأن الزائر لا يصادف سوى القليل من البعوض والذباب ، اما غزوات الجراد المتقطعة فتشكل منظرا مذهلا اذا شاء سوء طالع الزائر ان يمر باحداها ، ولكن الجراد لا يعيق المسافر ولا يسبّب له اي ازعاج . ولا توجد في البلاد انواع كثيرة من الحيات ، والسامة بينها نوعان فقط : الافعى العادية ، والافعى ذات القرون ، والاخيرة شديدة الخطر ، ولكنها لحسن الحظ تقيم في الارجاء الصحراويه ونادرا ما توجد في المناطق المأهولة . وتعيش العقارب ، الصفراء منها والسوداء ، هنا وهناك ، ولكن قرصتها لا تزيد على ان تزعجك يوما وليلة . وينطبق القول نفسه على ام اربعة واربعين ، واذا شهدت احداها تسير على بدنك فحاول ان تكنسها باتجاه سيرها ، اما اذا فعلت العكس فأن سيقانها الحادة يمكن ان تنغرس في جلـــدك وتسبّب لك كثيراً من الضيق :

ان الازهار البرية التي تنوّر في كل مكان اثناء فصل الربيع – تحول البلاد لبضعة اسابيع الى حديقة طبيعية واسعة ، لا تتسع الكلمات لوصف جمالها . وربما كانت زهرة (الحندقوق) وهي ذات لون ارجواني داكن – اكثر انواع الزهور البرية التي تنمو في البلاد ، وهي تكثر في المناطق الوعرة وخاصة في السهل بين عمان وزيزياء ، كما تكثر ايضا زهور : شقائق النعمان وبخور مريم والسوسن والسيراس وصابونة الراعي والخطميه والاقحوان والزنبق والخزامى . وكانت زهور النرمس البري الزرقاء في وادي شعيب منظرا شهيرا الى ما قبل بضع سنوات ولكن اكثرها اندثر الان بفعل امتداد الزراعة . وفي الربيع ترى الاودية والسهول –

والصحراء ايضا اذا كان الشتاء جيداً—بساطا فسيحا تشتبك فيه الوان النوار المتنوع بين ازرق واحمر واصفر وارجواني فوق الحشائش الخضراء والارض الحمراء . ان وصفها هنا يبدو جافا ولكن المنظر في حقيقته بهيج فاتن . اما بين الشجيرات فازهار الدفلى الحمراء تزين جانبي كل جدول صغير ، بينما ينمو الرتم على الجبال . وتزدهر المكانس البيضاء في كل جهة ولكنها تلفت النظر في (رم) حيث تعلو سيقانها احيانا حتى يختفي وراءها الرجل راكب الناقة وحيث يتعطر الهواء برائحتها الزكية.

اما الحيوانات البرية فلا يمكن العثور عليها بسهولة ، ومع ذلك فلا تستبعد ان ترى عددا من بنات آوى وثعلباً او ثعلبين وهي تقطع الطريق امام السيارة عبر الحقول . ونادرا ما يشاهد الذئب والضبع والسمور والنمس والارنب البري واشباهها ، ولكن البلاد لاتخلو منها . وكانت الغزلان تعيش فيما مضى في جميع انحاء البلاد ، ولكن انتشار القرى وكثرة استعمال السيارات ادّت الى انسحابها بعيدا في الصحراء حيث ما تزال قطعانها تهيم هناك ، بل ان استعمال سيارات الجيب لصيدها ادى الى توغلها شرقا. وما يزال الوعل يقيم في منطقة حسما الى الجنوب من معان واحيانا في التلال المحيطة بالبحر الميت ، بل يشاهد بعض الناس النمر احيانا وكذلك القطط البرية والوبر .

وتكثر في البلاد انواع مختلفة من الطيور ، وتهاجر اليها في الربيع بعض الفصائل الجميلة كاللقلق والقطا الذهبي التي تأتي في اسراب كثيفة لا يقل السرب الواحد منها عن بضع مئات. ويوجد في البتراء ونواحيها طائر البلبل (الدّج) ذو اللون الوردي ، وطائر السمان ذو الالوان البراقة والسوادية (الزرزور) . وتوجد في هذه الجهات ايضا السحالي الزرقاء ، واخرى من نوعها ذات رؤوس زرقاء او حمراء . وحتى عام ١٩٣٠ كانت طيور النعام تعيش في جبل الطبيق ولكنها تراجعت الان الى فيافي البلاد السعودية .

وأحيانا كثيرة تحدث في الصحراء ظاهرة غريبه . فالامطار لا تهطل في الصحراء الا مرة كل سنتين او ثلاث سنوات ، ولكنها عند ذلك تنهمر بغزارة فتتكوّن نتيجة لذلك برك صغيرة غير عميقة تبقى ثلاثة او اربعة ايام . وبعد فترة قصيرة من تكوّن هذه البرك ، فانها تحفل بمخلوقات صغيرة تأخذ بالسباحة وبشتى نشاطات الحياة كأنها عاشت العمر كله في المياه . وخلال الفترة القصيرة التي تجد هذه المخلوقات ماء تسبح فيه — فانها تتزاوج وتتناسل وسرعان ما تدفن صغارها نفسها في الوحل الذي تراكم في قاع البركة ، وتبقى هناك بانتظار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الامطار التالية عندما تتكرر العملية ذاتها مرة اخرى . وانه لمن المدهش ان هذه المخلوقات تستطيع ان تبقى على قيد الحياة خلال فترات الجفاف الطويلة ، وان تشقّ طريقها بهـذه السرعة الى الحرية المتوافرة في الماء .

السكّـان :

اما فيما يتعلق بسكان البلاد ، فانهم ينتمون الى مجتمعين رئيسيين تؤلف سكة الحديد بينهما حدا فاصلا على وجه التقريب ، ومن هذا نستطيع ان نستنتج نوع الحياة التي يحياها افراد كل من المجتمعين .

يقيم البدو في الشقة الشرقية وهم يسمون انفسهم العرب او العربان . وهذه التسمية صحيحة كلياً لان البدو هم العرب الخلّص ، ولا تجمعهم بالفلاحين والقرويين سوى روابط قليلة من ناحية الجنس . ومع ذلك فيحتمل ان يكون القرويون اقدم من البدو في الاقامة بالبلاد . والواقع انه بغضّ النظر عن التباين البسيط في شكل اللباس ، فان الفوارق الطبيعية تبدو واضحة لكل ذي عين متبصرة : البدوي بوجهه الدقيق النحيل وعينيه اللامعتين وجسمه الخفيف والفلاح بوجهه المستدير البشوش وجسمه الممتلىء . على ان قولا كهذا لا يخلو من صفة التعميم ، وانك لتجد حتما استثناءات لما تقدم بين البدو وبين القرويين .

كان البدو في الاصل قبائل رحّلا تتجول كل قبيلة ضمن منطقتها القبليـة ، ولكنهم الان اخذوا يستوطنون بسرعة ويقتربون شيئا فشيئا من الشقة الغربية . وهذا التطور يحمل عموما معه قدرا معينا من الانحلال للروح البدوية الصافية ، إذ يتنفس البدو هواء البلدة او القرية بما فيه من ضلال وخداع — على ان هذا التطور قد يجعلهم مع ذلك اكثر نفعـا للمجتمع . ولكن البدو رغم ذلك لا يفقدون قواعد سلوكهم الجميلـة ولا روح الضيافة العظيمة فيهم ، وهي الصفات التي أطلق عليهم بسببها لقب « السادة الأجاويد » . انهـم يعيشون في خيام من شعر الماعز ، تحيكهـا نساؤهم في شقق مستطيله ثم تخيطها الى بعضها البعض : وهم يعتمدون في عيشهم على تربية الماشية وقطعان الماعز والغنم والجمال ، كما تهتم بعض القبائل بتربية الخيول الاصيلة . ولكن غزو السيارات للبلاد قلّل كثيراً من الحاجة لاستعمال الجمال والخيول . يتنقل البدو مع مواشيهم من مرعى الى مرعى ، وفي فصل الصيف ترى الماعز والاغنام منهمكة في تقليب احجار الصوان الصغيرة كانها تقضمها ، لان العين لا تكاد تجد على الارض شيئا سواها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ان البدو بطبيعتهم أفراديون وغيورون على استقلالهم الشخصي ، وهم يكرهون أي انتقاص لحريتهم . اما ولاؤهم فهو اولا لعائلتهم الاقرب ثم لعشيرتهم ثم للقبيلة التي ينتمون اليها . واذا اعلن شيوخ القبيلة ولاءهم الى حاكم اعلى فان افرادها يتابعونهم في ذلك . ولكن هذه النظرة الاستقلالية حالت بين البدو وبين ان يصهروا انفسهم في مجموعة مترابطة تسعى لتحقيق هدف معين ، حتى لو تولى قيادتهم اكثر الزعماء الموهوبين أهلية لذلك .

ويعيش البدو حياة بسيطة ، شاقة ولكنها على العموم سعيدة . مع العلم ان كثيرين منهم يتنهدون اذ يتذكرون ايام العز السالفة عندما كانت الجماعات الغازية تنقضّ هنا وهناك على الجهات المأهولة يصاحب انقضاضها ضجة كبيرة مع قليل من الخطر ، وعندما كان كل انسان لا يدري من اين تأتي الغزوة التالية . كان الغزو حقا رياضة البدو وتسليتهم المفضلة ، ولكن هذه العادة قُضي عليها كليا في الاردن ، وقد وقعت آخر غزوة قبلية عام ١٩٢٧ . ومع انه يسمح للبدو بان يحملوا السلاح من بنادق ومسدسات وسيوف وخناجر — الا ان مسلكهم لا غبار عليه ، وهذه الاسلحة تجعل من كل واحد منهم شرطيا على نفسه ، حتى هبطت الجرائم الى حدها الادنى . وللبدو مجموعة قوانينهم ومحاكمهم العشائرية الخاصة ، وهم في الاحوال العادية ميالون للهدوء واطاعة القوانين . وانك لتجد عددا من السود بين القبائل ، وهؤلاء هم أحفاد العبيد الذين استعربوا كليا واخذت القبائل تعتبرهم من ابنائها ، الا ان البدو لا يزوجون بناتهم لهؤلاء الملونين .

اما الجزء الثاني من الاهلين فهو الان مزيج من عدة عناصر ، ومن المحتمل انه كان كذلك دائما . هناك اولا الفلاحون والمزارعون ، وهؤلاء على الارجح احفاد الادوميين والمؤابيين والأموريين والعمونيين الذين تذكرهم التوراة ، وطراز حياتهم يختلف كثيرا عن حياة اولئك الاجداد . انهم كفلاحي اكثر بلدان العالم — بشوشون ، مضيافون ، شكّاكون ، يسهل خداعهم . وهم كأمثالهم في الاقطار الاخرى يشكّلون السلسلة الفقرية للبلاد ، لان ثروة الاردن الطبيعية تكمن كلها في الزراعة . على انهم يهتمون كثيرا بتطوير معداتهم ووسائلهم ، وقد بدأوا يستعملون المحاريث الآلية والحصّادات والدرّاسات وغير ذلك من الآلات الزراعية . ولكنهم محافظون في حياتهم المنزلية حتى لتجد مخطط منزل المزارع العادي يكاد يكون نسخة طبق الاصل من مخطط اي منزل قديم يعثر عليه علماء الاثار : ولا شك ان محافظتهم على تقاليدهم جديرة بالاعتبار ، لان الناس الذين يهملون تقاليدهم انما يهملون القاعدة الاساسية التي يمكن ان تبنى عليها تطورات المستقبل :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

توجد في المناطق الشمالية قرى للشركس والشيشان ، كما يوجد عدد قليل من التركمان والدروز والبهائيين الايرانيين . والقد جاء هؤلاء الى البلاد قبل زمن بعيد ، والترك هم الذين جاءوا بالشركس والشيشان والتركمان في اواخر القرن التاسع عشر . ويقيم معظم الشراكسة في عمان وجرش وصويلح ووادي السير[1] وهم يتكلمون العربية بالسهولة التي يتكلمون بها لغتهم الأصلية ، كما أنهم في عهد الاتراك كانوا يتكلمون التركية ايضا . ولكن الجيل الجديد منهم اتخذ الانجليزية لغة ثالثة بدلا من التركية . ومن العسير التفريق بين ابناء الجيل الجديد وبين جيرانهم العرب ، اذ حدث بين الطرفين تزاوج كثير ، لان هؤلاء يدينون بالاسلام وكان دينهم سببا في اضطهاد الروس لهم وفرارهم الى تركيا . ويتألف الحرس الملكي كله من خيالة الشركس بألبستهم التقليدية ، وهي حقاً ألبسة جميلة جدا ومهيبة .

اما سكان المدن — من تجار وصنّاع وكتبة وغيرهم — فهم في الغالب من السوريين والفلسطينيين ، وانك لتجد معظم الفلاحين والبدو يولدون ويموتون وهم مدينون لهم . على ان طريقة التعامل ، كما يبدو ، لا تتسبب في قضاء الليالي المسهدة ولا في خراب بيت اي من الطرفين — الا فيما ندر — فالدين يعقد بقلب لا تثقله الهموم مع تحفّظ مضمر بان قيمة الدين لن تؤدى نقدا . ولا يخفى هذا التحفظ عن التاجر ، لذلك تراه على اتم استعداد لاستلام قيمة الدين اشياء عينيه يمكنه بسهولة ان يحولها الى نقود . وهذه الملاحظات تنطبق فقط على صغار التجار والمزارعين ، اما في المدن الكبيرة كعمان واربد فان التعامل يجري على مقياس الاعمال الكبيرة في ايامنا هذه .

ان الاسلام هو دين الدولة في الاردن ، ولكن توجد في البلاد ايضاً طوائف من المسيحيين . ويبدو ان هؤلاء لم يفقدوا شيئاً من ولع اسلافهم البيزنطيين بتشييد الكنائس ، حتى لتجد سبع كنائس في قرية متوسطة كالحصن . وربما لا يمكن مقارنة هذه الجهود بجهود ابناء القرن السادس ، خاصة عندما يدرك المرء انه لم يكن في ذلك الحين سوى طائفة واحدة هي طائفة الروم الارثوذكس ، بينما قد نجد الان ان هذه الكنائس السبع تمثل سبع طوائف مختلفة .

---

(١) وعمان وناعور والزرقاء ايضاً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دائرة الآثار :

ولما كان هذا الكتاب يعالج بصورة رئيسية آثار الاردن ، فلا بدّ من كلمة حول دائرة الآثار الحكومية . يقع متحف الآثار ، وهو مركز الدائرة الرئيسي ايضا ، على جبل القلعة في عمان [1] وهو يضم مجموعة من المعروضات التي تصور حياة البلاد وتاريخها من عصور ما قبل التاريخ حتى سنة ١٧٠٠ ب م . حيث لا يعتبر ما يخص الفترة التي تعقب ذلك التاريخ – شيئاً اثريا بصورة رسمية . ومهمة الدائرة الرئيسية تتعلق بالادارة ، وخلاصتها الحيلولة دون اتلاف او هدم المواقع الأثرية العديدة في البلاد ، وان تقوم باعمال الترميم والحفريات التي تغدو ضرورية من وقت الى آخر . وانك لتجد آثارا رائعة عديدة تمثل حضارة البلاد القديمة كالبتراء وجرش وام الجمال وبعض القصور الاموية الجميلة بالاضافة الى مئات من المواقع الأثرية التي لا تقل اهمية عما ذكرنا ، بل ربما كانت اعظم اهمية من وجهة نظر آثارية .

ولقد صدر قانون للآثار ينتظم جميع نواحي النشاط المتعلق بالاثار ، ومن أهم مواده منع القيام بحفريات على الآثار دون ترخيص ، لان حفريات كهذه لا تدمّر الاشياء القديمة فحسب بل تدمّر ايضا كل ما للموقع من قيمة أثرية وتاريخية . ويستطيع كل زائر للبلاد ان يساهم في انجاح هذه الخطة بان يرفض ابتياع الاشياء الأثرية التي تعرض عليه اثناء سفره . فالطلب تتبعه دائما محاولة للتلبية وهذه التلبية لا يمكن ان تتم بصورة قانونية مشروعه. والدائرة نفسها تعرض للبيع كمية صغيرة من التحف الأثرية – أسرجة ونقود مثلاً – وهي تتميز بكونها أصيلة لا شك فيها ، بينما لا يكون ذلك مؤكداً اذا ابتاع الزائر شيئاً بالطرق المكتومة . اما اذا حدث وعرض عليك أثر لا تستطيع مقاومة الاغراء بابتياعه ، فالمرجو منك ان تتكرم بعرضه على احد الموظفين المسؤولين في الدائرة سواء في عمان او القدس ، قبل ان تأخذه معك الى بلادك حيث ربما لا تتاح مشاهدته لمن يستطيع ان يقدّر قيمته الأثرية . وقد يكون لذلك الأثر أهمية خاصة. وفي تلك الحال ربما شاءت الدائرة ان تسجّل ملاحظة عنه ، وربما أدّى ذلك الى ارشاد الخبراء نحو اكتشافات أخرى.

---

(١) كان الأمر كذلك قبلا ، اما الآن فقد بقي المتحف على جبل القلعة وانتقلت مكاتب دائرة الآثار الى أبهاء المدرج الروماني .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثاني

تاريخ الأردن – عصور ما قبل التاريخ : النيوليثي (٨٠٠٠ – ٤٥٠٠ ق.م.) الخالكوليثي (٤٥٠٠ – ٣٠٠٠ ق.م.) – العصر البرونزي الأول (٢١٠٠ – ١٥٠٠ق. م.) العصر البرونزي الثاني (١٥٠٠ – ١٢٠٠ ق.م.) – روايات التوراة (٢٠٠٠ – ١٣٠٠ ق.م.) العصر الحديدي (١٢٠٠ – ٣٣٠ ق.م.) – الحجر الموآبي – العهد الاشوري – ظهور بابل – الامبراطورية الفارسية – العصر الهيليني (٣٣١ – ٦٣ ق.م.) – روما وبيزنطة (٦٣ ق.م – ٦٣٦ ب.م) – الاسلام (٦٣٦ ب. م.) .

اقام الانسان في الأردن ، كما اقام في سواه من اقطار الشرق الأدنى ، منذ عصور ما قبل التاريخ الأولى . على ان هذه البلاد لم تستمتع قط بقدر عظيم من الثروة والحضارة كما استمتعت الاقطار المجاورة لها كسوريا والعراق ومصر ، وتعود الأسباب الرئيسية الى عزلتها الجغرافية وعدم وجود موارد طبيعية كبيرة فيها . فمن الجهة الغربية يشكّل نهر الأردن والبحر الميت ووادي عربة حاجزا يفصلها عن فلسطين .. ومن الجهة الشرقية تحاذيها الصحراء الواسعة .. ومن الشمال حيث كان من المحتمل أن تندمج مع سوريا ، فان وادي اليرموك العميق يشكّل حداً طبيعياً .. اما من الجنوب فالحدود اكثر انفتاحا ، ولكن طبيعة الأرض الصحراوية لا تساعد على تيسير المواصلات .

ولكن بالرغم عن انعدام الاتصال المتين المباشر ، فهنالك دلائل كثيرة على وجود تأثير من مصر وبلاد ما بين النهرين . ولقد جاء هذا التأثير بصورة رئيسية عن طريق سوريا وفلسطين ، بل ان شيئا من التأثير البابلي تسلل عن طريق الجزيرة العربية . ويلاحظ ان الاشياء التي كان يستعملها الأقدمون يوميا ، كالفخّار مثلا ، تشبه الى حد كبير ما كان يستعمل منها في فلسطين ، ولكنها مع ذلك تحتفظ ببعض الفروق التي تدل على شخصيتها المحلية . كما ان الاردن انشأ على ايدي الانباط ، حضارة يمكن التعرّف على نماذجها في اي مكان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم تجر في البلاد حفريات على نطاق واسع حتى الآن ، ولا تدل المواضع الرئيسية التي أجريت فيها الحفريات دلالة كافية على الطابع العام لشرقي الاردن . فلقد كان تل الخليفة ، قرب العقبة ، مكانا لصهر المعـــادن وميناء يكاد يكون دولياً ، هو عصيون جابر المذكورة في التوراة . أما تليلات الغسول(١) في وادي الاردن — واية مواضع اخرى هناك — فعلاقتها بفلسطين اكثر توثقاً من علاقتها بالمواضع الموجودة في الجبال . وقد أجرت بعثة امريكية بعض الحفريات في جرش ، ولكن جرش لا تمثّـــل سوى العصرين الروماني والبيزنطي ، حينما اختفت ملامح الشخصية المحلية تقريباً ، وتوطدت اسباب الحياة المعيشية في الامبراطورية الرومانية الى حد بعيد . اما الحفريات في البتراء وخربة التنّور بوادي الحسا فتدل على حضارة الانباط ، بينما اجريت أبحاث في موضع يعود الى عصور مـــا قبل التاريخ ويقع في وادي ضبيعة(٢) بالصحراء الشرقية . والواقع ان الموضع الاردني النموذجي الذي تمت الحفريات فيه حتى الآن هو ذيبان ، المذكور في التوراة باسم ديبون . ولقد كانت الحفريات فيه مخيبة للآمال نوعاً ما ، اذ تبين ان كل شعب من الشعوب التي تعـــاقبت على الاقامة فيه — كان يستعمل للبناء نفس الحجارة التي كان يستعملها من سبقوه ، فيهدمها ويعيد بناءها ، وبذلك فُقدت الطبقات الطبيعية التي كان يمكن ان تتراكم فوق بعضها على مرّ العصور . ولقد قامت بعثة ايطالية باجراء بعض الحفريات على تل القلعة في عمان ، ولكن تبين ان الرومان كانوا قـــد ازاحوا جانبـــا معالم الشعوب التي سبقتهم . وقامت جمعيات امريكية وانجليزية بحفريات في أدر وبالوعة في منطقة الكرك ، ولكن لم ينشر حتى الآن الا النزر اليسير مما اكتشفته وتوصلت اليه البعثات الثلاث الاخيرة ، ويمكن ان يقال نفس القول في حفريات تل الخليفة والتنور . وهكذا نرى ان هذه الحفريات لم تزد علمنا كثيراً بتفاصيل التاريخ الاردني . على ان القسم الاعظم من آثار البلاد ما يزال بكراً لم يمسّ ، وهو ميدان للبحث حـــافل بالاحتمالات الواعدة . واذا قدّرنا ان أثرين مهمين هما حجر بالوعة وحجر ميشع (راجع صفحة ٢٩ وصفحة ٣٤) قـــد عثر عليهما بطريق الصدفة ، فاننا نستطيع ان نتصور الآثار التي يمكن اكتشافها عن طريق البحث العلمي المنظم .

---

(١) بين قرية سويمة وطريق ناعور — القدس ، قرب الجسر الذي اطلق عليه اخيراً اسم « جسر الامير عبد الله ».

(٢) شرقي القطرانة في الطريق الى قصر طوبة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عصور ما قبل التاريخ

في العصور الجيولوجية الموغلة في القدم ، كانت اجزاء من شرقي الاردن تحت البحر ، تدل على هذا انواع من المحار والصدف المتحجر التي يعثر عليها في جوانب كثيرة من البلاد . وكذلك تحتوي مناجم الفوسفات في الرصيفة قرب عمان على عظام وهياكل اجسام لانواع كثيرة من السمك والسحالي الضخمة والسلاحف البحرية ، التي يعود عهدها الى حوالي ثمانين مليون سنة . ولقد تقلب المناخ في هذه البلاد ، عبر العصور ، من اشد درجات الحرارة الى اشد درجات البرودة ، وكذلك حدث في سقوط الامطار تبدلات عديدة ، كما ان البراكين والزلازل العنيفة كانت دائماً تفعل فعلها في تغيير شكل البلاد ومظهرها . وهنا يحسن لفت النظر الى ان العصور الجيولوجية تحسب بملايين السنين ، بينما لا تُعدّ العصور التاريخية الا بآلاف السنين .

العصر الباليوليثي : ٢٠٠٫٠٠٠ — ٨٫٠٠٠ ق.م.

لا بد ان تكون الاحوال التي رافقت ظهور الانسان في العصر الباليوليثي ، مماثلة للاحوال السائدة في عصرنا . وانك لتجد في كل مكان من البلاد الادوات الصوانية الكبيرة التي ندعوها : الفأس اليدوي ، والتي تعود الى العصر الباليوليثي الاول ، لان انسان ذلك العهد لم يكن قد صار كائناً اجتماعياً ، بل كان يعيش على ما تنبته الارض ، او على ما يستطيع ان يصطاد بيديه . ويبدو ان الانسان في العصور الاولى لم يكن يقيم في الكهوف ، بل كان يتجول فوق وجه الارض مثل بقية الحيوانات .

ومع مرور الزمن اخترع الانسان عددا من الادوات المختلفة : مقاشط لتنظيف الجلود ، اسنان لعمل الثقوب والخروق ، سكاكين للقطع . كما ان الادوات الخشنة الثقيلة الاولى تطورت مع الوقت حتى صار الانسان يصنعها اكثر خفة وتناسقاً . على ان التطور في الواقع كان بطيئاً جدا ، فلم تحدث سوى تغييرات بسيطة خلال ١٥٠ الف سنة . ولكن الانسان عثر على الحاسّة الفنية في نفسه مع نهاية العصر الباليوثي ، لذلك تجد في (كلوه) بجبل الطبيق على الزاوية الجنوبية — الشرقية للبلاد ، نقوشاً على بعض الصخور تمثّل اشكال الحيوانات التي كانت معروفة يومذاك . وهناك دليل طريف على قِدَم هذه الرسوم ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالاضافة الى الادوات الصوانية الكثيرة : ذلك ان كتابات ثمودية نقرت في الصخر ، فوق الرسوم الاولى ، حوالي القرنين الخامس او السادس بعد الميلاد . وما تزال خطـــوط الكتابات بيضاء رغم تعرضها للشمس مدة ١٥٠٠ سنة ، بينما تحولت رسوم الحيوانات الاولى الى اللون الرمادي الغامق ، دليلا على انها تعرضت للشمس اضعاف المدة التي تعرضت لها الكتابات .

العصر النيوليثي : ٨٠٠٠ــ ٤٥٠٠ ق . م.

اخذ الانسان في هذا العصر يصنع ادوات على قدر كبير من النحافة والدقة والجمال ، بل انه توصل الى طريقة فنية اخرى ، الا وهي صقل اطراف الفؤوس القاطعة . اضف الى ذلك ان الانسان بدأ بالاستيطان واخذ يحيا حياة اجتماعية ، ويقيم في اكـــواخ وقرى . وفي الحقيقة : فان الحفريات التي اجريت مؤخرا في اريحا ــ دلتنا على ان حضارة ذلك العصر كانت ارقى بكثير مما كنا نظن . فلم تكن اريحا التي تعود الى ذلك العصر مجرد قريـــة ذات منازل حسنة البناء وارضيات مصقولة من الملاط ــ بل كان هنالك سور عظيم من الحجر حول البلدة كلها يحيط به خندق من جميع الجوانب . ان هذا ليدل على درجة عاليـــة من التنظيم الجماعي ، وعلى اخضاع المنافع الشخصية للمصلحة العامة . اضف الى ما تقدم وجود برج فخم مستدير من الحجر تتوسط جوفه قصبة ذات درج متقن الصنعة ، مما يدل على رقي واسع في الفن المعماري . وفي هذا كله امثلة طيبة على ان الانسان النيوليثي الاول المقيم في وادي الاردن كان اكثر رقيا من الانسان المقيم في الاقطار المجاورة .

ولقد كان هؤلاء الناس على درجة من التقدم في مضمار الفنون ، لاننا نجد تماثيـــل مصنوعة من ملاط الكلس على حجم الجسم البشري تقريبا . ويسترعي النظر ان القشرة الخارجية ملساء رقيقة ، وان الشعر والملامح الاخرى رسمت بالدهان ، وان صدفا رُصّع في مكان العينين . ومن الاكتشافات الملحوظة في اريحا مجموعة من الجماجم ، رسمت على كل منها ملامح الوجه البشري بملاط الكلس ، بعد تعبئة تجويف الجمجمة بالطين . ولقد بلغ تمثيل بعض هذه الجماجم حدا مدهشاً من الاتقان ، ممـــا يدل على قوة ملاحظة في تشريح الشكل ، وهنا ايضاً نرى الصدف يحل في موضع العينين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتدل رؤوس السهام التي تم اكتشافها ، على ان القوس والنشاب اختُرعـا في هذا العصر ، كما ان نصال المناجل تعطي ايضا اول الدلائل على الزراعة . وهكذا لم يعد الانسان عالة على اهواء الطبيعة وتقلباتها فيما يتعلق بسلامته وموارد طعامه . وقد ظهر وجود قرى من هذا العصر في اماكن صارت اليوم جزءا من الصحراء كوادي (ضبيعه) شرقي زيزياء ، وانك لتجد ادوات من هذا الطراز في جميع ارجاء البلاد .

ولكن ربما كان اكتشاف طريقة صنع الفخّار ، هو اعظم انجازات العصر النيوليثي . ويبدو ان هذا الاكتشاف حدث حوالي سنة ٥٠٠٠ ق.م . ولا بد انه احدث انقلابا في الاحوال المعيشية ، مثلما احدث قبل ذلك اكتشاف المنافع الكامنة في الاسلحة الصوانية وحدودهـا المرهفة . واعتبارا من هذا التاريخ فصاعـدا يعتمد علماء الاثار على بقايا الفخار في متابعة تطور الحضارة وانتشارها اكثر مما يعتمدون على اية وسيلة اخرى . فالفخار سهل الانكسار كما انه سهل الصنع ، واذا انكسر وعاء الفخار فانه يطرح جانبا ، ثم ان كل شعب ابتدع شكلا وطرازا خاصاً به. وكانت أطرزة هذه الاشكال تتغير من عصر الى عصر . لذلك نرى صناعة الفخار اكثر رواجا من سواها ، كما ان اختلاف نماذجها يعد افضل وسيلة للتمييز بين الشعوب والجماعات . ومن هنا نرى ان عالم الاثار الضليع يستطيع بقدر كبير من الثقة والدقة ، ان يعيّن الموضع والتاريخ التي صنعت فيه هذه القطعة من الفخار أو تلك . وهناك بعض الدلائل على ان الانصاب Dolmens يمكن ان تكون مدافن موتى في ذلك العصر ، مع ان بعض الثقاة يعتبرونها من انجازات العصر الخالكوليثي : وهذه الانصاب عبارة عن بناء على هيئة صندوق قوامه الواح من الحجر توضع فوق جدار من حجارة اخرى واقفة . ولقد وجدت حقول من هذه الانصاب في جهات كثيرة من شمالي الاردن وخاصـة في وادي الاردن عند اسفل التلال الى الشرق من جسر داميه ، وكذلك عند سفوح التلال الى الشرق من (تليلات الغسول) وفي الاراضي الوعرة قريبا من حسبان ، وشرقي جرش ، وحوالي اربد . ومن المرجّح ان الدوائر الحجرية الكثيرة التي توجد هنا وهناك ، تعود ايضاً الى هذا العصر وان لها علاقة وثيقة بالانصاب .

العصر الخـالكوليثي : ٤٥٠٠ ـ ٣٠٠٠ : ق.م.

خطت الحضارة في تطوراتها خلال هذا العصر خطوات سريعة اجمالا ، وقد اعقب اختراع صناعة الفخار اكتشاف وسيلة تطبيقية أخرى ذات أهمية بالغـة ـ ألا وهي صهر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النحاس . ولكن الجهود الاولى في هذا المضمار لم تخرج عن طور المحاولة التجريبية . وظلت الادوات الصوانية تستعمل مدة من الزمن في هذا العصر ، الذي اتصلت اثناءه التجارب لصناعة استخراج المعادن .

وتعطينا الحفريات التي أجريت في (تليلات الغسول) في وادي الاردن ، صورة للحياة في هذا العصر ، حوالي سنة ٣٥٠٠ ق.م . تقريبا . هنا كانت قرية متوسطة ذات منازل حسنة البناء ، بعضها بني من الآجرّ المجفّف بفعل حرارة الشمس فوق اساس من الحجر ، وبعضها الآخر بني كليا من الآجر الترابي . اما السقوف فيحتمل انها كانت من الخشب وأعواد القصب والطين ، مثلما يبني كثيرون من سكان وادي الاردن المعاصرين سقوف منازلهم . وترى جدران بعض المنازل وقد طليت بالكلس ودهنت بألوان فاتحة مع رسوم تمثل الانسان والنجوم واحيانا بعض الأشكال الهندسية . . ولقد أحرزت صناعة الفخار تقدما ملموسا اذ كانت تشوى جيدا في النار ، وصارت تصنع على أشكال عديدة وزخارف مختلفة ، وكانت هذه الزخارف غالبا ما تمثل رسوما هندسية متقنة لونها أحمر او بني . وترى على قواعد بعض جرار الفخار آثار عيدان القصب الملتوية ، مما يدل على صناعة الحصر والسلال . بينما تدل بعض الحجارة المستديرة المثقوبة انهم كانوا يستعملونها مغازل لغزل الخيوط . وكانت النساء يتزيّن بقلائد من الصدف والحجارة . اما الرجال — اذا صح تفسير الرسوم — فقد كانوا ذوي لحى ويستعملون الوشم ، بينما بدا أحد الاشخاص وهو يلبس خفين مزيّنتين .

وعلى وجه الاجمال يعتبر هذا العصر والعصر البرونزي الاول الذي جاء بعده ، من العصور التقدمية الوفيرة الخيرات ، ولا بد أن البلاد كانت في حالة أمن وطمأنينة لان القرى لم تكن محصّنة تحصينا قويا .

العصر البرونزي

البرونزي الاول ٣٠٠٠ — ٢١٠٠ ق.م

تعتبر هذه الفترة استكمالا مباشرا للتطور الذي تمّ احرازه خلال العصر الخالكوليثي ، وقد أصبح المعدن يستعمل فيها بكميات أكبر . وأخذ الانسان يصنع من النحاس الاحمر أدوات مختلفة كالسيوف والخناجر ورؤوس الرماح الكبيرة . وبالمناسبة ، فان اطلاق اسم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العصر البرونزي لا يعتبر تسمية صحيحة نوعا ما بالنسبة للفترة الاولى والمتوسطة ، لان جميع الادوات التي تم تحليلها كانت من النحاس وليس من البرونز . والواقع أن هذه التسمية أطلقت في الايام الاولى للابحاث الأثرية ، ولكن استعمالها شاع بين الناس كما تشيع كثير من التسميات المغلوطة :

لم تجر حفريات في أي موضع يعود عهده الى هذه الفترة في شرقي الاردن ، ولكن وجدت في حفريات ذيبان جيوب من بقايا سكنى الانسان : على ان هنالك دلائل وافية على وجود مواضع من هذا النوع ، وذلك في البقايا الفخارية التي يمكن مشاهدتها ملقاة على سطوح بعض التلال . وفي مجموعات كبيرة من الفخار والادوات الاخرى التي يعثر عليها في الاضرحة في أماكن مختلفة من البلاد . ولقد كانت السكنات اكثر ما تكون في الشمال ، الا أن خطاً رفيعا من هذه المستعمرات يمتد من الشمال الى الجنوب : من اليرموك حتى الشوبك . اما الى الجنوب من الشوبك فلم يتم العثور بعد على أية آثار من هذه الفترة . ومن المحتمل أن يشير هذا الخط الى طريق التجارة الذي كان يتفرع الى مصر وفلسطين ، من أقصى نقطة في الجنوب ، كما يحتمل انه يمثل حدود الأرض التي كانت تستطيع تموين السكان المقيمين عن طريق استعمال الطرق والوسائل الزراعية المعروفة يومذاك .

البرونزي المتوسط ٢١٠٠ — ١٥٠٠ق.م .

انتهى العصر البرونزي الاول نتيجة لغزوة قامت بها قبائل بدوية . ومع ان حضارة هذه القبائل كانت ادنى بكثير من حضارة السكان المستوطنين ، الا ان هؤلاء كانوا فيما يبدو اكثر استعدادا للحرب ، لانهم استولوا على جميع المدن والقرى الرئيسية ودمروها ، واستطاعوا أن يوقفوا المد الحضاري الذي كان يسير الى الامام بخطى ثابتة . على ان ذلك التوقف كان مؤقتا ، لان قبائل البادية نفسها لم تلبث ان طردت من البلاد على ايدي غزاة قادمين من الشمال هم الهكسوس او ملوك الرعاة كما تسميهم التوراة . ولقد جاء هؤلاء الناس معهم بحضارة بالغة التفوق ، واذ كانت البلاد في حالة فوضى — كما يظن — فانهم لم يجدوا صعوبة في توطيد أقدامهم ومد سلطانهم حتى مصر التي افتتحوها وحكموها مدة من الزمن . وبمجيء هؤلاء القوم ، يظهر نموذج من الفخار جديد كل الجدة ، وعلى قدر عظيم من التطور في الصنعة والاتقان والجمال . وبهذا نرى النماذج والطرز التي كانت تتطور بصورة مطردة خلال العصر الخالكوليثي والبرونزي الاول — نرى انها سرعان ما تتوقف كليا وتندثر . وهنا تبدأ البضائع الكمالية بالظهور ، ومعظمها يستورد من مصر ، ويتكون عند المرء انطباع عن نشوء حضارة تتسم الحياة فيها بمزيد من الحرية والاتساع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي هذه الفترة يحدث تطور مهم آخر ، الا وهو ظهور المدن والقرى ذات الحصون القوية : لقد انقضى عهد الامن الداخلي ، الذي لا تستعيده البلاد في الواقـــع الا عند مجيء الرومان .ولقد كان الهكسوس انفسهم هم الذين ادخلوا الحصان والمركبة الى الشرق الاوسط .

اما فيما يتعلق بالاردن خاصة ، فلا تتوافر دلائل كثيرة في الوقت الحاضر على ان حضارة الهكسوس كان لها أي تأثير ، وحتى الان لم توجد القطع الفخارية الخاصة بالهكسوس الا في اضرحة بعمان وناعور وجبل نبو . والواقع انه من العسير ان نعرف على وجه دقيق ، مـــا كان يحدث في هذه الاثناء في بقية البلاد. من المحتمل ان الهكسوس لم يحاولوا افتتاح البلاد كلها وان الاجزاء الاخرى بقيت تحت حكم البداة ، على اساس انه لم تكن هناك غنـــائم كثيرة يطمع فيها الهكسوس . ومع ذلك يبقى كثير من الغموض حول الموضوع .

طرد المصريون الهكسوس حوالي سنة ١٥٠٠ ق . م . وهكذا تشهد الفترة الثانية من هذا العصر نشوء الامبراطورية المصرية الكبيرة ابان عهد الاسرة الثامنة عشرة.

البرونزي الاخير ١٥٠٠ــ١٢٠٠ ق. م

لنعد الان الى قضية اقامة السكان في شرقي الاردن خلال هذه الفترة . ولقد تكوّنت فكرة عامة عند الباحثين ، ان شرقي الاردن كانت خالية من السكان خلال فترة السنوات ١٩٠٠ ق . م ــ ١٣٠٠ ق . م . أي حوالي ستمئة سنة : من حوالي منتصف العصر البرونزي الاوسط الى نهاية العصر البرونزي الاخير تقريباً . وقد كوّن الباحثون هذه الفكرة على اساس الابحاث التي اجروها في مئات المواضع في طول البلاد وعرضها . ونتيجة لهذا ، نشأ الاعتقاد بان البلاد لم تكن مأهولة خلال هذه الفترة الا بالبدو الرحّل .

ولكن ، كما بيّنا سابقا ، نرى ان منطقة عمان على الاقل كانت مأهولة بالسكان الحضر خلال فترة الهكسوس اثناء العصر البرونزي الاوسط. يدل على هذا الاضرحة العائلية الواسعة المزودة بجميع ادوات الدفن ، والتي عثر عليها في عمان وناعور ، ولا يمكن ان تكون من صنع البدو . ولقد توافرت قبل سنوات قليلة ادلة القت ضوءا جديدا على الموضوع ، الا وهي اكتشاف هيكل صغير خلال اعمال الانشاءات في مطار عمان الجديد. كان ذلك الهيكل يحتوي على مقادير كبيرة من الاواني الفخارية والادوات الاخرى ، ومن جملتها اواني فخاريـــة مستوردة من مسّينا(١) وقبرص ، وأصص حجرية للزهور من مصر ، وكلها من نماذج فترة

---

(١) مسينا : مدينة يونانية قديمة اشتهرت بحضارتها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السنوات ١٦٠٠ — ١٣٠٠ ق . م . وهذا يوحي الينا بأن عمان كانت مـأهولة بالسكـان المتحضرين ،لان وجود الهيكل يدل على وجود رجال دين واناس يتعبدون . اضف الى هذا كله ان ضريحا كبيراً اكتشف في مادبا ، وهو يعود الى الفترة الواقعة بين نهاية العصر البرونزي الاخير واوائل العصر الحديدي .

لقد تكونت فكرة عدم وجود سكان حضر في شرقي الاردن خلال الفترة المذكورة اعلاه ، نتيجة لعدم وجود مجموعات فخارية تعود الى العصر البرونزي الاوسط والاخير ، ولعدم العثور على اية اواني فخارية مستوردة من الخارج كنا نجد الكثير منها في فلسطين . ولكن الاكتشافات الحديثة التي جعلتنا نملك مجموعات فخارية موثوقة التاريخ — برهنت لنا أن صناعة الفخار المحلية لتلك الفترة تماثل الى حد كبير الفخار المعاصر لها الذي كان سائداً في فلسطين .

وعلى هذا ، فيجب ان يعاد فحص القطع الأثرية التي عثر عليها اثناء المسح العام على ضوء هذه الاكتشافات الجديدة . واقل ما يمكن ان نقوله الان ان عمان كانت بلدة ناشطة في تلك الفترة لان الهيكل — رغم صغر حجمه — كان هيكلا فخما .

روايات التوراة : ٢٠٠٠ — ١٣٠٠ ق . م .

ان المعلومات التي جاءت في التوراة يمكن ان تساهم في ايضاح الخطوط العامة لاحوال البلاد اثناء العصر البرونزي الاوسط ، والتي جرى استنتاجها من البحوث الآثارية . لذلك يتوجب علينا ان نعود قليلا الى الوراء لاستكمال معالم الصورة .

نرى مما جاء في سفر التكوين : ان الجزء الجنوبي من البلاد ، وهو الجزء الذي يمتد من وادي الحسا الى خليج العقبة ، كان يدعى (سعير) ونحن ندعوه اليوم (الشراة) وهي تسمية متطابقة ، وان هذا الجزء كان مأهولا بالحوريين ، سكان الكهوف . كما ان هذه المنطقة كـان يطلق عليها ايضا اسم (أدوم) وانها اعطيت لعيسو ، الذي عمل احفاده بالتدريج على طرد الحوريين او القضاء عليهم ، ثم احتلال البلاد باجمعها . وتتضمن التوراة قوائم بأسماء ابناء سعير الحوري وابناء عيسو ، الذين تطلق التوراة عليهم لقب (امراء) والاصح ان يطلق عليهم لقب (شيوخ) . كما تعطي اسماء ملوك ادوم ومدنهم الرئيسية . ونحن نستطيع الان ان نتعرف على اسم بلدة واحدة من تلك البلدان ، هي (بصيرة) الواقعة قرب الطفيلة ، والتي تدعوها التوراة باسم (بصرة) . وقد ذكرت التوراة ايضا نبأ معركة وقعت مع مديان ، المجاورة لادوم من جهة الجنوب في ارض موآب . ان هذه المعلومات عن فترة تقع حوالى سنة ٢٠٠٠ ق . م . تدلنا ان سكان البلاد كانوا يعيشون حياة قبلية ، كل قبيلة لها شيوخها وشيخ شيوخها ، او الملك ، الذي كان قراره نهائيا في جميع الشئون الادارية ، والذي كان يقود الجيش يوم المعركة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ان مجرد ذكر مديان وموآب – الجارتين الجنوبية والشمالية لأدوم – يدلنا ان هاتين المملكتين كانتا قائمتين فعلا يومذاك . واننا نلاحظ ان الانباء التقليدية المتعلقة بأصل موآب وجارتها الشمالية عمون ، قد وردت في سياق قصة لوط وبناته . ويبدو لنا ان هاتين المملكتين المتحدّرتين من اصل واحد ، كانتا تشتركان في مصالحهما العامة ، حتى نرى قصص التوراة المتأخرة كثيراً ما تخلط بينهما . على أن التوراة حرصت على تعيين حدودهما بدقة ووضوح ، فموآب تمتد من وادي الحسا (زرد) الى الموجب (ارنون) ، وعمون تمتد من الموجب الى الزرقاء (يبوق) . ومع ذلك فان التوراة تذكر ان عمون وموآب كانتا في العصور السابقة خاضعتين لأجناس من العمالقة ، كانوا يدعون (ايميين) في موآب و(رفائيين) و(زمزميين) في عمون . وقد بقي الوضع كذلك حتى ساق (كدرلعومر) ملك (عيلام) حملة تأديبية سحقت قوة هؤلاء العمالقة كما سحقت قوة « الحوريين في جبلهم سعير » . ومن المحتمل ان هذه الحملة جعلت اقامة عيسو وموآب وبني عمي في البلاد اكثر استقرارا .

تصمت التوراة عن احداث شرقي الاردن حتى زمن خروج الاسرائيليين من مصر . ولقد اجمع الباحثون الثقاة على ان تاريخ الخروج يقع إما في القرن الخامس عشر او القرن الرابع عشر ق . م. بل ان معظم الدلائل تشير الى ان الخروج وقع في القرن الرابع عشر حوالي ١٣٢٠ ق.م. ومن الغريب ان الابحاث الآثارية توحي بأن البلاد لم تكن مأهولة خلال تلك الفترة ؛ وكذلك تصمت التوراة عن ذكر احداثها. ولكن ايا كان التاريخ الصحيح لخروج الاسرائيليين – فان التوراة تنصّ على وجود عدد كبير من السكان المقيمين في آدوم وموآب وعمون ، وبطبيعة الحال لا يمكن ان يتكاثر اولئك السكان الى ذلك الحد خلال جيل واحد (١)

---

(١) طلع الدكتور نلسون جلوك (وهو يهودي) بهذه الفكرة في كتابه « الجانب الآخر من الاردن The Other Side of the Jordan » . وقصد اليهود من هذا الايحاء ، بان البلاد لم تكن مأهولة بقوم متحضرين مستقرين اثناء الغزوة الاسرائيلية ، وان اهلها لم يكونوا سوى قبائل بدوية طارئة . ولكن الدلائل الأثرية تؤكد ان البلاد كانت مأهولة بقوم ذوي حضارة تفوق حضارة القبائل الاسرائيلية الغازية التي كانت على قدر عظيم من التوحش والهمجية كما نفهم من اقوال التوراة نفسها . والمؤلف نفسه يرى ان الدلائل متوافره على وجود حضارة واستقرار خلالي الفترة ١٧٠٠ – ١٢٥٠ ق.م . اى قبل حدوث الغزو الاسرائيلي . ومن تلك الدلائل المعبد الذي عثر عليه في ارض المطار في عمان ، والمدافن التي اكتشفت في جبل القلعة وفيها ادوات عديدة ، ومكتشفات اخرى في ناعور وصويلح بالاضافة الى فخار المسينيين الذي يدل على ازدهار التجارة . وقد جرى التثبت حديثاً من ان عمان كانت ذات مدنية زراعية مزدهرة خلال الفترة ١٨٠٠–١٣٠٠ ق.م (راجع حولية دائرة الآثار – المجلدين الرابع والخامس ، ١٩٦٠ وكتاب الاردن الحديث الذي اصدرته مديرية المطبوعات ، ١٩٦٢) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاصحاح العشرون من سفر العدد :

عندما وصل بنو اسرائيل الى قادش في الجنوب من فلسطين ، وجدوا آدوم مملكة جيدة التنظيم وعلى رأسها ملك يحكمها . وكتب الاسرائيليون الى هذا الملك من قادش « مدينة في طرف التخوم » يطلبون منه السماح لهم بالمرور من اراضي آدوم في هدوء « في طريق الملك نمشي ، لا نميل يمينا ولا يسارا ، حتى نتجاوز تخومك » . ولكن طلب الاسرائيليين قوبل بالرفض ، وقيل لهم بأنهم سيقابلون بالقوة اذا حاولوا العبور . وكرر الاسرائيليون طلبهم ، فأعدّ الملك قواته الحربية وخرج بها حتى اقتنع اولئك انه يعني ما يقول . ان الاشارة الى « طريق الملك » ذات اهميـــة خاصة ، وهي تؤيد قول البعض بأن طريقا للقوافل كانت تشق البلاد من الشمال الى الجنوب . وهكذا أرغم الاسرائيليون على الالتفاف حول تخوم ادوم . وقد فعلـــوا هذا بالسير جنوبا حتى خليج العقبة ، ثم استداروا ـــ كما يظهر ـــ باتجاه الشمال الشرقي نحو معان ، ومن هناك واصلوا سيرهم شمالا ، في خط يكاد يوازي الطريق الصحراوية الحالية . فمروا بوادي الحسا (زارد) ووادي الموجب (ارنون) الذي كان يعتبر بداية ارض الاموريين ، اذ يبـــدو ان هؤلاء الاموريين كانوا قد اخرجوا العمونيين من تلك المنطقة وحلوا محلهم . وكان سيحون يومذاك ملك الاموريين وعاصمته حشبون (حسبان) قريبـــا من مادبا . والى هذا الملك طلب الاسرائيليون ان يسمح لهم بالعبور من ارضه . ورفض سيحون ان يسمح ، واشتبك معهم في معركة انجلت عن هزيمته وسقوط مملكته بأيدي الاسرائيليين « من ارنون الى يبوق ، الى بني عمون » .

وجاء في نص آخر لنفس القصة (التثنية ٢) ان موسى عندما طلب الاذن بالمرور سلما ، وان يسمح لقومه بابتياع الطعام والماء ـــ اضاف قائلا « كما فعل بي بنو عيسو الساكنون في سعير والمؤابيون الساكنون في عار » . مما يوحي بانه عومل هناك معاملـــة طيبـــة . ان هذه الاختلافات الغريبة ، التي تشتمل التوراة على كثير منها ، تجعل امر تنسيق تاريخ تلك الفترة على شيء من الصعوبة . وهذا النص الثاني نفسه يقول ايضا ان الاسرائيليين قتلوا كل رجل وامرأة وطفل في المدن التي شاء سوء طالعها ان تسقط بايديهم ، وكان سيحـــون قبل ذلك بمدة من الزمن ، قد اشتبك في قتال مع مؤآب ودمر بلدة عار (ربما تكون الكرك او الربة) وكذلك دمّر (اهل مرتفعات ارنون) . ويقصد بذلك صور الآلهة في المعابد المختلفـــة . لقد كان معبود موآب الاكبر يسمّى (كموش) الذي قيل بعد ذلك ايضا انه كان آله العمونيين ؛ ولكن المقتطفات تدل ان كل منطقة كان لها معبودها او البعل الخاص بها ، الذي لا يكون في العادة سوى نسخة مختلفة قليلا عن المعبود الرئيسي . اما المدن الاخرى التي تذكرها نصوص

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التوراة عند ذاك ، فهي ديبون (ذيبان) ومادبا وهما معروفتـــان جيدا في يومنا هذا . وهناك (نوفح) التي لم يتم التعرف على مكانها حتى الآن .

سفر العدد ــ الاصحاحان ٢٢ و ٢٣ :

بالرغم عن ان الاسرائيليين هزموا سيحون ، فقد كانت هناك كما يبدو قوات كبيرة الى الغرب من اراضي سيحون . لان الاسرائيليين لم يستطيعوا التقدم الى وادي الاردن ، للوصول الى فلسطين عن اقرب طريق . بل كان عليهم ان ينحرفوا شمالا الى باشان واذرعي (درعا) . وبعد ان الحقوا الهزيمة بعوج ملك باشان (الذي كان سريره الحديدي يومذاك في عمان) اصبح من السهل عليهم ان ينحدروا الى وادي الاردن ، وينصبوا خيامهم في « سهول موآب » على الترجيح حوالي موقع شونة نمرين المعروفة الآن .

وكان ملك موآب يومذاك هو بالاق بن صفور ، ونتيجة لاهتمامه الشديـــد باقتراب الاسرائليين المنتصرين من تخوم بلاده ، فانه سارع الى تأليف حلف مع ملوك مديان الخمسة ، وهي البلاد الواقعة الى الجنوب الشرقي من العقبة ، اي الحجاز . وقام هؤلاء الملوك بدعوة بلعام ، الذي كان كما يبدو نبياً مشهورا وحكيما ، لكي يأتي ويلعن بني اسرائيل قبل ان يشنوا الحرب عليهم . ولكن كان عليهم ان يرسلوا وفدين الى بلعام حتى وافق على المجيء ، بل انه جاء على شرط واضح انه لن يقول الا ما يأمره الله بقوله . واننا نجد في وصف ما حدث بعد ذلك ــ لمحة طريفة عن الاحتفالات الدينية في ذلك العهد . ومضى بالاق ومعه بلعام الى مرتفعات البعل ، فامره هذا ان يبني سبعة مذابح ويضحي ثورا وكبشا على كل مذبح منها . وعندما تم هذا ، طلب بلعام من بالاق ان يقف الى جانب تقدمته ، بينما يمضي هو الى « رابيـــة » لتلقي الوحي من الله . وحينما عاد وجد بالاق وجميع رؤساء موآب ينتظرون عودتـــه الى جانب المحرقات ، فأخذ يبارك بني اسرائيل بدل ان يلعنهم كما كان منتظرا : ولا بد ان بالاق فوجيء واستولت عليه الدهشة ، ولكن عزيمته لم تهن ، فاقترح ان يأخذ بلعـــام الى موضع اخر لعله يتلقى وحيا مغايرا لما سبق . وعلى هذا أعيد الاحتفال الديني وقدمت المحرقات مرة ثانية على قمة (سياغة) ولكن النتيجة لم تختلف عن نتيجة التجربة الاولى : ورغم هذا فان بالاق لم يقنط ، فكرر العملية في موضع ثالث وتكررت النتيجة اياها . وعندئذ نفض بالاق يديه من الموضوع ، كما يبدو انه تخلى عن فكرة محاربة الاسرائيليين ، الذين حولوا اهتمامهم ، لسبب ما ، نحو جموع المديانيين . ووقعت المعركة بين الطرفين ، واثناء القتال سقط بلعام نفسه صريعا ، وهو يحارب ضد الشعب الذي باركه قبل قليل والذي تنبأ له بمستقبل عظيم :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واتخذ سبطا جاد وراؤبين ونصف سبط منسّى ـ منطقة الاموريين والعمونيين وباشان ، دار اقامة لهم ، واخذوا يبنون ـ أو يعيدون بناء ـ القرى والبلدان العديدة التي يمكن التعرف على بقاياها حتى اليوم . ومضى موسى الى قمة جبل نبو ، الذي كان معبدا من معابد الموآبيين ، حيث القى انظاره نحو أرض الميعاد . ومات موسى هناك ، ودفن في مواجهة معبد البعل في (بيت فغور) . ولقد كانت وفاته نهاية غريبة بالنظر لكونه قضى كل حياته وهو يحارب هذه الالهة الوثنية. ولم يلبث الاسرائيليون بعد ذلك حتى عبروا الاردن بقيادة يشوع بن نون. وابتداء من هنا وطّن سكان شرقي الاردن انفسهم على قضاء مدة طويلة من الزمن في صراع مرير ومعارك عنيفة مع الاسرائليون (١) .

العصر الحديـــدي ١٢٠٠ ـ ٣٣٠ ق. م.

اصطلح العلماء على تقسيم هذا العصر الى ثلاث مراحل : الحديدي الاول ، والحديدي الثاني والحديدي الثالث . وهو يبدأ حوالي سنـــة ١٢٠٠ ق . م . وينتهي سنة ٣٣٠ ق . م . ولكنني اغفلت التقيد بهذه المراحل في هذا الاستعراض الخاطف ، لان احداث العصر ياخذ بعضها برقاب بعض وتكاد تكون سلسلة واحدة .

ان الابحاث الأثرية تعطينا لمحات قليلة ذات قدر عظيم من الطرافة ـ رغم ايجازهـــا الشديد ـ عن الاحوال المعيشية في بداية هذا العصر . ولقد تم العثور في بالوعة ـ وهي قرية صغيرة خربة في الجانب المؤابي من الموجب غير بعيد عن الربة ـ على نصب كبير من الحجر الناري الاسود ، وقد نقشت على صفحته كتابة في اربعة سطور ورسوم ثلاثـــة شخوص آدمية . ان الشخوص تمثل ـ كما يبدو ـ ملكا يقف بين آلهين . وتدل هيئة الشخوص على تأثير مصري قوي جدا ، مع انه من المؤكد ان الأثر نفسه غير مصري . يعتمر كلا الالهين بتاج مصري ويحمل أحدهما صولجانا مصريا (Uas) كما انهما يرتديان مع الملك ملابس على الزي المصري . والملامح الوحيدة التي لا يبدو فيها الطابع المصري هي غطاء رأس الملك ورمز القمر والشمس (؟) فوق كتفيه . وانه لمن سوء الحظ ان تقلبات الطقس تركت اثارها على الكتابة بحيث كادت تنطمس معالمها ، وغدا من المستحيل قراءة حروفها او التعرف على

---

(١) يشير المؤلف الى ما في اقوال التوراة من تناقض . واود ان اضيف الى ذلك انني لا اعتقد بصحة كثير من المعلومات التي تذكرها التوراة ، ويؤلف حجر ميشع والكتابات التي نقشت عليه ـ دليلا ماديا على عدم صحة بعض اقوال التوراة ، لذلك يجب النظر الى ما جاء فيها بعين الحذر والتحفظ الشديد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شكل الفبائها. ويميل بعض الباحثين الى القول بأن النصب يعود في الاصل الى العصر البرونزي الاول . . وان استعماله قد اعيد في العصر الحديدي الاول .

ان ضريح مادبا الذي اشرنا اليه سابقا ، يدلنا على نوع الاشياء التي كان الناس يستعملونها والملابس التي كانوا يرتدونها في اواخر العصر البرونزي الاخير وبداية العصر الحديدي . اما الادوات الفخارية فصناعتها ضعيفة للغاية ، بل يمكن اعتبارها اقل جودة من أية أدوات فخارية اخرى عثر عليها خلال تاريخ الاردن الطويل . فلقد صنعت في اشكال بدائية غير متناسقة وكان شيّها بالنار سيئا . وهناك خناجر من البرونز ، ولاحدها طرف كان في الاصل مثبتا في مقبض خشبي . وهناك ايضا رؤوس سهام وبعض قطع اسلحة اخرى من البرونز . ومن ادوات الزينة توجد أساور من الحديد والبرونز ، وخلاخيل ، وخواتم وحلق ودبابيس لشبك الملابس ببعضها ، وكذلك حبات مسابح من الحجر والملاط المصقول. ويكمل الصورة وجود بعض الجعلان التي كانت هوايتها سائدة على زمن الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين في مصر ، وتعويذة على شكل عين مصرية مصقولة .

هذا التأثير المصري القوي المتمثل في هذين الأثرين — لا نجد له ذكرا في أي سفر من أسفار التوراة : أضف الى هذا ان السجلات المصرية نفسها تأتي على ذكر بعض الاماكن في شرقي الاردن ابان عهد الاسرة التاسعة عشرة .

سفر القضاة ، الاصحاح الثالث :

اذا رجعنا الى ما جاء في التوراة ، وجدنا في سفر (القضاة) ان عجلون ملك مؤاب زحف على فلسطين غازيا ، بل نرى انه يقيم فيها . ثم نرى الاسرائيليين يتحالفون مع العمونيين ومع العمالقة الذين قدموا من جنوبي فلسطين ، ويقتلون عجلون غيلة في أريحا حوالي سنة ١١٥٠ ق.م. ويطردون المؤابيين بعد ذلك من البلاد بعد مذبحة عظيمة جدا .

سفر القضاة ، الاصحاح السادس :

بعد هذا نقرأ أن المديانيين قاموا بهجوم على اسرائيل ، ولما كانت منطقتهم تقع الى الجنوب الشرقي ، وراء العقبة ، فلا بد أنهم كانوا متحالفين مع شرقي الاردن ، او انهم عبروا منها للقيام بهجومهم على فلسطين . واننا نرى من تفاصيل الحديث ذكرا لجمالهم ، ومن هذا نفهم أن قوات بدوية كانت ترافقهم . وقد أوقع جدعون قاضي اسرائيل يومذاك ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهزيمة بهم عن طريق الخديعة .. وأسر أميرين من أمرائهم هما غراب وذئب ، ثم لاحق القوات المهزومة عبر الاردن عن طريق مخاضة (دامية) كما يبدو ، مارا بسكّوث في الوادي ثم صعداً مع نهر يبوق (الزرقاء) الى جبهة (هي الجبيهة قريبا من عمان) . وهنا فرّ زبح وصلمناع ملكا مديان الى قرقر ، في مكان ما من وادي السرحان ، في طريق العودة الى بلادهما ، ولكن جدعون تابعهما وألحق بهما الهزيمة الاخيرة هناك . ووقع الملكان أسيرين بيد جدعون ، فعاد في نفس الطريق التي جاء منها كي ينزل العقاب بسكان فينوئيل وسكوّث(١) الذين رفضوا مساعدته عند خروجه لمطاردة المديانيين . وبعد هذا ذبح جدعون ملكي مديان « وأخذ الاهلّة التي في اعناق جمالهما » ؛ وغنم الاسرائيليون أيضا كمية كبيرة من الغنائم وأكثرها من أقراط الذهب الذي كان يتحلى به رجال مديان « لانهم اسماعيليون » .

سفر القضاة ، الاصحاح العاشر :

بعد هذا ، سرعان ما نرى العمونيين يشنون الغزوات اولا على الاسرائيليين النازلين في بلادهم . وبعد أن أحرزوا شيئا من النجاح هنا أخذوا يشنون الغزوات على الاسرائيليين في فلسطين . وفي هذا الوقت كان يفتاح زعيم اسرائيل . فأرسل اليه ملك عمون يطالب باعادة الاراضي التي أخذها الاسرائيليون في عهد موسى . ورفض الطلب طبعا . وفي المعركة التي حدثت بين الطرفين بعد ذلك لحقت الهزيمة بالعمونيين حتى ان الاسرائيليين غزوا الاراضي المحيطة بحسبان . وفي بداية حكم شاؤل نرى العمونيين يهاجمون الاسرائيليين مرة أخرى في يابيش جلعاد ، ونرى الهزيمة تحل بهم عن طريق استعمال الخديعة . وكان ناحاش يومذاك ملك عمون .

صموئيل الاول :

لا تذكر أدوم او مؤاب خلال هذه الفترة كلها الا بصورة عابرة . لقد كان داود يلجأ الى وادي عربة وأدوم ومؤاب وربما الى عمون ، أثناء فراره من وجه شاؤل . وعندما أصبح داود ملكا حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م . قام بهجوم على مؤاب وأدوم وأخضعهما ، رغم الروابط العائلية ورغم انه كان يجد فيهما ملجأ أمينا في أيام محنته ، وفي مؤاب ذبح ثلثي السكان . وكان الادوميون يقومون بغزوة على جنوبي فلسطين ، فألحقت بهم الهزيمة هناك على أيدي قوة يقودها يؤاب . وقد ظل يؤاب يطاردهم حتى وصل الى بلادهم وأخذ يقتل كل ذكر منهم يقع بين يديه . وفر الامير الادومي الصغير (هدد) الى مصر ، فاستقبله فرعونها استقبالا حسنا (ربما كان سيمون أو باسبخانو) وأعطاه بيتا ينزل فيه ومزرعة ، ثم زوجّه من اخت الملكة .

---

(١) يرجح الباحثون ان (فينوئيل) هي : قرية (برما) وان (سكوث) هي : (دير علا) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صموئيل الثـــاني ، الاصحاح العاشر :

أرسل داود وفدا الى حانون ملك عمون لكي يقدم اليه التعازي بوفاة أبيه ناحاش حوالي سنة ٩٩٥ ق.م. وكان ناحاش كما يبدو قد صنع معروفا مع داود ، وربما كان قد منحه ملجأ أثناء هروبه من وجه شاؤل ، فأراد داود ان يعبر عن اعترافه بالجميل .على ان الوفد استقبل بشعور التشكك وأهين اعضاؤه علنا . وقد أدى هذا بطبيعة الحـــال الى اعلان الحرب بينما تلقى العمونيون مساعدة من الحلفاء السوريين ، ولكنهم مع ذلك هزموا وتراجعوا الى مدينتهم ربة عمون (عمان) . وتلا هذا فرض الحصار على المدينة التي أرغمت على الاستسلام بعد ان تمكن الاسرائيليون من الاستيلاء على منابع المياه التي تستقي منها . وكما يبدو ، فان داود عيّن شوبي شقيق حانون حاكما على عمون وصار تابعا لداود. يدلنا على هذا ان شوبي وشيوخ آخرين من الاردن بادروا الى تزويد داؤد بالمؤن ، عندما قطع نهر الاردن اثناء الحرب التي نشبت بينه وبين ابنه ابشالوم .

الملوك الثاني :

لم تكن سيطرة داؤد على البلاد كاملة ابدا ، وعنـــد وفاته حوالى سنه ٩٦٠ ق.م استطاعت آدوم على الاقل ان تستعيد قدرا كبيرا من الاستقلال . لقد عـــاد الامير هدد من مصر واخذ يحكم بلاده مرة اخرى ، ويبدو انه لم يبق في يد سليمان سوى ميناء عصيون جابر قرب العقبة . ولكن سليمان عقد محالفات بينه وبين البلاد عن طريق اتخاذه زوجات من ادوم وموآب وعمون ، وكانت زوجته العمونية ابنة لحانون .

وفي هذا المجال ايضا تؤيد الآثار ما جاءت به التوراة من اقوال. فقد اظهرت الحفريات التي أُجريت في تل الخليفة ــ وهو موضع عصيون جابر كما يعتقد ــ ان صهر النحاس كان الصناعة الرئيسية فيها ، وكان هذا النحاس يستخرج من مناجم وادي عربه . كانت هذه البلدة على شكل مستطيل تقريبا ، يحيط بها سور عريض الجدار وله بوابة ضخمة . اما الافران فقد كانت في الجانب الشمالي من البلدة . وتبدو المهارة الفائقة في هندسة هذه الافران ، وقـــد اختير موضعها في نقطة تهب عليها الريح الشمالية من وادي عربة ، اقوى مـــا تكون ، بحيث تشتعل النيران فيها وتعطي درجة كافية من الحرارة. كما عثر هناك على بوتقات لصنع الاواني الفخارية ، سعتها ثلاثة عشر قدما مكعبا . وكان السكان يستعملـــون الآجرّ المصنوع من الطين في بناء جميع الابنية ، وتظهر اشكال الفخار فروقـــا غريبة بينها وبين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفخّار الذي تم العثور عليه في اجزاء اخرى من البلاد . وقد يفسر هذا بوجود علاقات قوية بين هذه المنطقة وبين جنوبي جزيرة العرب عن طريق التجارة . ولا بد ان السكـــان كانوا خليطا من جميع الشعوب . اما المدينة ذات التخطيط الافضل فهي التي انشئت اولا ـــ حوالي زمن سليمان ـــ فقد عثر في الموضع على خمس طبقات مختلفة من ركام السكان الذين تعاقبوا عليها .

ولقد اظهرت البحوث السطحية التي اجريت في مئات المواضع القديمة في اجزاء اخرى من شرقي الاردن ـــ ان مستوى الرخاء والحضارة كان يتدرج في الارتفاع ، رغم الحروب والغزوات والمذابح التي سجلت انباءها التوراة . وقد انشئت على طول أطراف البلاد ، وفي المواقع الاستراتيجية : قلاع متينة بنيت من حجارة صوانية ضخمة ، كمـــا ان اطلال عدد كبير من القرى القديمة التي مازالت واضحة حتى اليوم ، تشير الى ان معظم سكانهـــا كانوا يمارسون الزراعة .

وعندما توفي سليمان حوالي سنة ٩٣١ ق . م . انقسمت مملكته الى شطرين همـــا يهوذا واسرائيل ، اللذين كانا دائما في حالة حرب مع بعضهما البعض أو داخل حدود كل منهما . ان انباء التوراة عن هذه الفترة مضطربة ومتناقضة ، ومن العسير على البـــاحث ان يكشف النقاب عن تاريخ متسلسل . لقد بنى يوشافاط ملك يهوذا اسطولا في عصيون جابر ، ولكن عاصفة دمرت هذا الاسطول قبل ان ينزل الى عرض البحر . وهناك عبارة في التوراة تقول انه « لم يكن هنالك ملك في ادوم ، بل نائب ملك » . وهناك عبارات مضطربة مفادها ان مملكة يهوذا هوجمت اثناء حكم يوشافاط من قبل مؤاب وعمون المتحالفتين مع ادوم . ويبدو ان المعركة اختتمت بهجوم شنّه العمونيون والمؤابيون على الادوميين فقتلوا منهم عددا كبيرا ، ثم تحول العمونيون والمؤابيون بعد ذلك الى قتل بعضهم البعض بينما كان يوشافاط وقومـــه يتفرجون ، حتى اذا لم يبق منهم احد على قيد الحياة بادر هؤلاء ـــ اتباع يوشافـــاط ـــ الى تشليح اجساد القتلى ونهب الحلى والامتعة الثمينة واستمروا في هذه العملية ثلاثة ايام .

الحجر المؤابي (قارن هذا مع سفر الملوك الثاني ، الاصحاح الثالث)

على اننا نملك عن هذه الفترة سجلا تاريخيا معاصرا لم يعثر بعد على سواه في البلاد . انه حجر ضخم اقامه ميشع ملك مؤاب في عاصمته ذيبان وسجل عليه انباء معـــاركه مع ملوك اسرائيل . وفيما يلي ترجمة كاملة لهذا السجل الفريد :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« انا ميشع ، ابن كموش ، ملك مؤاب الديبوني ، ملك والدي على مؤاب ثلاثين عاما ، وانا خلفت والدي في الملك . انا الذي بنى المكان المقدس لـ (كموش) في (كركا) ، انـه مكان عال للخلاص ، لانه انقذني من جميع اعدائي ، وجعلني انتقم من جميع الذين كانوا يبغضونني . لقد ضايق (عمري) ملك اسرائيل شعب مؤاب ايامـا عديدة ، لان (كموش) كان حانقا على بلاده ، ثم خلف ابن (عمري) اباه ، فقال ايضا « سوف اسيطر على مؤاب » : لقد قال هذا القول في ايامي ، ولكني انتقمت منه ومن آل بيته ، وهلكت اسرائيل هلاكا ابديا . لقد استولى (عمري) على ارض مادبا واقام هناك طيلة ايام حكمه ونصف ايام ابنه : اربعون عاما . ولكن (كموش) اعادها في ايامي . انا بنيت (بعل معيون) وانشأت البركة فيها ، وانا بنيت (كرياتين) . اما رجال سبط جاد فقد اقامـوا منذ زمن بعيد في ارض (عطاروت) وبنى ملك اسرائيل لنفسه (عطاروت) . وانا شننت هجوما على المدينة واستوليت عليها ، وذبحت جميع سكان المدينة وجعلت ارضها مرعى الى (كموش) و (مؤاب) ، وانا غنمت هيكل (دوداه) وجررته على الارض امـام (كموش) في (كريوت) . وجئت الى هناك برجال (شارم) و (مخراث) وانزلتهم فيهـا . وقال (كموش) لي « امض وخذ نبو من اسرائيل » . وسرت اليها في الليل وهاجمتها من الفجر حتى الظهر ، ثم استوليت عليها وذبحت جميع سكانهـا : سبعة آلاف رجل وامرأة .. لانني نذرتها الى (عشتار كموش) . واخذت آنيـة يهوه وجررتها أرضا امام كموش . وكان ملك اسرائيـل قد بنى (ياحص) واقام فيها اثناء محاربته لي . ولكن كموش هزمه امامي . لقد اخذت مئتي رجل من مؤاب وجميع زعمائها ، وجئت بهم للهجوم على (ياحص) فاستوليت عليها وضممتها الى ديبون . ثم بنيت كركا ، بنيت سور الغابة وسور التل ، وبواباتها وابراجها وقصر الملك ، وحفرت بركتين للماء في وسط المدينة . لم تكن هناك بئر ماء في المدينة ، وهكذا قلت لجميع السكان « ليحتفر كل رجل بئرا في منزله » . وانا حفرت القناة الى كركا بمساعدة الاسرى الاسرائيليين . وأعدت بناء (عروعير) ، وشققت الطريق الرئيسية في وادي ارنون . واعدت بناء (بيت ياحوث) بعد ان كانت خربة ، وكذلك (بيتسير) .. لان جميع اراضي ذيبون كانت خاضعـة لي . وانا حكمت مئة مدينة ضممتها الى البلاد . واعدت بناء مادبا (وبيت دبلاتين) وهيكل (بعل معيون) ، واخذت الى هناك رئيس الرعاة ... ومواشي البلاد . والان كان (خرنان) بن (ديدان) يقيم فيها ، وقال ديدان ... لقد قال لي كموش « امض وهاجم خرنان » . وهكـذا مضيت اليها وبدأت القتال ... واقام كموش فيها طيلة جميع ايامي ... »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان اخاب هو ابن عمري ملك اسرائيل . وكان معاصرا ليوشافاط ملك يهوذا ، ونرى في اقوال التوراة ان ميشع يوصف بأنه « صاحب مواشي » وانه كان يدفع جزية ثقيلة الى اسرائيل . ونرى انباء ثورته ترد على انها حدثت اثناء حكم يهورام بن آخاب . وكان هذا حوالي سنة ٨٥٠ ق . م. لقد تحالفت اسرائيل ويهوذا وادوم سويا لاسترداد ارض مؤاب ، وزحف المتحالفون ليهاجموا ميشع من الجنوب عن طريق ادوم التي كان يحكمها ملك من ابنائها يومذاك . واحرز المهاجمون بعض النجاح . وحاصروا ميشع في الكرك « فأخذ ابنه البكر الذي كان سيملك عوضا عنه واصعده محرقة على السور . فكان غيظ عظيم على اسرائيل . فانصرفوا عنه ورجعوا الى ارضهم ». من العسير ان نفهم كيف أدّى عمل ميشع هذا الى تلك النتيجة . ولكن عمله ربما كان يحمل من المعاني ما لا نستطيع ان نفهمه اليوم . كان واضحا ان ميشع وسّع مملكته الى الشمال من وادي الموجب واحتل على الاقل الجزء الجنوبي من مملكة عمون ، لان كثيرا من المدن المذكورة على الحجر ، مثل مادبا ، تقع الى الشمال من عاصمته ديبان ، التي تقع ايضا الى الشمال من وادي الموجب .

واثناء حكم يهورام ملك يهوذا التالي ، جنحت ادوم أيضا الى الثورة ونزعت عنها النير العبري . ونرى أن ملكاً آخر هو امصيا قد تمكن من صد هجوم قام به الادوميون على جنوبي فلسطين ، بل انه طارد المهاجمين حتى ارض بلادهم واستولى على سلع العاصمة (البتراء) حيث طرح من قمتها الشاهقة عشرة آلاف أسير ليلقوا حتفهم . وقد بقيت عصيون جابر — التي اطلق عليها الآن اسم ايلات — في ايدي يهوذا ، مدة من الزمن . ولقد وجد في الحفريات التي اجريت فيها خاتم حسن الصنع باسم الملك يوثام حفيد امصيا .

ولقد ازدادت معرفتنا بحضارة هذه الفترة زيادة طيبة نتيجة لاكتشاف تمثالين كاملين وبعض اجزاء من تمثالين آخرين ، خارج الطرف الشمالي لقلعة عمان . ان الشكل العام والثياب والتفاصيل الاخرى المتعلقة بالتماثيل تشير الى تأثرها بجميع الحضارات العظيمة المجاورة : من فينيقية ومصرية وآشورية ، وهو في الواقع تأثر متوقع ناشيء عن موقع البلاد الجغرافي . وتعتبر هذه التماثيل فريدة في نوعها بسبب كونها التماثيل الوحيدة من آثار هذه الفترة ، حيث يقف فيها الشخص وقفة كاملة غير مقيدة ، كما يعتقد بأنها التماثيل الوحيدة التي اكتشفت حتى الآن في الأردن او فلسطين ، من صنع فنانين محليين . وتوجد كتابة موجزة تتألف من سطرين على قاعدة احد التماثيل ، ومع ان الحروف تشبه الكتابة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المحفورة على حجر ميشع ، الا ان الكتابة امّحت لسوء الحظ حتى اصبح من العسير التعرّف عليها . ومن المحتمل ان تاريخ هذه التماثيل يعود الى حوالي سنة ٨٠٠ ق.م.

عهد الآشوريين :

بدأت قوة آشور تظهر الآن في افق تاريخ الشرق الأدنى ، وقد تركت آشور بقوتها ووحشيتها انطباعاً عميقاً في نفوس سكان سوريا وفلسطين والأردن . وحوالي سنة ٨٠٠ق.م. قام (أدد نيثاري) بأول حلقة من سلسلة هجماته على هذه البلاد . وفي فترة من الزمن تمكن من اخضاع شرقي الأردن حتى أدوم جنوباً . وتذكر السجلات الآشورية ادوم منفردة عن سواها . ولكن يظهر أن البلاد قضت بعد ذلك بضع سنوات مضطربة ، حتى ان الاهلين تخلصوا من قبضة الحكم الأشوري واستعاد الادوميون ايلات . وفي سنة ٧٤٥ ، افتتح تغلث فلاسر الثالث البلاد بأجمعها ، واضطر سانيبو ملك عمون ، وكموش ناداب ملك موآب وسلمان ملك ادوم — أن يدفعوا الجزية ويوافقوا على ان يشرف حكام اشوريون على شؤون بلادهم .

وعندما تولى سنحاريب سدة الملك سنة ٧٠٥ قامت في فلسطين محـــاولة للثورة ضد الاشوريين ، ولكن هذه المحاولة لم تلق تعضيداً في الاردن حيث كان بوديبل ملكاً على عمون وكموش ناداب اخر ملكاً على مؤاب ، وملك رام ملكاً على ادوم . لقـــد سحقت الثورة بسرعة ، وسمح لدول شرقي الاردن أن تحتفظ بنوع من الاستقلال الاسمي .

كان هؤلاء الملوك ما يزالون يدفعون الجزية عندما تولى اسرحدون بن سنحاريب الملك حوالي سنة ٦٨٠ ق.م. وقد جاء في رسالة موجهة الى الملك الاشوري ، ان الحكام الملكيين جلبوا منيّن ذهباً من بوديبل ملك عمون ، ومنّا واحدا ذهباً من موصوري ملك مؤاب وحوالي اثني عشر منّاً فضة من كوس—جابر ملك ادوم ، وهذا الاخير وجد رسمه مطبوعاً بأختام في تل الخليفة او ايلات . ويعتبر هذا اول سجل يذكر فيه آله ادومي باسم كوس ، ولكنه بعد ذلك يذكر مرات عديدة . واستمر اشور بنيبال الذي خلف اسرحدون في سياسة التوسع . ولكنه بينما كان يوجه اهتمامه الى مصر ، انفجرت ضده ثورة خطيرة قام بها البدو في وادي السرحان . لقد هاجم اولئك البدو تحت زعامة قائدهم (ياثا) الاردن واتسع نشاطهم شمالا حتى حمص في سوريا . واثناء احدى الغزوات البدوية وقع (مولادي) ملك (عرب قيدار) اسيراً في يد (كموش حالث) ملك مؤاب . ويومذاك كان (عميناداب) ملكاً في عمون ، وقد عثر في عمان على ادوات طريفة من تلك الحقبة تحمل اسمه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قبل حوالي ستين عاماً وجد في عمان خاتم لـ « ادوني — بيليت ، خادم عميناداب » وبعد ذلك بزمن عثر في ضريح منقور في الصخر على منحدرات القلعة — على مجموعة ممتازة من الآنية الفخارية وبعض الادوات الاخرى ، ومن جملتها خاتم نقش على فصّه اسم « ادوني نور ، خادم عميناداب » . ومن الواضح ان لقب خادم يشير الى كبير من موظفي البلاط . ومن المحتمل ان الخاتم الاول خرج كذلك من هذا الضريح ، وربما كان الشخصان اخوين او اب وابنه ، خلف احدهما الآخر في نفس الوظيفة . ولقد عثر على مجموعة من الاختام البديعة في الضريح ، أحدها يحمل اسم (شوب — ايل) . ويبدو واضحا في جميعها تأثير اشوري قوي . ومن جملة ما عثر عليه في الضريح ثلاثة توابيت كبيرة من الفخار ، كما عثر على خواتم فضية واقراط ومشبك صغير رائع الصنع من الذهب . ولقد اكتشف ايضاً ضريح اخر يعود الى نفس العهد تقريباً — على تلة الى الجنوب من جهة الوادي المقابلة لموقع ضريح (ادوني نور) . وكان هذا الضريح يحتوي على نفس المجموعة الفخارية ، بالاضافة الى قالب (Model) طريف لفارس وحصانه ، ولكن رأس الفارس لم يعثر عليه لسوء الحظ . وهذا المثال يظهر لنا بتفصيل كامل نوع السروج التي كانت تستعمل يومذاك ، ومن ضمنها شرّابة تتدلى على جبهة الحصان مثل الشرابات التي نراها في ايامنا هذه . كما عثر ايضا على ختم من العاج يحمل اسم (اللات — تيشا) ، مما يدل على ان اللات كانت احدى الآلهات التي كان اهل عمون يعبدونها ، وقد اصبحت عبادة اللات شائعة في العصور التي أعقبت ذلك العهد .

ولقد اكتشف ضريح ثالث يرجع الى نفس الفترة في موقع (المقابلين) في الطرف الجنوبي الغربي من عمان ، وعثر في هذا الضريح على ختم من العقيق الابيض ، وعلى ختم اسطواني ، وكلاهما من طراز الاختام الاشورية . ولكن كان هنالك مستوردات من الغرب على هيئة قارورتي عطر من الزجاج المتعدد الالوان الجميل الصنع . كما وجدت كذلك خيول وفرسان من الفخار ، كاملة الاشكال ، يبدو الفارس فيها معتمراً بقبعة عالية ذات حدّ مدبّب .

تحمل السجلات الاشورية لهذه الفترة أول اشارة تاريخية للانباط الذين اشتهروا بعد ذلك في تاريخ الاردن ، وتذكر السجلات انهم كانوا حينذاك ينزلون في الاراضي الواقعة الى الجنوب والشرق من ادوم ، أي أرض المديانيين سابقا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بزوغ نجـــم بابل :

انتهت الامبراطورية الاشورية بسقوط نينوى عـــام ٦١٢ ق . م . وقد أخـــذ نجم الامبراطورية البابلية يسطع في موضعها . وانفجرت الثورات في كل مكان بسبب انعـــدام السيطرة الحازمة . وخلال حكم نبوخذ نصر قام المؤابيون والعمونيون بغزوات على فلسطين حينما كان يواكيم ملكا على يهوذا ، وأعقب هذا ما يبدو انه محاولة للتحالف بين الاردن وفلسطين وجانب من سوريا ضد نبوخذ نصر . ولكن الملك البابلي بادر للعمل السريع فلم ينتج عن هذا التحالف أي شيء سوى ترحيل اليهود أسرى الى بابل . على أن كثيرين من اليهود فروا الى بلاد مؤاب وأدوم طلبا للنجاة . وعندما عيّن جدليا حاكما على فلسطين تحت سلطان بابل — فان هؤلاء أخذوا يلتفون حوله مرة اخرى . ولسبب لم يتضح بعد ، استأجر (بالس) ملك عمون شخصا يدعى اسماعيل لكي يقتل جدليا ، فقام هذا بتنفيذ المهمة الموكولة اليه .

لا يعرف الكثير عن تاريخ شرقي الاردن خلال العقود القليلة التالية ، ولكن يبدو انه حوالي سنة ٥٨٠ ق.م. بدأ الانباط يحتلون بلاد أدوم ، حيث ارغم الادوميون على الرحيل الى جنوبي فلسطين . كان الشرق الادنى كله في هذه الفترة في حالة فوضى وتفسخ ، فقد كانت الممالك القديمة في مصر وسوريا وما بين النهرين (العراق) في حالة انهيار ، وكانت مملكتا فارس واليونان ما تزالان في طور النشوء . ولقد طرد بصورة فعالة من بقي من اليهود في فلسطين وحلت محلهم شعوب اخرى .

الامبراطورية الفارسية ٥٤٩ — ٣٣١ ق.م.

عيّن الفرس حاكما عاما للمناطق العربية التابعة لامبراطوريتهم وألحقوا الاردن وفلسطين بادارته. وحوالي سنة ٥٠٠ ق.م. سمح الفرس لبعض اليهود المأسورين في بلادهم بالعودة الى فلسطين . وكان الادوميون في هذه الفترة قد استوطنوا جنوبي فلســـطين استيطانا تاما حتى عرفت فيما بعد باسم ادوميا . كما شنّ العمونيون والمؤابيون هجمات متعددة على اليهود بقصد منعهم من اعادة بناء الهيكل في القدس . لان الهيكل كان المظهر الخارجي الواضح لعودتهم الى البلاد واستيطانهم اياها من جديد. واشتبكت عمون كذلك مع مؤاب في معارك وحروب ، ونتيجة لذلك استردت عمون أراضيها الجنوبية حتى وادي ارنون (الموجب) . وفي هـــذه الفترة يبدو ان شخصا يدعى طوبيا ، من اصل يهودي ، صار حاكما في عمون . وكان رأس الاسرة التي سيطرت على تلك البلاد لمدة بضعة قرون ، لاننا نرى اسم الطوبيين يذكر مرة أخرى في عهد البطالسة . وكان طوبيا هذا من زعماء المعارضين لفكرة إعادة بناء الهيكل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العصر الهيللينى ٣٣١ ـ ٦٣ ـ ق.م.

لا تتوافر معلومات اوفى عن احداث البلاد حتى الوقت الـذي جرت فيه فتوحات الاسكندر سنة ٣٣٣ ق.م . وعند وفاته خضعت مصر وفلسطين والاردن وسوريا الجنوبية الى حكم بطليموس احد قادة الاسكندر ، الذي اتخذ مصر مركزا لحكمه . وفي هـذا الحين كان الانباط قدوطدوا دعائم حكمهم في ادوم وجعلوا عاصمتهم البتراء . وقد دفعت قصص ثرائهم بأنتيجونس حاكم سوريا الى ارسال جيش لمهاجمتهم حوالي سنة ٣١١ ق.م. وتمكن هذا الجيش من الاستيلاء على العاصمة ووضع اليد على جميع الغنائم ، الا ان القائد اهمل اختيار موضع مناسب يعسكر فيه ، فهاجمه الانباط وسحقوا الجيش اليوناني. وقام اليونان بمحاولة اخرى ، وفي هذه المرة أخلى الانباط عاصمتهم البتراء فلم يبق منهم فيها سوى عدد قليـل من الشيوخ الطاعنين في السن . وقد تمكن هؤلاء من الاتفاق مع القائد ديمتريوس فقدموا لـه مبلغا من المال وحققوا السلم في تلك المنطقة .

كان الجزء الشمالي من سوريا من نصيب سلوقيوس ، وهو قائد آخر من قادة الاسكندر . ولكن سلوقيوس لم يكن قانعا بنصيبه ، فاستولى على الاردن دون مقاومة كبيرة . وحوالي سنة ٢٨٤ ق.م. نهض بطليموس الثاني كي يصحح الوضع ، فغزا عمون واستولى عليها مع جانب من مديان ، وهكذا يظهر انه لم يحاول التعرض للانباط . ولقـد قوبلت الحضارة اليونانية بترحيب بالغ في الشرق الادنى ، لذلك نرى المدن الجديدة التي اخذت تنشأ في الاردن مثلها مثل المدن القديمة التي كان يعاد بناؤها من جديد ـ تشتمل على عناصر من الفنون وأساليب المعمار اليونانية . بل ان هذه الحضارة امتدت الى بلاد الانباط البعيدة وأثرت فيها وجلبت تطورا بيّناً في فن المعمار عند الانباط . وبدأ كذلك ظهور القطـع النقدية المسكوكة على الطرز اليونانية . وقد اطلق على مدن كثيرة اسماء جديدة تكريما لليونانيين الذين جددوا بناءها ، كمدينة عمان التي صار اسمها فيلادلفيا ، وجرش التي صار اسمها انطاكية .

أخذت البلاد تستمتع برخاء عام ، كما اخذ المد الحضاري يطـرد صعداً وازدهارا ، ولقد ساعد في تسهيل العلاقات مع البلدان المجاورة ـ أن جميع أقطار الشرق الادنى تبنّت اللغة اليونانية ، فأصبحت لغة الطبقة المتحضرة ووسيلتها الكتابية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تمكن الانباط من توسيع مملكتهم الى الشمال نتيجة للعداء الذي استحكم بين البطالسة في مصر والسلوقيين في سوريا . وكان الانباط يعاضدون السوريين ضد المصريين . وفي معاهدة عقدت سنة ١٩٧ ق.م. احتفظ انطيوخس الثالث السلوقي بفلسطين وسوريا والاردن . وخلال حكم هذا الملك ، تمكن شخص يهودي من فلسطين اسمه هركانوس — ويحتمل ان يكـــون احد افراد عائلة الطوبيين — من انشاء دولة صغيرة في اراضي عمون جعل مركزها في خربة (عراق الامير) التي تعرفها اليوم الى الغرب من عمان . سيطر هركانوس هذا على المنطقة المجاورة حوالي اثني عشر عاما ، حتى اضطر انطيوخس الرابع في النهـــاية الى ارسال حملة عسكرية للقضاء عليه . واذ أدرك هركانوس عدم جدوى المقاومة فانه عمد الى الانتحار سنة ١٧٥ ق.م. على ان الاوامر التي اصدرها انطيوخس الرابع ضد اليهود ، دفعت هؤلاء الى القيام بثورة قادها يهوذا المكابي الذي استطاع خلال ثلاث سنوات متتالية ١٦٧—١٦٥ ق.م. أن يلحق الهزيمة بأربعة جيوش ارسلها انطيوخس لسحق ثورته . وعندمـــا توفي انطيوخس عام ١٦٤ ق.م. عمد يهوذا الى توسيع دولته فغزا أراضي عمون . وقاوم العمونيون هذا الغزو بقيادة زعيم يدعى تيموثيوس ولكنهم هزموا وتراجعوا الى جلعاد لمواصلة القتال . وهاجمهم يهوذا مرة أخرى وألحق بهم الهزيمة في (اشتورت قرنايم) ، وسقط تيموثيوس قتيلا هناك.

وفي عام ١٦٣ ق . م . تقدم جيش سوري آخر فألحق الهزيمة باليهود ، ولكنـــه لم يتمّ العمل كله ، فتقدم جيش آخر لنفس الغاية سنة ١٦١ ق.م. وفي هذه المرة هزم اليهود هزيمة تامة . وقتل كثيرون منهم بعد أن اعتصموا في اربيلا (قد تكون اربد) .

ولكن اليهود لم يلبثوا أن جنحوا الى الثورة مرة أخرى بعد أقل من قرن من الزمن. وفي هذه الثورة أحرزوا مزيدا من النجاح ، حتى ان قائد قواتهم اسكندر جانيوس كان عند موته يسيطر على الاردن كله حتى وادي الحسا. على ان الانباط احتفظوا باستقلالهم ونجحوا في توسيع رقعة دولتهم حتى مدينة دمشق ، وظلوا يسيطرون على هذه المنطقة حتى سنة ١٠٦ ب.م. وكان اول من حكم هذه المملكة بعد توسعها من الانباط ، الملك الحارث الثالث فلهلين (١) ٩٥— ٦٠ ق.م. ولكن يبدو ان الانباط لم يسيطروا سيطرة مباشرة على الجزء الغربي من الاردن وهو الجزء الواقع بين الموجب واليرموك . ومع هذا ، فان حجارة البناء الضخمة التي عثر عليها في جرش منحوتة على طراز « خطوة الغراب » النبطية ، بالاضافة الى كتابة باللغتين النبطية واليونانية عثر عليها ايضا هناك — تشير الى ان نفوذ الانباط وتأثيرهم قد بلغا ذلك الموضع غربا على الاقل ، ويؤكد هذ طاستان عثر عليهما حديثا في ضريح بعمان ، وقد نقشتا بنقوش نبطية

(١) فلهلين أي محب الهيلانيين (اليونان وأصلها من هيلاس)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رومـــا وبيزنطة ٦٣ ق.م. ٦٣٦ ب.م.

كانت قوة روما في هذه الاثناء تزداد تدريجيا ، وقد اقتضى توسع الامبراطورية أن يفرض الامن والنظام في سوريا وفلسطين . انجز بومبي هذه المهمة حوالي سنة ٦٤ق.م. وفي شرقي الاردن ساعد على اعادة تعمير المدن اليونانية التي خرّبهـــا اليهود ووضع اسس الحلف التجاري المعروف باسم الديكابوليس . وكان هذا الحلف في الاصل مؤلفا من سكاثيوبوليس (بيسان) بيلا (طبقة فحل) هبوس (فيق) دمشق ، ديون (غير معروفة) كاناتا (قنوات) جرش ، فيلادلفيا (عمان) . وقد اضيفت مدن أخرى فيما بعد الى هذا الحلف ، هي اربيلا (اربد) كابيتولياس (بيت راس) ادرعي (درعا) وبصرى . احتفظت البلاد بالاستقلال التام ، ولكنها كانت تدفع الضرائب الى الخزانة الامبراطورية. وقددفع الانباط مبلغا مقطوعا من المال كي يستمر استقلال مملكتهم . على ان هذه التنظيمات لم يقدّر لها البقاء بعد الشخص الذي وضعها ، فقد انفجرت الثورات القديمة مجدداً بعد رحيل بومبي .

وأثناء مرحلة الهدوء التالية ، حوالي سنة ٤٠ ق . م. عيّن هيرودس الكبير ملكا على اليهودية بتعضيد من مارك انطونيو ، وكان التعيين يتضمن شيئاً من الاشراف عـــلى شرقي الاردن . ونشب الخلاف بين الانباط ومارك انطونيو فهاجمهم هيرودس وهزمهم وأخرجهم من الجزء الشمالي من مملكتهم . وعند وفاة هيرودس سنة ٤ ق . م . كـــان النفوذ الروماني سائدا في كل مكان ، وقسمت شرقي الاردن الى ثلاث مناطق تخضع لثلاث سلطات مختلفة. ففي الشمال كان حلف الديكابوليس المستقل في شؤونه الداخلية ، وفي الوسط من الزرقاء الى الارنون (باستثناء عمان) كانت بيريا الخاضعة لمملكة اليهود الصغيرة في فلسطين ، امـــا في الجنوب فكانت مملكة الانباط المستقلة .

تولى هيرودس تارك الملك بعد وفاة هيرودس الكبير ، وقد تزوج هذا ابنة الحارث الرابع ملك الانباط ولكنه طلقها بعد ذلك من اجل هيروديا امرأة اخيه. وهذه الاهانة دفعت الحارث الى ارسال جيش هاجم هيرودس والحق به الهزيمة. وقد سلك هيرودس هذا سلوكا معيباً مع هيروديا وابنتها سالومي اثناء اقامته في ماخيروس (مكاور الحالية جنوبي غربي مادبا) فاندفع يوحنا المعمدان الى تأنيبه والتشهير به مما ادى الى سجن يوحنا وموته في ماخيروس.

أخلدت البلاد الى الهدوء فترة من الزمن في ظل الحكم الروماني الحازم ، ولكن لم يكن باستطاعة اليهود ان يخلدوا الى الهدوء طويلا ، حتى اننا نجد الملك النبطي مالكوس الثاني حوالي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سنة ٦٤ ب.م. يرسل جيشاً لمساعدة الرومان ضد اليهود. ولجأ كثيرون من اليهود الى ماخيروس، ولكن الرومان هدموا الموقع وقتلوا أفراد الحامية. واخيراً فقدت مملكة الانباط استقلالها ايضاً عام ١٠٦ ب.م على عهد الامبراطور تراجان، واصبحت شرقي الأردن كلها خاضعة للرومان. ولكنها ربحت مقابل ذلك فترة طويلة من السلم. وألحقت جميع البلاد، فيما عدا الديكابوليس، بمقاطعة جديدة اطلق عليها اسم البتراء العربية، وكانت عاصمة هذه المقاطعة مدينة البتراء اولاً ثم نقلت العاصمة الى بصرى في سوريا. وقد عسكر الفيلق الروماني الثالث (ليبيا) في الشمال بينما عسكر الفيلق الرابع (مارتيا) في جنوبي البلاد. وقد انشيء معسكران واسعان لاقامة الفيلق الاخير: في اللجون قرب الكرك، وفي اذرح قرب البتراء، وما تزال آثار كليهما باقية حتى اليوم. وبدأ العمل في شق طريق تراجان العظيمة من بصرى والعقبة، وانتهى العمل فيها على عهد هادريان، كما بدأ العمل في شق طرق فرعية اخرى في جميع انحاء البلاد.

كان مستوى الأمن العام والرخاء خلال القرون القليلة التالية افضل بكثير مما كان عليه في اي وقت مضى. ولم يكن يعكر صفو الحياة على فترات متقطعة سوى الدسائس المخزية والاغتيالات بين اباطرة الرومان، وكذلك محاولات بعض الحكام الصغار من اجل الحصول على الاستقلال. وخلال القرنين الثاني والثالث، اخذت القرى والمدن تؤسس وتنمو في جميع اجزاء البلاد، وارتفع مستوى الحضارة والفن المعماري الى درجة لم تحرزها البلاد من قبل او من بعد. على ان التفاصيل التاريخية خلال هذه الفترة لا تحدثنا عن أية أحداث مهمة ذات تأثير دائم. ولكن يمكن القول ان قوة عظيمة كانت تتغلغل في البلاد الا وهي المسيحية؛ وعندما اعتنق الامبراطور الروماني نفسه هذه الديانة عام ٣٣٣ ب.م. اصبحت الدين الغالب في ارجاء الامبراطورية. وفي عهد الامبراطورية البيزنطية التي أسسها الامبراطور ثيودوسيوس عام ٣٩٥ ب.م. انشيء في البلاد عدد كبير من الكنائس.

وفي عهد الحكم البيزنطي كانت السيطرة الحكومية اقل حزما، وبدأت تظهر في هيكل الجهاز الاداري صدوع تنذر بالانحلال، وقد تسببت الطوائف المسيحية المتنازعة في حدوث معظم تلك الصدوع، وكانت المنازعات الطائفية كثيراً ما تجر الاباطرة انفسهم الى الانغماس فيها.

أخذ الفرس يظهرون نشاطاً مرة اخرى في اواخر القرن السادس واوائل القرن السابع. فهاجموا بعض المقاطعات الشرقية واستولوا عليها، ومن ضمنها جانب من شرقي الاردن على الاقل: ونهض الامبراطور هرقل (٦١٠–٦٤١ ب.م) لمناجزتهم فتغلب عليهم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكن الفتح الاسلامي لم يلبث ان بدأ في الوقت الذي تمكن فيه هذا الامبراطور من توطيد النظام في ربوع الامبراطورية .

العهد الاســـلامي ٦٣٦ ب. م.

حدث أول صدام بين المسلمين والبيزنطيين في مؤته قرب الكرك ، عندما ارتد المسلمون الى الوراء ، وقتل ثلاثة من قادتهم العظماء هم : زيد بن حارثة ، وجعفر بن ابي طـــالب ، وعبدالله بن رواحه . ولقد دفن هؤلاء في المزار حيث يمكن مشاهدة اضرحتهم في الجامع الكبير القائم هناك . ولم يطل الوقت بعد ذلك حتى توغل جيش اخر في الاردن ، وفي معركة حاسمة عند وادي اليرموك سنة ٦٣٦ ب.م. حلت الهزيمـــة بالقوات البيزنطية ، وزحف المسلمون الظافرون على دمشق التي اصبحت فيما بعد عاصمة للخلفاء الامويين .

كان بعض هؤلاء الخلفاء الاوائل – وهم من البدو بحكم الفطرة والنشأة – ما يزالون يشتاقون لحياة الصحراء ، فابتنوا لانفسهم قصوراً ومرابع صيد في شرقي الاردن كقصير عمره والحرّانه والطوبه . وحيث ان الاردن تقع مباشرة على الطريق الممتدة بين دمشق وجزيرة العرب – فانها استمرت محتفظة بشيء من الاهمية . ولكن مؤامرات العائلة العباسية ، التي استطاعت في النهاية ان تدمر خلافة الامويين والاردن معهم – بدأت تحاك اول ما بدأت في الحميمة ، القرية الصغيرة الواقعه في سهل القويره جنوبي معان .

وفي القرن التاسع بعد الميلاد ، نقل العباسيون المنتصرون عاصمة الخلافـــة الى بغداد ، واخذت الاردن تغيب في مطاوي النسيان . وبما ان البلاد لم تكن تقع في طريق معين من طرق التجارة ، ولم تكن تملك اية ثروة طبيعية – فقد تركت لتعود القهقرى وتسقط في وهـــدة الانحلال . ورغم كل هذا فقد كان للبلاد قدر كاف من الاهمية حتى اندفع الصليبيون اثناء القرن الثاني عشر لاحتلال جزء منها وبناء القلاع هناك التي يعتبر أهمها قلعة الشوبك وقلعة الكرك . على ان حالة البلاد العامة لم تلبث ان ازدادت سوءا بعد ذلك ، حتى غدت وليس فيها سوى القرى الصغيرة الفقيرة ، يعيش سكانها على الكفاف بين خرائب الماضي العريق . وعندما دخلت تحت حكم الاتراك في القرن السادس عشر لم يكن اهتمامهم بها يتعدى حراسة طريق الحج الى مكة ، تلك الطريق التي انشيء عليها خط سكة الحديد فيما بعد .

وهكذا ، بقيت البلاد في حالة تقهقر وانحطاط حتى ايام الحرب العالمية الاولى ، عندما برزت على مسرح الاحداث كميدان لاعمال لورنس الباهرة . لقد وقعت معظم حملاتـــه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحربية المشهورة في طول شرقي الاردن وعرضها . واتخـذ من العقبة والازرق مركزا لقيادته (١) وبعد انتهاء الحرب ، ادخلت البلاد ضمن نطاق الانتداب البريطاني على فلسطين ، ولكن بموجب شروط خاصة . وفي عام ١٩٢١ تولى سمو الامير عبدالله ، النجل الثاني للحسين ملك الحجاز ، إمارة شرقي الاردن ، على ان يكون مرتبطا بالمندوب السامي في فلسطين . وهكذا نشأت في البلاد حكومة ذات نوع من الاستقلال الذاتي . ورافق ذلك انشاء الجيش العربي ، المتيقظ ابداً ، وتنظيمه للمحافظة على الامن والقانون . ولا بدّ ان كل سائح زار البلاد قد شعر انه مدين لافراد هذا الجيش ، لمساعدتهم وكريم اخلاقهم وحسن ضيافتهم . وقد اقترنت فترة ما بين الحربين بطابع التطور البطيء المطرد .

وخلال الحرب العالمية الثانية تميز موقع الاردن مرة اخرى - بأهمية كبيرة ، عندما اقترب الخطر من مصر وخيف ان يستولي عليها العدو ، وسرعان ما أصلح ميناء العقبة وأنخذت الامدادات المختلفة تحمل منها الى سوريا والشمال . ولقد كان مسلك الجيش العربي ممتازا اثناء الثورة العراقية والحملة على سوريا ، ولكن لحسن الحظ لم تقترب الحرب من شرقي الاردن اكثر من ذلك .

حصلت البلاد على استقلالها التام سنة ١٩٤٦ ، واصبح الامير عبد الله اول ملك في المملكة الاردنية الهاشمية . وبدأت حركة التطور تزداد بصورة ملموسة . ولكن أعاق ذلك التطور مؤقتا ما حدث بعد ذلك من تخلي بريطانيا العظمى عام ١٩٤٨ عن انتدابها على فلسطين وما أعقبه من قتال بين العرب واليهود . ولقـد تدفق اللاجئون بأعداد كبيرة على البلاد . ويمكن أن نأخذ فكرة عن المصاعب التي ترتبت نتيجة لذلك ، اذا عرفنا ان عدد سكان عمان قفز الى الضعف خلال اسبوعين . على ان الادارة الحكومية كانت من حسن التركيز بحيث استطاعت أن تقوم بالاعباء الطارئة ، واستطاعت البلاد ان تستوعب حوالي نصف مليون لاجيء ، وان توفر لهم العناية دون مشقة بالغة . وبعد مدة من الزمن بدأت منظمة الامم المتحدة ومنظمات مختلفة اخرى ، اعمال الاغاثة المتنوعة . ويمكن القول ان الاردن كان البلد الوحيد تقريباً الذي رحّب باللاجئين ومنحهم كافـة الامكانات المتوافرة للعمل ومواصلة اعمالهم التجارية والمهنية .

وفي عام ١٩٥٠ تمت الوحدة بين الجزء الباقي من فلسطين في ايـدي العرب وشرقي الاردن ، واصبح كلا الطرفين يكوّنان « المملكة الاردنية الهاشمية » .

---

(١) هذا مثال موجز على مبالغات الغربيين بشأن لورنس . والحقيقة انه لم يكن سوى ضابط ارتباط بين قيادة جيش الامير فيصل بن الحسين وقيادة الجيش البريطـاني في مصر وفلسطين . وقد بحث المترجم هذا الموضوع بحثاً مستفيضاً في كتابه (لورنس والعرب – وجهة نظر عربية) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

اربد — ام قيس — بيت راس — تل العشاير — الحصن — قلعة الربض — عجلون — تاريخ آثارعمان — عراق الامير — مادبا — جبل نبو — زرقاء ماعين

قبل انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين ، كانت مدينة اربد والمنطقة المحيطة بهـا تقع على احدى الطرق الرئيسية التي تصل شرقي الاردن بميناء حيفا مارّة بطبريا والناصرة ، ونتيجة لذلك كانت مركزاً مهما من مراكز التجارة . وانتهى الانتداب وانقطع الاتصال بين اربد وحيفا ، ورغم ضياع هذه المزية فان مدينة اربد استمرت في الازدهـار واطّرد نموها حتى اصبحت ثاني مدينة في الضفة الشرقية من حيث مساحتها وعدد سكانها : لانهـا المركز الاداري للواء من اكثر الوية البلاد خصباً ونتاجاً . ويمكن القول ان معظم التوسع في اربد حدث منذ اواخر الحرب العالمية الثانية . وكان العائق الرئيسي دون ازدهارها قبلا هو عدم وجود مورد طبيعي للماء قريب منها ، وعدم وجود اموال كافية لجلب المياه اللازمة . وتضخ المياه الآن الى اربد من نبع يقع الى الشمال الشرقي منها على بعد ثمانية عشر كليومتراً (١) .

اربد :

يقوم جانب من مباني المدينة فوق تل اصطناعي كبير ، وهذا التل يضم في جوفه بقايا اربد القديمة التي تعود الى العصر البرونزي الاول حوالي ٢٥٠٠ ق . م. كانت هذه المدينـة القديمة محاطة بسور ضخم بني من حجارة سوداء كبيرة ، وما يزال جانب منه قائماً حـتى الآن على الطرف الغربي للتل . وغير بعيد عن التل من ناحية الشرق كان امتداد هذا السور يبدو واضحاً الى جانب الشارع الرئيسي المار من هناك ، ولكن بلدية اربد هـدمت تلك البقايا عام ١٩٣٧ عندما قامت بتوسيع الشارع . وليست هناك دلائل آثاريه عـن الناس الذين اقاموا اربد خلال الفترة الواقعة بين اوائل العصر البرونزي المتوسط والعهد الروماني . وقد يكون دمار تلك الدلائل ناشئاً عن احدى الكوارث الطبيعية — كحدوث زلزال — مما ادى الى جفاف مصادر المياه . وبقـي نقص المياه عائقاً دون ازدهـار المدينة حتى تغلبت عبقرية المهندسين الرومان عليه . لقد جلبوا المياه في قنوات باطنية من مكان قريب مـن الرمثا — ليس الى اربد فحسب بل الى جدارا ايضاً (ام قيس) .

---

(١) هو نبع راحوب . وفي عام ١٩٦٣ تمّ سحب مياه الازرق الى اربد واللواء الشمالي . امـا ثاني مدينة في المملكة كلها من حيث عدد السكان فانها الزرقاء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يعتقد ان اربد هي اربيلا احدى مدن الديكابـــوليس ، وهناك دلائل كثيرة — بقايا آثاريه ومخطوطات — على ان اربد كانت مكانا ذا اهمية كبيرة وعـــلى اتساع طيب في ايام الرومان والبيزنطيين . ولكن نمو المدينة السريع في ايامنا هذه محا تلك البقايا حتى لم يبق منها سوى بضعة احجار منحوته وكتابات قليلة متفرقه . ولا تتميز المدينة الحديثة بأية مزاياخاصة وليس لها طابع معماري يستلفت النظر ، ولا شك ان استعمال الحجارة السوداء في البناء لا يزيد في تجميل الموقع(١) .

ام قيس :

تتفرع من اربد طريق غير معبدة باتجاه الشمال الغربي حتى تصل الى قرية ام قيس التي كانت قديماً تعرف باسم جدارا وحدثت فيها عجيبة خنازير الجيدور . وتمر هذه الطريـــق بقرية بيت راس التي كانت تعـــرف باســـم كابيتولياس . والمدينتان مـــن المدن العشر (ديكابوليس) .

كانت جدارا مدينة يونانية — رومانية ذات اهمية ، وقد انشئت فيها جامعة تخرّج منها الشاعر العظيم ملياجر وكتّاب آخرون كانت لهم شهرة في ذلك العصر . اما الآن فلم يبق من امجادها سوى مسرحين صغيرين بنيا من الحجارة السوداء وساحة كبيرة تتناثر فيها الحجارة المتساقطه وقواعد الاعـــمدة وبعض الاضرحة المنحوتة في الصخور . وليس واضحاً كيف صارت الى كل هذا الخراب ، لانه لم تنشأ بقربها خلال الالف سنة الماضية مدينة او بلـــدة يمكن ان تنقل حجارتها وتستعملها للبناء . اضف الى هذا انها تقع على هضبة مرتفعة تحيط بها المنحدرات العميقة من كل جانب عدا الجانب الشرقي . واجمل ما تقع عليه العين في امقيس ذلك المنظر البديع الذي يبدو عندما تتجه الى الشمال والجنوب : منظر بحيرة طبريا ووادي الاردن .

وفي غور اليرموك الى الشمال من ام قيس تقع حمامات الحمّة الحارة ، وتؤدي اليهـــا طريق وعرة غير معبدة تستطيع السيارات قطعها . وفي موسم الحمامات يتوافـــد الزائرون اليها في اعداد لا بأس بها كي يستفيدوا من الاستحمام بمياهها .

---

(١) اخذ الناس في السنوات الاخيرة يستعملون الحجر الابيض في البناء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بيت راس :

هي اقرب الى اربد من ام قيس وآثارها اكثر خراباً . وتقـــوم بيوت القرية الفقيرة المعاصرة فوق الاماكن التي كانت تحتلها شوارع كابيتوليا س وهياكلها وكنائسها . وترى في حيطان بعض المنـــازل حجارة منحوتة نحتا جميـــلا ، كما تجـــد مغائر نحتت في الصخر لها ابواب حجرية ضخمة وعلى جدرانها نقوش وكتابات وتستعمل اليوم مخازن للحبوب والتبن ، بينما تستعمل النواويس مذاود للتبن او احواض للمياه تشرب منها المواشي .

اما البرك الرومانية الكبيرة التي كانت تستعمل لخزن المياه فممتلىء اكثرها بالتراب ، وترى الاهلين قد غرسوا فيها بعض الاشجار المثمرة ، لان المياه تأبى الا ان تتسرب اليهـــا وتجتمع فيها رغم الاهمال(١) .

تقع اربد على الطرف الغربي لسهل واسع عظيم يمتاز بخصوبته في انتاج القمح ، وينتشر هذا السهل بعيداً الى الشرق حتى يتصل بالصحراء . وتتفرع عن هذه المدينة خمس طرق رئيسية الى جميع الجهات ، بالاضافة الى عدد من الدروب التي تختلف درجات وعورتها وتصل بينها وبين القرى التي تكثر في هذه المنطقة. والطريق الشرقية هي في الوقت الحاضر الطريق الكبرى التي تؤدي الى عمان عبر المفرق ، وربما تحولـــت اهمية هذه الطريق الى الطريق الاخرى المارة بجرش . وهناك طريقان تتجهان جنوباً : الاولى الى جرش عبر الحصن والاخرى راسا الى عجلون . اما الطريق المتجهة غرباً فقد كانت سابقاً تصل الى حيفا ولكنها الآن لا تتعدى وادي الاردن ، وهي جميلة جداً في فصل الربيع حينما تتفتح الازهار لانها تلفّ في انحناءات عديدة مع منحدر الجبل خلال سلسلة من الغابات الطبيعية النامية اشجارها بين الصخور . وعلى مسافة بضعة كيلو مترات الى الغرب من اربد يقع الى شمال الطريق تـــل اصطناعي صغير يسمى تل الاشيعر . ويبدو ان هذا التل من مخلفات العصر الحديدي مع انه لم تجر فيه اية حفريات ، وفي هذا الموضع الى الجنوب من الطريق مجموعة كبيرة مـــن الانصاب (Dolmens) ، انها مدينة الموت العجيبة لتلك الفترة في ما قبل التاريخ . وربما كانت هذه المجموعة هي الثانية من نوعها في الاردن ، اما المجموعة الكبرى فقد عثر عليها في دامية (وسيأتي ذكرها فيما بعد) .

---

(١) وفي سفح التل الغربي التي تقوم عليه القرية الحالية صهاريج عجيبة لخزن مياه الامطار كانت تساعدها ايام الحصار والحروب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تل الحصن :

في بلدة الحصن ، على الطريق المؤدية الى جرش، يوجد مثال بديع للتلول الاصطناعية وهو يسمى تل الحصن على اسم البلدة . ولا يشغل هذا التل مساحة كبيرة ولكن ارتفاعه لا يقل عن اربعين قدماً مؤلفة من الانقاض والاتربة . اننا نعلم مما كشفه احد الاضرحة القديمة — وقد عثر عليه صدفة قريباً من التل — ان هذا التل يعود الى اوائل العصر البرونزي حوالي سنة ٣٠٠٠ ق م ، وهناك دلائل عديدة عثر عليهـا في الاضرحة الاخـرى وفي نقوش وكتابات سواها على ان ذلك التل كان قائماً في ايام الرومان والبيزنطيين. وهذا الموضع هو احد المواقع التي يتأرجح بينها موقع مدينة ديون ، وهي المدينة الوحيدة من مدن الديكابوليس التي لم يحدّد مكانها تحديداً قاطعاً . وهناك موقـع آخر اقرب الى اربد هـو بلدة ايدون ، ورغم التقارب بين الإسمين الا ان موقع ايدون وآثارها لا توحي بأنها كانت مدينة مهمة .

قلعة الربض :

لا يوجد على طريق عجلون ما يلفت نظر عالم الآثار ، رغم روعة بعض المناظر في الاماكن المؤدية الى وادي الاردن . ولكن في بلدة عجلون نفسها توجد قلعة عربية من طراز بديع . ويمكن الوصول اليها من جرش ايضاً . تدعى هـذه القلعة قلعة الربض وهي تقوم على مرتفع الى الغرب من البلدة ، اما الطريق اليها فتمـر من وسـط البلدة وتصل السيارات الى ابواب القلعه . هذه القلعة هي احدى القلاع العربية القليلة جداً التي تعود الى ايام الصليبيين وقد بناها عز الدين اسامه وهو احد ابناء عمومة صلاح الدين الايوبي وأحد ولاته الاكفاء في الفترة ١١٨٤—٨٥ بعد الميلاد(١) وكان الغرض الرئيسي مـن انشاء هذه القلعة ان يحول دون توسع مملكة اللاتين في شرقي الاردن سواء مـن الكرك في الجنوب او من بيسان عبر وادي الاردن في الغرب ، ولكي تحافظ على طرق المواصلات مع دمشق . وفي ما يلي نص ما كتبه احد كتّاب القرن الثالث عشر العرب عن انشاء هذه القلعة :

« تقع قلعة عجلون بين إقليم السواد التابع لولاية الاردن وإقليم الشراه . وهي حصن جليل على صغره يقوم فوق مرتفع بارز يشرف على وادي الاردن ويبدو للعيان من القدس ومن مرتفعات نابلس . وتعرف السلسلة التي بنيت عليها القلعة باسم جبل عـوف ، لان

(١) هو عز الدين بن اسامه بن منقذ احد امراء قلعة شيزر بجوار حماه ، وليس بينه وبين صلاح الدين اية قرابة ولكنه احد قواده .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عشيرة من بني عوف كانت تقيم فيها منذ ايام الخلفاء الفاطميين الاوائل . وكان يحكم هذه العشيرة شيوخ تكثر الخلافات والحروب بينهم . وبقيت البلاد على هذه الحال حتى ايام الملك العادل سيف الدين ابو بكر ابن ايوب (شقيق صلاح الدين) اذ اقطعها لعز الدين اسامه احد كبار قادته . وبدا عز الدين اسامه ببناء قلعة يلجأ اليها اتباعه من غزوات بني عوف . ولكن هؤلاء لم يلتزموا جانب السكينة فأقنعهم الامير بانه يستهدف من بناء القلعة حمايتهم من عدوان الافرنج ، وعندئذ كفّ بنو عوف عن حركاتهم واخذوا يساهمون في بناء القلعة . وحينما تمّ بناء القلعة دعا الامير شيوخ بني عوف الى وليمة داخل جدرانها ولما فرغوا من الطعام أمر عبيده بالقاء القبض عليهم وسجنهم . ويقال ان ديراً قديماً كان يقوم في موضع القلعه يقيم فيه راهب اسمه عجلون . وقد اقيمت القلعة مكان خرائب الدير وسمّيت باسم ذلك الراهب » .

جرت على هذه القلعة اصلاحات وزيادات في البناء خلال عامي ١٢١٤–١٢١٥ وقام بها ايبك بن عبد الله مملوك الملك المعظم. ويمكن رؤية هذه الزيادات على مخطط القلعة . وترى في بعض الحيطان حجارة كبيرة منحوتة وعلى احدها صليب مما يوحي بصحة ما جاء في اقوال المؤلف العربي من ان القلعة قامت على انقاض هيكل قديم .

عندما سقطت الكرك ومملكة اللاتين لم تبق للقلعة ضرورة عسكرية ، وفي اواخر القرن الثالث عشر اصبحت مركزاً للادارة يقيم فيها حاكم مرجعه دمشق .

وكانت القلعة تستعمل ايضاً كمخزن للذخيرة والسلاح والمؤن ، وفي عام ١٢١٧ كانت القلعة احدى القواعد التي جمعت فيها الامدادات لنجدة دمياط في مصر . ومن المحتمل ان الاروقة الطويلة المعتمه خارج البرج الرئيسي كانت تستعمل مخازن وليس للسكن .وسرعان ما ادى الاستقرار والسلم الى نشوء قرية حول القلعة ، وما تزال بقايا هذه القرية ماثلة حتى الآن فوق المنحدرات المجاورة . ولا شك ان جميع السكان كانوا يهرعون الى داخل القلعة في اوقات الخطر ويساهمون في الدفاع عنها وعن انفسهم. وفي عام ١٢٦٠ استولى التتار على القلعة ولكنهم لم يلبثوا ان طردوا في السنة ذاتها .

يبدو ان بلدة عجلون كانت قائمة في العهد الذي انشئت فيه القلعه ، لان الكاتب العربي الدمشقي (١) يذكر انه وجد فيها سنة ١٣٠٠ (فواكه كثيرة وارزاق غزيرة) ويصفها ابن بطوطه سنة ١٣٥٥ بانها (مدينة حسنة لها اسواق كثيرة وقلعة خطيرة ويشقها نهر ماؤه عذب).

---

(١) شمس الدين شيخ الربوة الدمشقي صاحب كتاب نخبة الدهر في عجائب البحر والبر .توفي سنة ٧٢٥هـ(١٣٢٥م.)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

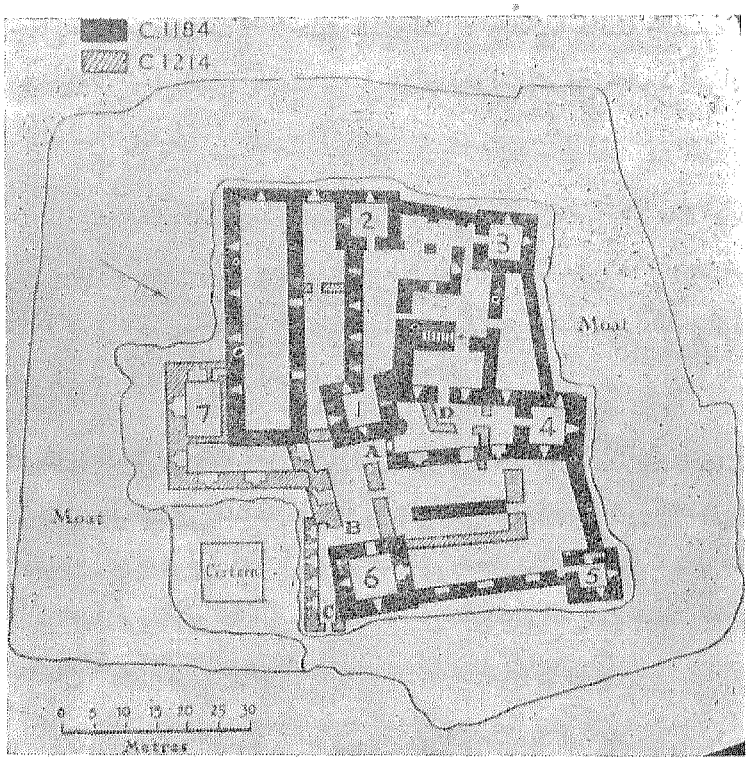

مخطط قلعة الربض : التي ما يزال القسم الكبير منها قائماً على القمة المشرفة على بلدة عجلون شرقاً، والمطلة على وادي الأردن السحيق من تحتها الى جهة الغرب.

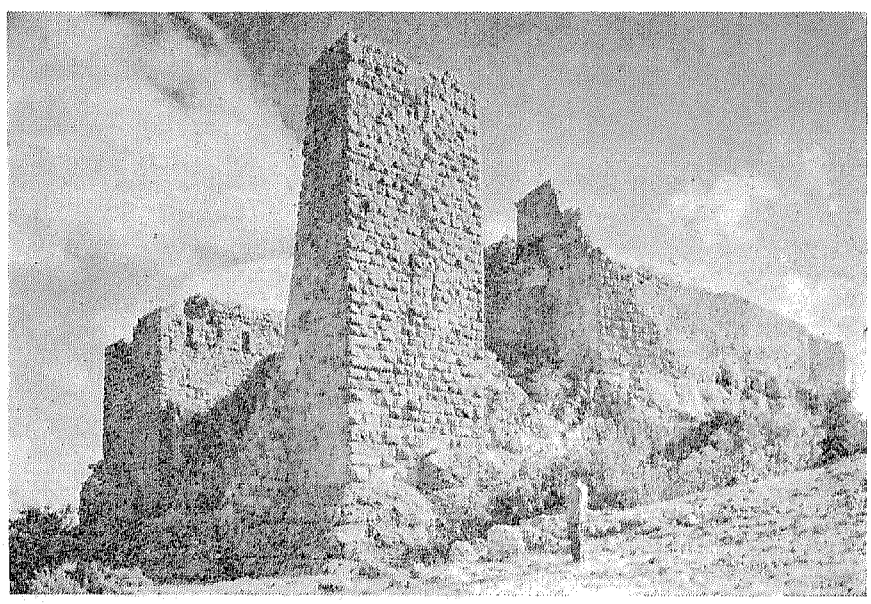

قلعة الربض في عجلون : كما يراها الصاعد اليها من جهة الشرق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ان موقع القلعة المرتفع جعل منها موضعاً مثالياً لاحدى المنارات ، وهكذا كانت جلقة في سلسلة المنارات ومركزاً للحمام الزاجل الذي كانت ترسل الانباء بواسطته من حدود الفرات الى القاهرة بين شروق الشمس ومغيبها .

لا يعرف شيء عن تاريخ هذه القلعة بعد هذا الحين ، سوى ان بعض الاصلاحات البدائية أجريت عليها في القرن السابع عشر . وذكر الرحّاله بركهاردت عند ما زارها سنة ١٨١٢ انها ما تزال مأهولة ويقيم فيها « حوالي ٤٠ شخصاً من عائلة بركات » ولكن زلزال سنة ١٨٣٧ تسبب في زعزعة جوانبها وانهيار اجزاء منها .

يبدو ان الجامع الصغير الجميل في البلدة (عجلون) من منشآت القرن الثالث عشر او الرابع عشر ، ويخمن البعض ، بوحي من المئذنة المربعة ، ان الجامع كان اصلا كنيسة صليبية . ولكن بالنظر الى ان الصليبيين لم يستولوا قط فيما نعرف على عجلون او القلعة ، فان هذا التخمين غير وارد . ويدل اسم قرية كفرنجه التي تقع عبر الوادي انه كان هناك بعض الافرنج ، ولكن من المحتمل انهم كانوا اسرى .

قامت دائرة الآثار خلال الاعوام ١٩٢٧ — ١٩٢٩ باجراء اعمال ترميم وصيانة ورفع انقاض على مقياس واسع في هذه القلعة ، وكان الدخول الى القلعة قبل ذلك صعباً للغاية ومليئاً بالمخاطر . ويمكن الدخول الى القلعة الآن من البوابة الثالثة (C) بواسطة سلالم حديدية مثبتة في الصخر . ويبدو ان بناة القلعة تركوا عموداً صخرياً قبالة هذا المدخل عندما حفروا الخندق ، ولا بد انهم انشأوا بين المدخل والعامود جسراً خشبياً متحركاً . عندما يتسلق المرء هذا المدخل فانه يصل الى البوابة (B) فيرى صور طيور حفرت في القوس . وهناك حائط مزدوج فوق هذه البوابة ، ومن المحتمل ان باباً حديدياً كان يغلق في الفراغ القائم بين الحائطين لكي تسد به البوابة عند الهجوم . ويستدير المرء يساراً داخل هذه البوابة ثم يستدير الى اليمين فيصل الى البوابة الأصلية (A) . وامام البوابة على الارض قاعدتان مزخرفتان كانتا تؤلفان قاعدة لمزغل قائم فوق البوابة لالقاء المقذوفات على العدو . اما المدخل النهائي للبناء الاول فقد كان في (D) تحت حماية البرجين الاول والرابع على جانبيه . ويتضح من خارطة القلعة انها انشئت اصلا على شكل قريب من المربع تحميها الأبراج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ في الزوايا . وفيما بعد اضيفت الى القلعة اجنحة الى الشرق والجنوب ، وانشيء للجناح الشرقي برجان في زاويته هما ٥ و ٦ . والملامح الرئيسية البارزة في هذا البناء القديم هي خشونة حجر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البناء وفتحات النوافذ الضيقة ، اما نوافذ البناء الجديد فهي اوسع . وكانت الكوى المستطيلة تضم حجارة يمكن رفعها في اوقات السلم لعبور الضوء والهواء ، وفي البرج السابع مثال واضح على هذا . وبالاضافة الى الصهريج الكبير خارج القلعة توجد داخل القلعة صهاريج اخرى ما يزال بعضها يستعمل حتى الآن .

عمان :

عمان هي عاصمة الاردن واكبر مدينة في البلاد ، وهي كذلك المدينة الوحيدة — فيما عدا القدس — التي يوجد فيها فنادق من الدرجة الاولى . وتعتبر عمان مركزا ملائماً لمن يريد القيام بعدد من الرحلات القصيرة في البلاد كما يمكن إعداد ما يلزم لرحلات طويلة ايضاً .(١)

عندما زرت عمان للمرة الاولى عام ١٩٣٢ لم تكن اكثر من قرية كبيرة ، لان السلط كانت اكبر بلدة في شرقي الاردن خلال العهد التركي ، ولم تكن عمان سوى قرية صغيرة اخرى من قرى الشركس . والامير عبد الله هو الذي اختار عمان لتكون عاصمة امارته الجديدة التي انشأها بعد الحرب العالمية الاولى . ولقد كان ذلك الاختيار موفقاً لان عمان تقع في موقع متوسط من البلاد اكثر من السلط ، ثم ان لها مزيّة مرور سكة الحديد فيها . وفي عام ١٩٣٢ كانت بيوت الشراكسه ما تزال ماثلة منها المسقوف بالقرميد الاحمر ومنها ذو السقوف العادية . وكان اكثر بيوت البلدة في الأودية ولكن اتجاه المباني الجديدة قد بدا زحفه نحو قمم التلال المحيطه . وكانت الشوارع ضيقة واكثرها غير معبد ، اما مكتب رئيس الوزراء فقد كان في بناء صغير بجانب السيل ، كما كان ديوان الامير عبد الله في منزل مجاور لفندق فيلادلفيا الذي بني قبل ذلك بفترة وجيزة . اما الاسواق والدكاكين فقد كانت ما تزال على نسق مثيلاتها في اية بلدة شرقية على اطراف الصحراء . وكانت الطريق الوحيدة الى الجنوب تقطع السيل قريبا من الجسر الروماني ، وفي ذلك الحين كانت بقايا آثار رومانية وبيزنطية ما تزال ماثلة في اماكن كثيرة من البلدة . وكانت دائرة الاثار في بيت مؤلف من خمس غرف قريباً من المدرّج ، ثم اصبح لفترة قصيرة مقر القيادة العامة للجيش العربي واخيراً صار مكتباً لدائرة الآثار .

---

(١) الواقع انه توجد فنادق من الدرجة الاولى في رام الله وبيت لحم والعقبة وأريحا بالاضافة الى عمان والقد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عندما عيّنت مديراً للآثار في الاردن عام ١٩٣٦ اتخذت من جرش دار إقامة لي، ولكنني اضطررت للانتقال الى عمان عام ١٩٣٩ عند اندلاع نار الحرب كي اقوم بالمهام العديدة التي القيت على عاتقي نتيجة للحرب ، وبقيت في عمان حتى عام ١٩٥٦ . ولقد جلبت الحرب رخاء عظيما للبلدة وبدأت مناطق السكن تنتشر وتتسع فوق التلال . وعندما اقبلت الحرب على نهايتها اصبح اتساع العمران من السرعة بحيث انني صرت اخطىء في التعرّف على الطرق في الاحياء الجديدة التي لم اكن ازورها باستمرار . على ان البلدة عرفت اعظم فترات الاتساع بعد تدفق النازحين اليها من فلسطين عامي ١٩٤٨–١٩٤٩ ، حينما اخذ اصحاب الاعمال منهم يبنون بيوتاً لانفسهم . وعمان اليوم مدينة كبيرة مزدهرة رغم ان فن المعمار والهندسة في منازلها واحيائها ليس على ما يرام ، الا ان الحجر الابيض الذي يستعمله اكثر السكان في بناء منازلهم يضفي عليها روعة وجمالا ويخفي ما قد يكون فيها من نشاز. وما يزال جانب من السوق المخصص لحاجيات البدو والفلاحين قائماً ، ولكنك تجد في السوق التجاري الرئيسي بضائع معروضة للبيع من جميع انحاء العالم .وتبلغ مساحة المدينة الحديثة ستة اضعاف مساحتها في عهد الرومان والبيزنطيين عندما بلغت أوج ازدهارها القديم (١) .

تاريخ عمان :

اقتصرت الحفريات القليلة التي أجريت في عمان على القلعة حيث لم يبق فيها شيء من آثار العهود التي سبقت ايام الرومان . وقامت دائرة الآثار بتنظيف بعض القبور التي تعود للعصور البرونزية والحديدية والفترات الرومانية والبيزنطية . وهي قبور عثر عليها اثناء القيام بعمليات البناء . وعلى اية حال فانه يمكن التعرّف على جوانب من تاريخ عمان نتيجة البقايا الآثارية التي وجدت حول عمان وما جاء عنها في التوراة .

تدل الأدوات الصوانية التي عثر عليها في التلال المجاورة ، ان انسان ما قبل التاريخ سكن في هذا الموضع ، ويؤكد هذا توافر المياه الغزيرة التي كانت من المطالب الرئيسية لاولئك السكان القدماء . وتعود هذه الادوات الى العهد الباليوليثي فالعهد النيوليثي فالعهد الخالكوليثي (حوالي ٣٥٠٠ ق.م) ، اما مجموعة الانصاب (Dolmens) التي عثر عليها في المنطقة المجاورة فتعود الى العهد الاخير او الذي قبله . والى ما قبل فترة قريبة كان احد الانصاب ما يزال قائماً في احد المنحدرات في وسط عمان تقريباً .

---

(١) أما سنة ١٩٦٣ فقد بلغت مساحتها عشرة اضعاف المساحة القديمة ، وبلغ عدد سكانها ٢٧٧٫٣٤٤ نسمة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا شك ان ربة عمون التي ورد ذكرها في التوراة كانت قائمة على تل القلعه ، ولكن معظم آثارها اندثر عندما اخذ الرومان ينشئون مبانيهم في الموضع ذاته ويطرحون الانقاض القديمة على حافة التل. والبرهان على هذا يكمن في ما عثر عليه من بقايا اثرية تعود الى العصر البرونزي الاول والاوسط والى العصر الحديدي والفترة الهيلينية — ممتزجة مع بعضها البعض بالاضافة الى اثار رومانية في اخاديد عميقه حفرت في منحدرات تل القلعه. وهناك برهان واضح على انها كانت مأهولة بالسكان في عهد الهكسوس (حوالي ١٦٠٠ ق م. اواسط العصر البرونزي) اذ عثر على قبر من تلك الفترة الى الجنوب الغربي من القلعه . ونرى من اثار الهيكل الذي اكتشف حديثا في ارض المطار والذي يعود تاريخه الى اواخر العصر البرونزي ، ان الموضع كان مأهولا بالسكان في هذه الفترة ايضاً .

وأول اشارة في التوراة لعمان وردت في سفر التثنية الاصحاح الثالث ، حيث ذكر ان السرير الحديدي لعوج ملك باشان موجود في ربة عمون ، ويفهم من تلك الاشارة ان حرباً حدثت بين عمون وباشان وان عمون انتصرت وحصلت على غنائم. ويتبين كذلك ان عمون كانت عاصمة العمونيين منذ ذلك الحين (١٢٠٠ ق م .)

وعندما قام موسى بتوزيع الاراضي بين بني اسرائيل ، نرى انه اختصّ سبط جاد بنصف أرض بني عمون ، ولكن من المشكوك فيه ان يكون الاسرائيليون قد استطاعوا فعلا احتلال الاراضي حتى عمان شرقاً ، اذ لم يذكر اسم ربة عمون بالتخصيص (يشوع ١٣ : ٢٥) . ولم يرد ذكر ربة عمون في قائمة القبائل والمدن في شرقي الاردن (يشوع ١٢٤ : ١) رغم ادعاء الاسرائيليين بانهم استولوا على البلاد من عروعير في وادي الموجب الى جلعاد وباشان . ويعتقد ان الاشارة لا تشمل سوى الاطراف الغربية من البلاد.

اما المصدر الثاني فيعطينا تفاصيل أكثر عن الاحداث (صموئيل **الأول** الاصحاح ١١). قام ناحاش ملك عمون حوالي ١٠٥٠ ق م . بهجوم على يابيش جلعاد (وادي اليابس) الى الى الشمال الغربي فأعلن سكانها رغبتهم في السلم . ووافق ناحاش على رغبتهم مشترطاً ان ان يقلع العين اليمنى لكل واحد من السكان . وطلب شيوخ يابيش جلعاد مهلة سبعة ايام لكي يحاولوا الحصول على نجدات . ومن العجيب ان ناحاش وافق على طلبهم . وارسل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هؤلاء يستنجدون بشاؤل في فلسطين ، فجمع هذا جيشاً وطلب من الشيوخ ان يعدوا بالاستسلام لناحاش في اليوم التالي . ونتج عن هذا ان العمونيين تلكأوا في الهجوم فباغتهم شاؤل وهزمهم .

وعندما اصبح داود ملكاً حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م . توفي ناحاش وخلفه ابنه حانون (صموئيل الثاني ١٠) . ويبدو ان ناحاش كان قد صنع معروفاً مع داود ، وقد يكون اجاره في بلاده عندما كان شاؤل يطارده ، واراد ان يرد هذا الجميل للأبن فارسل عدداً من اتباعه لتعزيته بوفاة ابيه . وحدث ان مستشاري حانون اقنعوه بأن نوايا داود ليست شريفة كما يدعي وان غرضه من ارسال اتباعه هو التجسس تمهيداً للهجوم على المدينة . « فأخذ حانون عبيد داود وحلق انصاف لحاهم وقص ثيابهم من الوسط الى استاههم » ، وهي وسائل للتحقير كانت سائدة في ذلك العهد . وغضب داود لهذا العمل وارسل جيشاً بقيادة يوأب كي يثأر لكرامته التي اهينت . واستنجد العمونيون بحلفائهم واكثرهم من السوريين وجمعوا واياهم قوات للقتال ، وعند تنظيم الصفوف بقي السوريون في الميدان بينما عسكر العمونيون وحلفاؤهم الاخرون حول ابواب عمون . وقسم يوأب جيشه الى قسمين لمجابهة الموقف ، وتمكن من هزم الحلفاء حتى تراجع العمونيون الى داخل اسوار مدينتهم . ولم يواصل يوأب الحرب محاولا الاستيلاء على المدينة فعاد الى القدس . وجمع السوريون اثر ذلك جميع قواتهم واشتبكوا في القتال مع داود ، ولكنهم هزموا بحيث لم يعد في مقدورهم انجاد العمونيين في المستقبل . وبعد مدة من الزمن ارسل داود جيشاً آخر بقيادة يوأب لاحتلال ربة عمون . وحاصر جيش يوأب المدينة ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها . وفي هذه المرحلة من الحصار حدث مقتل اوريا الحثي بالصورة المخزية المعروفة ، واضطر يوأب لطلب النجدة فجمع داود قوات جديدة واستولى على المدينة . ووصفت ربة عمون بانها (المدينة الملكية) اي العاصمة وبانها (مدينة المياه) وفي هذا اشارة الى الينابيع الغزيرة التي تتفجر حولها وما تزال تسقي اهلها حتى الآن . وبعد ان استولى داود على المدينة اخذ تاج الملك ووضعه على راسه ، وقيل ان هذا التاج كان يزن وزنة كامله من الذهب وانه كان مرصعاً بالحجارة الكريمة . وربما كان ذلك يعني التاج الموضوع على راس تمثال ملكوم آله عمون ، ومعنى الاسم (آلهم) . واخذ داود كذلك غنائم تفوق الحصر . وكانت معاملته للاهلين غاية في الوحشية لانه « وضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس وامرّهم في اتون الآجرّ » ، اي انه احرقهم احياء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على ان خراب المدينة لم يكن كاملا ، فبعد مدة وجيزة نرى (شوبي) ملكاً عـلى عمون وهو من ابناء ناحاش ، وبدأ هذا بتقـديم المؤن والحاجيات لداؤد كالاسرّة وأسلحة حربية غريبة ، وذلك اثناء القتال بين داود وابنه ابشالوم . والواقع ان عـمان استمرت في الازدهار ، وعندما صار سليمان ملكاً انشأ في القدس هياكل لعـدد من الالهـة ومن بينها ملكوم ومـولك (الارجاس العمونية) وفعلت زوجاته الغريبـات فعله اي قمن بعبادة الاصنام (الملوك الثاني الاصحاح ٢٣ حوالي ٩٤٠ ق م) .

وتجيء التوراة على ذكر عمون في سفر عاموص (١ : ١٣) حوالي ٧٦٠ ق . م حيث يتنبأ عاموص ضدّها ويتهم العمونيين بانهم يسلكون مسلكاً وحشياً في حروبهم ويتوعـد عمون بنيران تقع على اسوارها بحيث « تأكل القصور بجلبة في يوم القتال ، بنوء في يوم الزوبعة » . وبأن الملك سيؤخذ اسيراً مع الامراء . وهذا يدل على ان عمون بقيت محتفظة بقوتها وازدهارها ، والنبوءة المتقدمة هي الاولى في سلسلة الخطابات التشهيرية ضد مدينة عـمان (الشريرة بزعمهم) .

وفي اوائل القرن السادس نجد ارميا (٤٩ : ٢) يقول ان ملكوم آله عمون قد تملك جاد ، وهذا يعني ان عمون لم تحتفظ باستقلالها فحسب بل استعادت جانباً من اراضي سبط جاد . ونرى ارميا يتنبأ ضد عمون كسلفه عاموص بأنها « وتصير تلا خراباً وتحرق بناتها بالنار (اي قراها) وسترتدي المسوح وتركض هنا وهناك بين الجدران ، لان ملكوم سيذهب الى السبي وسيطرد كل رجل دون امهال » . ويستمر التقريع لربة عمون ، لكبريائها الطبيعية في واديها الخصيب . ويتضح ان لهذه النبوءات علاقة بـزحف نبوخذ نصر البابلي . ولكن نبوخذ نصر لم يستجب للتنبؤات ولم يحقق تدمير عمون . وربما كان سبب هذا موالاة عمون لبابل كما يفهم من سفر الملوك الثاني ٢٤ : ٢ .

وبعد ارميا ببضع سنوات حوالي ٥٨٨ ق م . جاء حـزقيال يبدأ التنبوات من حيث تركها ارميا ، وهدّد بان نبوخذ نصر سيدمر عمون بحيث لا تجد من يذكرها . وهناك اشارة طريفة لملك بابل عندما يصل الى مفترق طريقين : احدهـما يؤدي الى القدس والاخر الى عمون ، فيلجأ الى استلهام الوحي واستقراء الغيب في اي الطريقين يسلك ، فيهزّ سهـمين كتب على احدهما القدس وكتب على الاخر عمون ، ويلجأ الى طـرق اخرى . ويبدو ان سوء الحظ كان حليفاً للقدس بينما بقيت عمان عامرة ولم تتحقق النبوءة بشأنها مـرة اخرى . وبعد خراب القدس نرى حزقيال غاضباً اشد الغضب على عمون ويتهم العمونيين بانهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« يصفقون بأيديهم ويدقون بأرجلهم » . ويقيمون الافراح ابتهاجاً بنكبة اليهود — وهو ردّ فعل طبيعي في تلك الظروف . ونرى حزقيال يؤكد ان عمون ستصبح اصطبلا للجمال وان البدو سيستولون عليها . وسنة ٥٨٥ ق. م . نرى بعليس ملك عمون — لسبب مـــا — يغري اسماعيل بقتل جدليا الوالي البابلي المعين لحكم فلسطين (ارميا ٤٠ : ١٤) .

بعد هذا تصمت التوراة ولا تعود لذكر ربة عمون ، وتبرهن بعض القطـــع الاثرية على استمرار العمران فيها اثناء فترة الحكم اليوناني حوالي ٣٠٠ ق . م . ونعلم مما احتوته بعض المصادر الكتابية القديمة ان عمون خضعت لبطليموس المصري خلال جزء من القرن الثالث ق.م. وان المدينة اعيد بناؤها وسميت فيلادلفيا على اسم بطليموس فيلادلفوس الثاني (٣٨٣—٣٤٦ق.م) . واستولى الملك السلوقي انطيوخس الثالث على المدينة حوالي ســـنة ٢١٨ ق. م اثر حصار طويل ، وكان من المحتمل ان يستمر ذلك الحصار الى ما لا نهاية لولم يبح احد الاسرى بسر خطير عن وجود معبر سري في باطن الارض يؤدي الى مصادر المياه خارج اسوار المدينة . ويقول يوسيفوس المؤرخ اليهودي انه لم يكن في القلعـــة سوى بئر صغيرة للماء ، ولكننا نعرف انه كان فيها كذلك عدد كبير من البرك لجمع مياه الامطار .

وفي القرن الاول للميلاد استولى الانباط على عمان ، ولكنهم لم يبقوا فيها مدة طويلة لان هيرودس الكبير اخرجهم منها حوالي سنة ٣٠ق . م . وبعد الفتح الروماني اعيد تخطيط المدينة وبناؤها على مقياس واسع حتى ان معظم البنايات القديمة محيت واندثرت بفعل الاعمال الانشائية الجديدة . وفي عهد البيزنطيين صارت عمان مركزا لابرشية البتراء وفيلادلفيا ، وهي احدى الابرشيات التسع عشرة في فلسطين الثالثة التابعة لمدينة بصرى .

وتدل الحفريات التي اجريت على جبل القلعة في الموضع الذي بني عليه متحف الاثار فيما بعد — ان عمان كانت ما تزال مزدهرة عندما جاء الفتح العربي في القرن السابع الميلادي. ومن المحتمل ان يكون البناء المربع الموجود على ذلك الجبل قد بني في القرن الثامن. وقد أشار عدد من الرحالة والجغرافيين العرب لمدينة عمان في كتاباتهم اثناء القرون التالية ، ويفهم المرء من مؤلفاتهم ان عمان اخذت تتضاءل بصورة تدريجية في ثروتها وعدد سكانها حتى جاء القرن الخامس عشر عندما وصفت بانها انقاض وخرائب . وحوالي سنة ١٨٨٠ اسكن الاتراك في عمان بضع عائلات من الشراكسه ، ولكنها بقيت قرية صغيرة فقيرة حتى جاء الامير عبد الله بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى وجعلها عاصمة له . ومنذ ذلك الحين اخذت تنمو وتزدهر حتى صارت الى ما هي عليه اليوم. ومع ذلك اختفت مرة اخرى معالم أثرية كثيرة اثناء عمليات البناء والانشاء.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آثار عمان :

ما تزال في عمان حتى اليوم بقية من آثار العهد الروماني . وأهم هذه الآثار هو المدرّج الكبير الفخم الذي بني على جانب احد التلال بعد ان قطع ذلك الجانب ونزعت صخوره وأتربته . يتسع هذا المدرج الى ستة آلاف متفرج. ولقد اختفى المسرح ولم تبق سوى اساساته ، واما منصة الموسيقى فلم تجرَ حفريات للكشف عنها بسبب ارتفاع مستوى الطريق الى جانبها ، ولا بدّ ان مياه الفيضانات التي تسببها امطار الشتاء قد جرفتها معها . والأعمدة القليلة التي ما تزال منتصبة حتى الآن هي بقية مجموعة من الأعمدة التي كانت اصلا تحيط بساحة قائمة الزوايا. والى الشرق منها بناء كان بمثابة قاعة للموسيقى او مسرح مدرج (Odeum) وهو يجاور الان حديقة فندق فيلادلفيا من جهة الشرق . وكانت هذه القاعة تستعمل كمسرح صغير تمثّل فيه المسرحيات الجدية او تؤدى فيه الادوار الغنائية والموسيقية والقراءات الادبية والشعرية التي لا تهم سوى خاصة الخاصة ولا تمثل في مسرح المدرج الكبير . وكانوا عادة يسقفون تلك القاعات (١).

وعلى ضفة السيل ترى بقايا السيل او الحمام (Nymphaeum) ومن الواضح انه كان بناء مهما على قدر عظيم من الفخامة ، اما الان فهو خرب متهدم وقد ادخلت جوانب منه في منازل بعض الاهلين . وكان مجرى السيل مسقوفاً بالقناطر من هذا الموضع الى ما وراء فندق فيلادلفيا ، ويبدو ان سقف هذا الجانب كان ذا علاقة بتنظيم المدينة الذي لا نعرف عنه شيئاً . ولا يزال جانب من هذه القنطرة قائماً حتى الان تحت الحمام . ونحن لا نستطيع ان نعرف بالدقة تاريخ انشاء هذه المباني لان احداً لم يعثر على كتابات فيها ، ولكن هندسة الابنية تدل على انها انشئت خلال القرن الثاني او اوائل القرن الثالث للميلاد .

وكانت عمان — كغيرها من المدن الرومانية — تضم شارعاً مبلطاً تحيط بجوانبه الأعمدة ، وكثيراً ما عثر السكان على مساحة صغيرة من حجارة التبليط الفخمة اثناء قيامهم باعمال الحفريات ، وفيما عدا هذا لم يبق شيء من ذلك الشارع فوق مستوى ساحات المدينة .

---

(١) انشأ الرومان عدداً من المدرجات في الاردن . وأعظمها دون شك مدرج عمان الرئيسي . وهذه المدرجات موزعة كما يلي : ٢ في عمان ٢ في بلا (طبقه فحل) ٢ في البتراء ٢ في جدارا (اقيس) ٣ في جرش ، ١ في سبسطيه. ويعتقد الدكتور عوني الدجاني ان مدرج عمان يتسع الى حوالي عشرة الاف شخص . وفي عام ١٩٦٠ اجرت دائرة الاثار اصلاحات وترميمات مهمه في هذا المدرج بحيث اصبح صالحاً لاقامة الحفلات العامه في فصل الصيف (راجع مقالة الدكتور الدجاني في مجلة (رسالة الاردن) عدد كانون الثاني ١٩٦١). وما تزال اعمال الترميم مستمرة حتى الان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على ان الاثار الرئيسية الباقية ما تزال على جبل القلعة الذي كان محاطاً بسور يمكن مشاهدة جوانب منه حتى الآن ، خاصة في الجهة الشمالية والشمالية الغربية (١) .ان كل ما تشاهده العين من آثار على ارض الجبل تعود الى العهد الروماني والبيزنطي والعربي ، فيما عدا الزاوية الشمالية الشرقية حيث ما يزال جانب من مدينة العصر الحديدي قائماً حتى الان .ولقد كانت المساحة الداخلة ضمن نطاق السور مجزأة الى جزئين يفصل بينهما حائط استنادي ، ويزيد مستوى ارتفاع الجزء الشمالي الشرقي ، وهو يشمل جميع الابنية العامة ذات الاهمية والهياكل والكنائس وغيرها . وليس بالمستطاع تعيين مواقع البوابات في الاحوال الحاضرة ، ولكن هناك بوابة تعود الى العهد البيزنطي في السور الغربي غير بعيد عن البناء المربع المذكور سابقاً . وهذا البناء المربع ما يزال يحتفظ بمعالمه اكثر من الاثار الاخرى ، وهو يعود اما الى العهد الاموي (القرن السابع او الثامن) او لفترة الغساسنة (القرن السادس للميلاد) .ولا تعطي هندسة البناء فكرة واضحة عن الغرض من انشائه .انه لم يكن جامعاً كما يبدو ، ومن العسير الاعتقاد بانه كان منزلا لان تصميم البناء غير ملائم لذلك . ومن المحتمل انه كان قاعة للاستقبال يصل الزائرون اليه على طريق المواكب من منازل السكن الى الشمال . وكانت القاعة الوسطى من البناء مسقوفة بقبة في الاصل (٢) ، وما تزال بقاياها الزخارف الرائعة المحفورة على الحيطان ماثلة حتى الآن .

يقع هذا البناء في الزاوية الجنوبية للساحة التي كانت في عهد الرومان مفتوحة خالية تحيط بها اسوار عالية تزينها محاريب صغيرة تعلوها اقواس على هيئة صدفه ، ويمكن رؤية بقايا الاسوار الى الشمال والشرق ، وفي الفترة التالية انشئت بنايات كثيرة في هذه الساحة . وهذه البنايات التي انشئت مؤخراً ما تزال ماثلة اكثر من سواها حتى اليوم . وقد كانت هناك بعض المنازل الكبيرة خارج السور من جهة الشمال . ومن المحتمل انها كانت تشمل قصر الحاكم المحلي ودارات كبار المسؤولين . وفي الوقت الحاضر لا توجد بقايا اثرية واضحة للفترة التي سبقت القرن الثامن .

---

(١) في عام ١٩٦١ قامت دائرة الاثار بتعزيل كميات كبيرة من الاتربة المتراكمة حول جدران السور وبذلك كشفت جوانب جديدة منه ، كما قامت بتعزيل كميات من الركام في الجهة الجنوبية الشرقية من القلعة .

(٢) يرى البعض ان الساحة الوسطى كانت مكشوفة لادخال النور الى البناء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

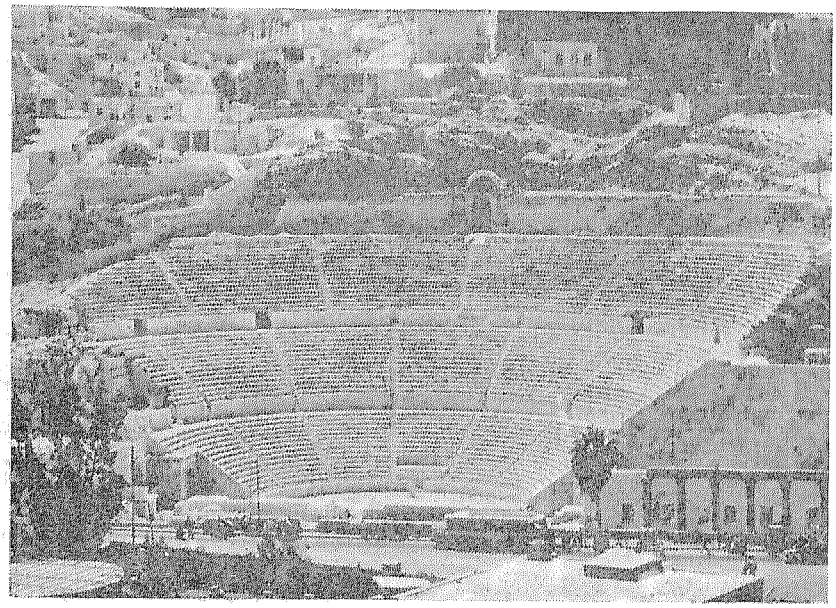

المـــدرج الروماني في عمـــان

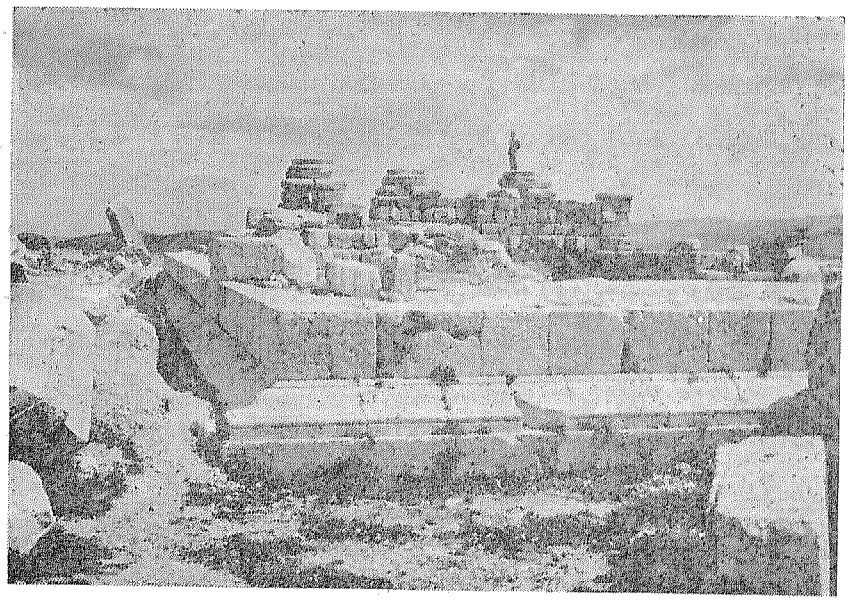

هيكل (هرقـــل) على جبل القلعـــة في عمان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي محاذاة السور الشمالي للقلعة على الارض الواطئة ، يوجد صهريج عظيم الاتساع محفور في الصخر يمر منه المدخل الى الممر الأرضي المؤدي الى القلعة . ولا بد ان الحاميـة كانت تتزود منه بحاجتها من الماء في اوقات الحصار ، والممر مغلق في الوقت الحاضر بسبب انهيار سقف النفق ، لذلك لا يعرف اين يخرج النفق داخل القلعة .

كان الهيكل الروماني في الزوايا الجنوبية الغربية مكرساً لاسم هرقل ، وتقول احدى الروايات القديمة ان تمثالا ضخما لهذا الآله كان ينتصب بجانب الهيكل : والرواية صحيحة لأنه عثر على قطعتين من المرمر لتمثال بهذا الوصف ، واحدى القطعتين لكوع ويد نستطيع منهما ان نقدّر ان ارتفاع التمثال كان لا يقل عن ثلاثين قدماً . اما الهيكل ذاته فقد كان مثالا ممتازاً للهياكل المماثلة ، يدل على هذا متانة تخطيطه وجودة الصنعة فيه ، وترى الصخر مكشوفاً داخل المذبح مما يدعو الى الظن ان الهيكل بني في موضع هياكل قديمة حينما كانت الصخور المرتفعة تقوم مقام المذبح . ويعتقد البعض ان سلّما من الدرج كان يصل بين الهيكل والمدينة في الوادي ، لان بقايا بوابة مزخرفة كانت ما تزال قائمة حتى عام ١٩١١ .

وهناك كنيسة متواضعة من منشئات القرن السادس او السابـع هي الأثر الاخر الباقي على القلعة حتى الآن .ولكن نظرة واحدة على التلال المجاورة تكشف مغائر كثيرة بعضهـا مأهول بالسكان ، و كانت تستعمل امكنة لدفن موتى المدينة القديمة . اما المنخفض المستدير الواسع بجوار البناء المربع فهو اما ان يكون بركة او طرف النفق الأرضي الذي اشرنا اليه قبلا .

وعلى مسافة بضعة كيلو مترات الى الشمال من عمان على الطريق الرومانية القديمة المؤدية الى جرش—يوجد ضريح فخم البناء تزينه النقوش لعائلة رومانية يسمى «قصر نويجس» ومن المحتمل انه يعود للقرن الثالث الميلادي وهذا الضريح أثر بديع ولكن لا يسهل الدخول اليه .

ويرى المرء على قمم كثير من التلال المحيطة بعمان خرائب بنايات صغيرة اكثرها مربع وأحيانا اجزاء لبعض الأسوار . وترجع هذه في اغلبها للعصر الحديدي ، ويبدو انها سلسلة من ابراج المراقبة او الحصون التي كانت تحيط بالعاصمة ، حيث كان بمقدور المقيمين فيها ان ينذروا المدينة في الوقت المناسب عن قدوم الأعداء من أي جهة ، وربما كان بمقدور هذه التحصينات ان تقاوم العدو فترة من الزمن .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عراق الامير :

تقع خرائب هذا البناء الغريب في وادي السير الى الغرب من عمان ، وتعدّ الرحلة اليها ممتعة بالنسبة لهواة ركوب الخيل . ويمكن استئجار خيول في قرية وادي السير ولكن من الافضل اعداد الترتيبات لذلك في اليوم السابق للرحلة .

تسير الدرب من القرية الى جهة الغرب على امتداد الجانب الجنوبي من الوادي ، وسرعان ما تبدأ بالانحدار مع المنحنيات . ومنظر الوادي في فصل الربيع جميل جداً حيث تنمو الاشجار الباسقة على جانبي النبع وحيث تكسو التلال خمائل الاعشاب الخضراء وعيدان القمح المتموج . ويبدو المنظر اكثر روعة في فصل الصيف عندما يكون كل شيء جافاً عارياً بينما تستطيع ان تجلس تحت ظلال الشجر الى جانب الماء الجاري . حتى ان الكولونيل كوندر الذي ساح في هذه البلاد عام ١٨٨١ كتب يصف هذا الوادي في كتابه (هيث وموآب) بقوله :

« ان المناظر في هذا الوادي والأودية الاخرى القريبة تمثل مفارقة شديدة بالنسبة لمناظر الهضبة السهلية . فالينابيع الصافية تجري بين المروج الخضراء او تشكل شلالات من فوق المرتفعات الصخرية حيث تنمو شجيرات العليق ونباتات السرخس ، وحيث تغطي المنحدرات اشجار البلوط الكثيفة حتى تغدو اشبه بغابات انجلترا ، وهنا وهناك تبدو اطراف التلال ذات الصخور البيضاء .اما تحت فترى الحجارة الصفراء والحمراء والارجوانية وقمم المرتفعات الصغيرة التي تغطي الارض فوق سهول وادي الاردن ، والفيافي العريضة المنقوشة بالاشجار ومضارب البدو ، والجروف العميقة ذات المساطب الضيقة حيث ترتفع غمغمة النبع بينما يختفي مجراه خلف اعواد القصب الطويلة وشجيرات الدفلى ذات النوار الأحمر . »

ومن المؤسف ان غابات البلوط لم تعد تكسو المنحدرات . ولكن فيما عدا ذلك فان وصف كوندر ما يزال مطابقاً للحقيقة .

لا تلبث الدرب ان تقطع الجدول الى الجانب الشمالي وتسير قريباً من السيل لمسافة قصيرة . وبعد ان تقطع النبع تستطيع ان ترى منزلا نحت في الصخر على الجانب الجنوبي وترى النوافذ في الطابق العلوي . وهذا الحائط يحتوي على طاقات مربعة كثيرة حتى ليحسب بعض الناس ان المنزل كله كان يستعمل لتربية الحمام . ومن المحتمل انه يرجع للقرن الأول

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ق.م. والقرن الاول بعد الميلاد. وهنا تبدأ الدرب بالارتفاع قليلا وسرعان ما تكبر الشقة بينها وبين الجدول . وبالقرب من قرية البصة الصغيرة توجد طاحونة مائية هي آخر الطواحين من نوعها التي ما تزال تستعمل في البلاد . وتقطع وادياً صغيراً ممتداً من الشمال ، ثم تمر بشجرة كبيرة تحيط بها بعض القبور ولا تلبث ان ترى عراق الأمير تحتك في الوادي .

وتبدأ الدرب بالانحدار تدريجياً حتى تبدو المغائر على اليمين في صفحة المنحدر . وهذه المغائر تنتظم في صفين ، اما أبواب مغائر الصف العلوي فتفتح على رواق طويل يمتد مع صفحة المنحدر ، وقد نقش اسم (طوبيا) الى جانب الباب في اثنتين منها بحروف عبرية . ومعظم هـذه المغائر خال مفتوح في الوقت الحاضر . وترى المياه تقطر من سقوف بعض المغائر حيطانها بصورة مستمرة حتى تتحول ارضها الى برك ، وهذه المغائر كبيرة الحجم ولكن بها ليس دقيقاً ، ويستعمل القرويون بعضها كمخازن للغلال والتبن .

وأهم آثار الموقع ذلك البناء الذي يعرف باسم (قصر العبد) ، وقد اختلف العلماء كثيراً في تحديد زمن بنائه وتعيين الغرض من أنشائه . أما بشأن الزمن فالآراء تتأرجح بين القرن الثالث ق.م. والقرن الأول ب.م. واما بشأن الغاية فيتراوح القول بين القصر والضريح والهيكل. ولا يدل مخطط البناء والشكل الهندسي على تاريخ الأنشاء لأنه لا يشبه اي طراز من الأبنية المعروفة . ويقول يوسيفوس في كتابه « آثار اليهود » ان شخصاً يدعى هركانوس في عهد سلوقس الرابع (١٨٧–١٧٥ ق.م.) قد بنى في هذه الجهات قلعة حصينة من الحجر الأبيض واحاطها بحدائق غناء وبحيرة ونقش على جدرانها نقوشاً تمثل « حيوانات هائلة عظيمة » . وقد نحت في الصخرة البكبيرة فوق القلعة مغائر كثيرة متطاولة . ويقول يوسيفوس ان هذه المغائر كانت تستعمل قاعات للطعام ومنازل للسكن ، ويبدو انها كانت مزودة بالماء. وهذا الوصف كله يطابق موقع عراق الأمير مطابقة تامة ، اضف الى هذا ان الاسم القديم (تور) يطابق الاسم الحديث للوادي (سير) اذ ان حرف س في العربية يقابل حرف ت في العبرية . ويقول بعض العلماء ان الاسماء المنقوشة على المغائر (طوبيا) تشير الى انها كانت مركز قيادة الطوبيين وهم افراد العائلة التي ذكرناها قبلا والذين كانوا أقوياء جداً في شرقي الأردن خلال القرنين الاول والثاني قبل الميلاد .

ومن المحزن ان النقوش التي تمثّل صور الحيوانات اصبحت الآن مشوهة تشويهاً كلياً. وقد تهدم البناء جميعه على بعضه . والسبب يعـود في بالدرجة الاولى الى طريقة البناء غير العادية . ان قطع الحجارة المستعملة في البناء ذات حجم كبير ويبلغ طول بعضهـا ٢٠ قدماً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وارتفاع ١٠ أقدام . بينما لا تزيد سماكة الحجر على١٨ أنشاً وقد بنيت هذه الحجارة بناءافقياً اي جعل ارتكاؤها على الطرف الدقيق بحيث اصبح ستوطها محتما عند اول صدمة تصيبها . وترى داخل الركام بقايا الاعمدة وتيجانها، وفي الزاوية الجنوبية الشرقية قطع احد الحجارة العلوية لكي تصنع منه حجارة درج . وتوجد في البناء كوى وفتحات ضيقة ولكن يبدو انها حفرت بعد اتمام البناء، لان احدى هذه الكوى اخترقت صورة نافرة لاحد الحيوانات. ان حالة البناء المضطربة تجعل من العسير على الباحث ان يستيقن من وضع الابواب ، ولكـــن يبدو انه كان للبناء ثلاثة مداخل واحد في الشمال وآخرفي الجنوب والثالث في الجانب الشرقي. ولقد كان هناك سور يحيط بالقلعة من جميع الجوانب ، ويوجد في الجانب الشمالي منخفض ربما كان في الاصل البحيرة (او الخندق) التي ذكرها يوسيفوس . وهناك بوابة في الجانب الجنوبي من السور تبدأ منها طريق ملتوية تؤدي الى نصف التلة . وربما كان اغرب لمحة من ملامح هذا المكان الغريب تلك الشواهد الحجرية المفروشة على جانبي الطريق والتي حفرثقب في رأس كل منها . ولقد قيل ان هذه الحجارة كانت تستعمل بصورة مـــا لتسهيل نقل حجارة البناء . أو أنانبوباً للماء كان يمر من هذه الثقوب لتزويد القصر، وغير ذلك من الآ راء، ولكن لا توجد دلائل ثبوتية مرضية لقبول اي من هذه النظريات . وعلى هذا فالغرض من هذه الحجارة المثقبة ما يزال غامضاً وربما استمر كذلك رغم ان اجراء حفريات في الموضع سيقدم دون شك اجوبة على بعض علامات الاستفهام .

مادبا :

تقع مأدبا الى الجنوب من عمان على مسافة ٣٢ كيلو متراً على الطريـــق التي تؤدي الى الكرك والبتراء . وتسير الطريق من عمان بارتفاع تدريجي في سلسلة مـــن الانحناءات حتى تصل الى الهضبة فتعتدل الطريق ، ويمكن للمسافر ان يشاهد غربي الطريق خرائب قريـــة تعود الى العصر الحديدي وتدعى اليوم (ام الصوّين) . وتقع قرية (قويسمه) الى الشرق، والى الجنوب منها بناء مربع صغير كان اصلا ضريحاً رومانياً من آثار القرن الثاني او القرن الثالث ب.م . وقبل ان تتقاطع الطريق مع سكة الحديد للمرة الثانية تتفرع عنها طريق اخرى الى الشرق وتؤدي الى سحاب وقصر الخرانة . ويقع الى غـــرب الطريق بعد التقاطع حصن متهدم يعود للعصر الحديدي . وبعد مسافة غير طويلة توجد بقايا ضريـــح روماني آخر الى الشرق من الطريق بينما ترى الى الغرب ناووساً وبضعة اعمدة وجدران متداعية ، وهـــي خرائب قرية رومانية كبيرة كانت عامرة فيما مضى وتدعى اليوم خربة السوق. وفي اليادودة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تل طبيعي كبير يقوم في أعلاه بناء ضخم يبدو وكأنه قلعة ، وهذا التل يدعى خربة ابو جابر ، وتسير الطريق منها في سهل واسع ذي تربة حمراء يزرع بالقمح وينتج غلات وافرة في سنوات الخصب . وفي فصل الربيع ترى زهور السوسن السوداء (الدحنون) منتشرة على جانبي الطريق .

وبلدة مادبا ليست على قدر كبير من التنظيم والتناسق ، وقد بنيت على تل صنـــاعي يخفي في باطنه بقايا البلده التي كانت مادبا عبر العصور . وللبلدة تاريخ طويل : اذ ذكرت في التوراة في عهد خروج اليهود من مصر (عـــدد ٢١) حوالي ١٣٠٠ ق . م. وقبل بضع سنوات وجد ضريح من بقـــايا ذلك العهد الى الشرق من البلدة . ثم يظهر اسمها في قائمة البلدان التي قسمت بين اسباط اسرائيل (يشوع ١٣—٩) وكانت من نصيب سبـــط روبين . وبعد ذلك غـــدت مأدبا بلدة للعموريين بين ديبون (ذيبان) والعاصمـــة حشبون (حسبان) . وذكر اسمها في حجر ميشع عندما كانت في ايدي الموآبيين .

استعاد العمونيون مادبا في عهد المكابيين (حوالي ١٥٦ ق .م) ولكن يوحنا هركانوس استولى عليها حوالي سنة ١٠٠ ق . م بعد حصار طويل . بقيت البلدة في ايدي اليهود حتى أيام اسكندر جانوس ، وكانت احدى المدن التي وعـــد بها الحارث ملك الانباط اذا هو ساعد هركانوس على استعادة القدس . ولقد جعل الرومان منها بلدة ريفية نموذجية مثـــل جرش ، فزينوا شوارعها بالاعمدة وأنشاوا فيها الهياكل الرائعة ومباني عامـــة اخرى وبرك مياه كبيرة وسور خارجي . واستمر ازدهارها حتى نهاية العهد البيزنطي . وفي ذلك العهد غدت مركز ابرشية (مطرانية) وذكر اسمها في محاضر جلسات مجمع خلقيدونية عام ٤٥١ ب م . ويبدو انها اخليت بعد ذلك وشاهد الرحالون آثارها عندما زاروا البـــلاد في القرن التاسع عشر ، ولكن هذه الآثار انطمست بسرعة عندما هاجرت الى مادبا جالية مسيحية من الكرك حوالي عام ١٨٨٠ . وهكذا لا يشاهد المرء من آثار البلدة الرومانية الا بركة واحدة ونقوش الفسيفساء . وتمثل قطعة الفسيفساء الرئيسية خارطة مفيدة للغاية لفلسطين والاردن ، وهي موجودة في كنيسة الروم الارثوذكس . وكانت هذه الفسيفساء في الأصل جانباً مـــن ارضية احدى الكنائس ويحتمل انها من منشئات القرن السادس الميلادي . ومن سوء الحظ ان الخارطـــة غير كاملة ولكنها تشمل صورة بديعة للقدس ، وهي واحدة من اقـــدم الخرائط لهذه البلاد فهي بالغة الأهمية لتعيين مواقع المدن القديمة . ويوجد في البلدة عـــدد

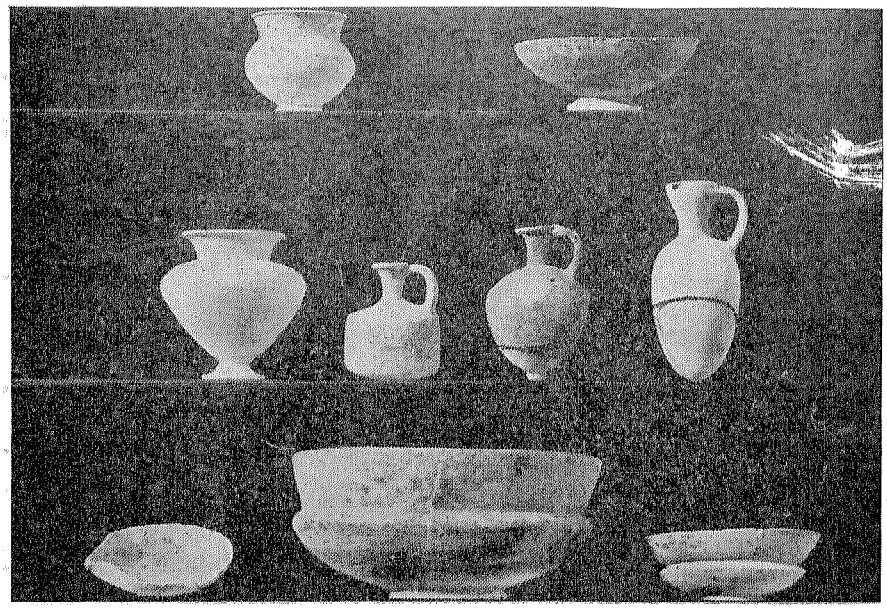

نماذج من فخّار العصر البرونزي المتوسط .
ويبدو فيها جمال الشكل ، كما تلاحظ فيها دقـــة الصنعة .

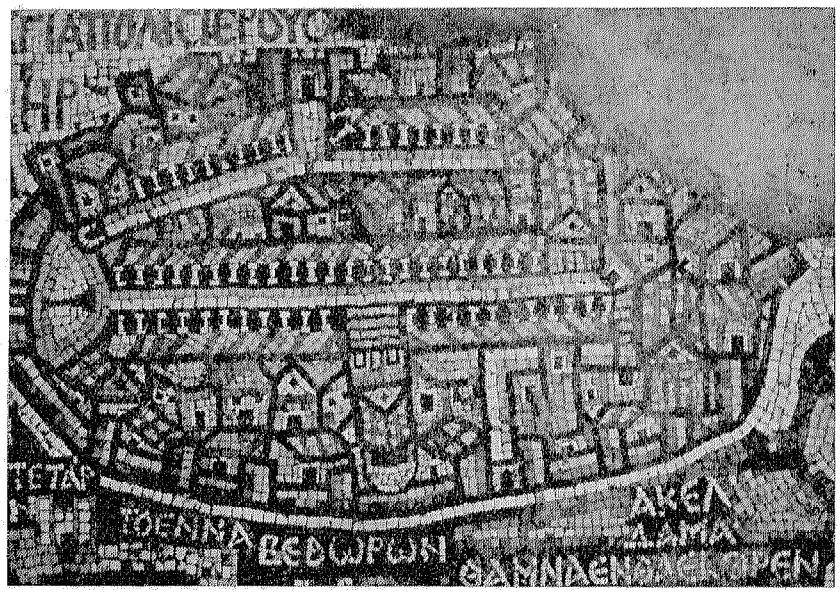

خارطة القدس المصوّره بالفسيفساء ، ويعود تاريخها الى القرن السادس الميلادي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آخر من قطع الفسيفساء وكلها في منـــازل تخصّ الاهلين ، ولكن من المتفق عليه ان يسمح اصحاب تلك المنازل للزائرين بمشاهدتها اذا هم رغبوا في ذلك . وفيما يلي قائمة بالمنـــازل المذكورة وتعريف موجز بما فيها :

١ ــ منزل متري المصاروة في الجانب الشرقي من البلدة ، وفيه ارضية متقنة صغيرة تمثّل اشكال حيوانات ، ورصيعة تضم في وسطها رأس سيدة .

٢ ــ منزل مسعد الطوال قريباً من المنزل الأول ، وفيه ارضيـــة كبيرة يحتمـــل انها كانت لدارة خاصة ، وقد بني المنزل الحديث على جانب منها . وترى فيها صورة رجل وامرأة يرقصان وتتحلى المرأة بصنوج في يديها وكاحليها . وهناك صور بعض الحيوانات .

٣ ــ منزل عزيز شويحات في الجانب الغربي من البلـــدة وفيه بقايا ثلاث او اربع ارضيات مختلفة احداها في الباحة وكلها في حالة هزيلة .

٤ ــ نقلت دائرة الآثار الى المتحف جانباً من ارضية رائعة الصنعة لا ن اصحاب المنزل الذي كانت موجودة فيه حوّلوه الى كراج . وهذه الارضية مصنوعة من حجارة مستطيلة لا تقل اطوالها عن ضعف اطوال حجارة الفسيفساء العادية . (١)

جبل نبو(٢) :

يقع جبل نبو الى الشمال الغربي من مادبا ، وهو احد موضعين يظن ان موسى دفن فيهما، اما الموضع الآخر فهو الى الغرب من البحر الميت على طريق اريحا القدس. واذا كانت المعلومات المسجلة في التوراة دقيقة (وهي عادة كذلك) فالموضع الاخير لا يمكن ان يكون ضريح موسى ، الا اذا قدّرنا ان عظام النبي نقلت اليه في وقت من الاوقات .

توجد معالم الآثار الرئيسية في موضع يدعى (سياغة)وهي تتألف من كنيسة وديـــر مجاور لها . وقد جاء اول ذكر لهذه الكنيسة فيما كتبته سيدة اسمها (اثيريا) جاءت الى هذه

---

(١) في شهر شباط ١٩٦٠ اكتشفت في مادبا فسيفساء جديدة رائعة تمثل مشهداً للبطل اليوناني آخيل حامـــلا قيثارته يعزف عليها بينما اخذت بريسيز الراقصة ترقص على انغامها . والى جانب آخيل صديقه الحميم باترخولس . كما يبدو في المشهد الطفل ايروس وصورة الانسان الخرافي

(٢) اسم هذا الجبل في كتب التاريخ القديم : (جبل نبه)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البلاد حاجّةحوالي عام ٣٩٤ م. وتصف السيدة كنيسة صغيرة تضم ضريح موسى وتقول ان موضع الضريح كشف لاحد الرعاة اثناء رؤيا عجائبية . ولا تذكر السيدة شيئاً عن الدير ولكنها تذكر النسّاك الذين تجولوا معها كي تشاهد الموضع . وتتحدث سيرة بطرس الايبري عن زيارة لهذا المكان وقعت في اواخر القرن الخامس او اوائل القرن السادس . وجاءفي هذه السيرة ان البناء « هيكل ضخم جداً » اخذ اسمه من اسم النبي موسى ، وقد انشئت اديرة حوله ، وهذا يجعلنا نفهم ان أبنية جديدة اضيفت الى الابنية الـــتي شاهدتها اثيريا . ويروي احد الرهبان لبطرس قصة الرؤيا التي ظهرت للراعي وكانت سبباً لبناء الكنيسة . ويتحدث بطرس كما تتحدث اثيريا عن المنظر الخلاب الذي يبدو لمن يقف عـــلى قمة الجبل . ويذكر (ثيمّار) هذا الموضع مرة اخرى عام ١٢١٦ فيقول انه قضى ليلـــة في ذلك الدير بينما كان مسافراً من عين جدي (على الجانب الغربي من البحر الميت) الى الشوبك . وفي عام ١٥٦٤ زار الموضع راهب برتغالي من رهبنة الفرنسيسكان فذكر ان البنايات القائمة على رأس الجبل صارت متهدمة لايقيم فيها أحد رغم انكنيسة صغيرة في عيون موسى في واد الى الشمال— كانت ما تزال مأهولة . وذكر جبل نبو في احدى وثائق القرن السابع عشر ولكن يبدو ان الكاتب كان يجهل وجود اية بنايات او حتى اية خرائب في ذلك الموضع .

واعتباراً من سنة ١٩٣٢ بدأ معهد الفرنسيسكان للعهد القديم في القدس بسلسلة من اعمال الحفريات . ونتيجة لذلك ظهرت اثار الكنيسة والاديرة التي وصفها الرحالة السابقون: والكنيسة من نوع الكاتدرائيات (الباسيليكا) العادي وفيها مرتفع يشبه المنصة الى الجانب الشرقي من الممشى يكاد ينطبق عليه الوصف الذي ذكرته اثيريا. وتثبت الحفريات ان الكنيسة كانت في أيامها صغيرة المساحة وانها وسّعت في اواخر القرن الخامس . وهناك جدار منحن في الغرفة الواقعة الى الشمال من القبو ، وقدكان جزءاً من بناء الكنيسة الاولى . ولقد تهدمت الكنيسة كلياً في اواخر القرن السادس ربما بفعلالزلازل—واعيد بناؤها عام ٥٩٧ وهو البناء الذي نرى بقاياه الآن .

توجد بقايا ارضيات من الفسيفساء في الكنيسة والغرفة الجانبية والمذابح ، ولكن الفسيفساء اصيبت بكثير من العطب منذ القدم . وتحتوي فسيفساء المذابح اعمالاً فنية رائعة بالاضافة الى صور دقيقة لحيوانات واشجار.ولقد كانت الغرفة الجنوبية الشرقية مكاناً للمعمودية ، وما يزال جرن المعمودية في مكانه وعليه كتابة يونانية . وترى في الممر وامام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المحراب عدداً من الاضرحة التي تحتوي على رفات بعض الموتى ، وتبين ان بعض هذه الأضرحة سطي عليها قديماً وبعضها الآخر ما يزال على حالته الاولى، ولكن شيئاً ذا أهمية لم يعثر عليه في أي منها .

اما الاديرة فتنتشر حول الكنيسة الى الغرب والشمال منها ، واضخمها الدير الجنوبي. ولا بد ان هذه الأديرة كانت مأهولة بعدد لاباس به من الناس ، هـذا اذا أخذنا بعين الاعتبار اتساع الأبنية وامكانات السكن فيها .

يستطيع الشخص الذي يقف على الشرفة الى الغرب من الكنيسة ان يملأ بصره بمنظر رائع عبر وادي الاردن ، واذا كان الجو صافياً فيمكن رؤية الابراج على جبل الزيتون ومدينة اريحا بوضوح . ان نهر الاردن نفسه يكون مختفياً في مجراه العميق ولكن تعرجاته تبدو واضحة. اما المنظر الغالب امام العين فهو البحر الميت بامواهه اللامعة تحت ضوء الشمس على انخفاض ٣٥٠٠ قدم . ولا بد ان يكون موسى قد وقف غير بعيد من هذا المكان وادار انظاره في ارض الميعاد ، لان جبل نبو الذي تذكره التوراة بهذا الاسم ما يزال باقياً الى ايامنا هذه، اذ ان احدى التلال المجاورة تدعى اليوم باسم جبل نبا . اما اسماء الاماكن التي تذكر التوراة ان موسى دفن عندها (سياغة وبعل بيور) فلا توجد اسماء حديثة مطابقة لها . وبناء على ما جاء في حجر الملك ميشع فلا بد ان قرية كبيرة كانت موجودة في جبل نبو ، لان ميشع يقول انه ذبح ٧٠٠٠ من السكان ونزع الآنية عن مذبح (يهوه) ، ولكـن من المحتمل ان ميشع كان يقصد قرية المخيّط .

وقد نظّم الفرنسيسكان في البنايات التي انشاؤها ، البقايا الاثرية التي عثر عليها اثناء الحفريات . ويمكن للزائرين مشاهدة هذه الاثار اذا ابدوا رغبتهم في ذلك .

وتقع المخيّط على بعد ثلاثة كيلو مترات جنوبي الطريق .وتوجد هناك باحة الفسيفساء المتقنة الصنع وما تزال سليمة كلها تقريباً .وكانت هذه الباحة ارضية كنيسة تعود لاواخر القرن السادس او اوائل القرن السابع ، وقد قام الفرنسيسكان بتعزيل الانقاض من هذه الكنيسـة وأنشأوا بناء مسقوفاً فوقها للمحافظة على الفسيفساء . ويزد ان صحـن الكنيسة كله بصورة شجرة كرمة تتفرع غصونها وتلتوي في دوائر وتظهر فيهـا صورة اشخاص وحيوانات. ويبدو الرجال مجتمعين يعصرون قطوف العنب بينما يلعب أحدهم على مزمار احتفالا بالمناسبة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السعيدة . ونقشت امام المذبح كتابة تقول ان الكنيسة اعطيت اسم القديس لوط والقـــديس بروكو بيوس وان منشئيها هما استيفن وايليا ابني كومتيسا، ومن «اجل راحة يوحنا انسطاسيا واولئك الذين تبرعوا ، الذين يعلم الله اسماءهم». وترى بين الاعمدة مناظر مختلفة : مشاهد مائية، حيوانات اسطورية، كنيسة بجانب نهر او بحر حيث ترى رجلا يصطاد السمك بكثرة: وامام المدخل مشهد طريف لعجول على جاني مذبح النار ورسوم الاشجار وراءها . وفي الممشى ترى الخراف حول شجرة في كل من الجانبين ، وهذا من المناظر الشائعة كثيراً في كنائس ذلك العهد (١) .

زرقاء ماعين :

تتفرع من مأدبا طريق اخرى بانحراف بسيط الى الجنوب الغربي تؤدي الى ينابيـــع زرقاء ماعين التي تعرف باسم (كاليرهو) وتقع هذه الينابيع في وادي زرقاء ماعين وهو جرف عميـــق شديد الانحـــدار ، وتتألف من سلسلة من البرك الكبيرة والصغيرة ذات الحرارة المختلفة . فمي بعضها تشتد الحرارة بحيث تستطيع ان تسلق البيضة وفي البعض الاخر تعتدل الحرارة بحيث تستطيع الاسترخاء في جوفها بصورة مريحـــة . ومن ابرز المشاهد مساقط المياه الحارة التي تنصب في اكبر البرك .وكانت هذه الينابيع مشهورة في عهد الرومان: مع انه لا تبدو اية اثار قديمة عندها ، وهي الينابيع التي كان هيرودس الكبير ينزل اليها من قصره في مكاور على قمة الجبل الى الجنوب ، كي يعالج الادواء المختلفة التي كان يتألم منها .

(١) لا بد هنا من الاشارة الى كتاب (مادبا وضواحيها) تأليف الاب جورج سابا وروكس بن زائد العزيزي اذ يتضمن القسم الاول منه معلومات غزيرة عن تاريخ مادبا وآثارها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع

جرش : الرّحالة الالماني سيتزن يكتشفها مجـدّدا سنة ١٨٠٦ – العصر النيوليثي – البلدة الهيللينية – عضو حلف الديكابوليس – عصرها الذهبي في القرنين الثاني والثالث – انشاء الكنائس ودمار البلدة – وصف الآثار .

توجد في الشرق الأوسط ثلاث مدن عظيمة من مدن العصور الكلاسيكية، الا وهي : تدمر وجرش والبتراء . أما تدمر فتوجد في سوريا ؛ بينما توجد جرش والبتراء في الأردن . ولكل مدينة من هذه المدن معالمها التي تستحوذ على اهتمام عالم الآثار ، او المؤرخ او المهندس المعماري ، ولكل منها طابعها المتميز لاجتذاب الزائر . وكذلك نرى ان موقـع كل مدينة ينفرد بطابع خاص ، اذ ان تدمر تقع على حافة الصحراء، وتقع جرش في واد ترويه المياه، اما البتراء فتقوم بين جبال ادوم الرملية . وتتفرد جرش وحدهـا بين المدن الثلاث بانها مدينة رومانية تقليدية من المدن التي كان الرومان ينشئونها في المقاطعات، ويبدو هذا واضحاً في مخططها وهندسة بنائها . وربما كانت جرش افضل مثال في الشرق الاوسط لمدينة رومانية من هذا الطراز احتفظت بمنشئاتها قائمـة اكثر من سواها حتى اليوم . ولا شك ان تدمر والبتراء تعرضان كلاهما ملامح كثيرة خاصة بالشعوب التي صممتها وانشأتها ، ولكن من الواضح ان مهندساً رومانياً قام بوضع المخططات والتصاميم لانشاء جرش كوحدة متكاملة ، كما لا بـد ان الرومان قاموا بالاشراف عـلى انشاء الابنية ، مع انه لا شك بان معظم العمال والصناع كانوا من السكان المحليين . ولا بد ان عملا كهذا اقتضى تشغيل جيش عظيم من البنّائين والمثّالين الى جانب اولئك الذين قطعوا الصخور من المحاجر المحلية المجاورة، لأن الجانب الاعظم من المنشآت التي نراها اليوم – جرى تصميمها وانشاؤها خلال فترة قصيرة من الزمن نسبياً .

تقع آثار جرش في واد بين جبال جلعاد ، ويمكن الوصول اليها من عمان بالسيارة في ساعة وربع الساعة على الطريق الجديدة ؛ يمتد الوادي الى الشمال والجنوب ، وبينما تتقارب التلال في الجهة الشمالية بعضها من بعض وتكتنف المنطقة ، فانهـا في الجهة الجنوبية تنفرج

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حتى لترى في الافق البعيد لمحات من قرية صويلح التي تقع على طريق عمان ـ القدس . اما الوضع العام فيشكّل جانباً مهما من سحر الموقع كله، فهناك الجدول الصغير الذي يجري في وسط المدينة ويقسمها الى قسمين : شرقي وغربي ، حتى في ايام الصيف الحارة عندما تكون التلال المحيطة جافة سمراء ، فان اشجار الجوز والحور النامية على جانبي الجدول تبدو دائماً خضراء ومبهجة للناظرين : وتقع البلدة الحديثة كلها على الجانب الشرقي وكان معظم سكانها من الشراكسة الذين انزلهم الأتراك هناك في اواخر القرن الماضي . ولا حاجة للقول بأن اولئك السكان ماهرون في تصنيع الحجارة الكبيرة ، ومع ان هذه المهارة انصرفت في الاعوام الاولى الى التدمير ، فانها منذ نهاية الحرب العالمية الاولى اخذت تعمل في المشاريع الحكومية الرامية الى التجديد والبناء ، لذلك كانت خدمات اولئك الصناع ثمينة للغاية (١) . وقد انشأ الاتراك منزلا لهم ذا برج مستدير في زاوية فناء هيكل ارتميس من اجل اعمال الادارة الحكومية ، وليكون مكاتب للموظفين ومخفراً للشرطة وسجنا واسطبلا في وقت واحد . اما المنزل الحديث الآخر الذي انشيء بين الآثار على رابية شرقي ساحة الندوة (Forum) ، فقد انشأته بعثة اميركية ـ انكليزية مشتركة اثناء قيام اعضائها بالحفريات هناك في العقد الثالث من هذا القرن .

لقد كشف الرحالة الالماني سيتزن سنة ١٨٠٦ للعالم الغربي عن وجود آثار جرش . ومنذ ذلك الحين زاد عدد الزوار والسياح والعلماء الذين يفدون اليها زيادة مضطردة . واذا نظرنا الى الامر من وجهة نظر آثارية محضة ، فان الآثار التي نراها هي آثار حديثة نسبياً ، اذ لا يوجد اي اثر قائم يعود بتاريخه الى ما قبل التاريخ المسيحي ، ولكن الدلائل تشير الى ان الموقع كان مأهولا بالسكان حتى في عصور ما قبل التاريخ ، وهذا ما نتوقعه فعلا من مكان تجري فيه مياه عذبة بصورة دائمة . والامر المدهش هو ما يبدو من وجود فجوات زمنية لم تكن جرش خلالها مأهولة بالسكان ، او على الاقل فان الناس الذين اقاموا فيها خلال تلك الفجوات الزمنية لم يكن عددهم كبيراً حتى يخلفوا بعدهم اية آثار. على ان اثار جرش الحالية تدين ببقائها في هذه الحالة الممتازة الى الفترة الاخيرة الغامضة من الفجوات الزمنية ، وهي الفترة التي تمتد ابتداء من القرن الثالث عشر ب.م تقريباً حتى انشاء القرية الحديثة سنة ١٨٧٨ . كما ان عدم وجود اية قرية مجاورة كان مفيداً من حيث ان الآثار لم تستعمل كمحجر ملائم للحصول على حجارة منحوتة جاهزة للاستعمال . ونرى ان وجود قرى الى جانب

---

(١) يعني المؤلف هنا ان سكان جرش كانوا يومذاك يبنون منازلهم من حجارة المدينة الاثرية . ومن المؤسف ان الجهل كان سائداً بين الاهلين وموظفي الحكومة في عهد الاتريك ، لذلك لم تكن للآثار اهمية في نظرهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاماكن الاثرية قضى تقريباً على مدن اكبر حجما من جرش ، مثل جـــدارا (ام قيس) وفيلادلفيا (عمان) . ومن حسن الحظ ان قرية جرش العصرية انشئت في الجانب الشرقي ، حيث يبدو ان الاقدمين لم ينشئوا عمائر عامة كبيره ، وحيث لم يتح الوقت الكافي للسكان الجدد لكي يوقعوا بالآثار تخريباً مهما . ومع ذلك فان الرحالة شوميكر الذي زار جرش سنة ١٨٩١ يصف كيف ان الشراكسة كانوا يضعون الغاما من ملح البارود تحت اعمدة الشارع الرئيسي وينسفون عمودا بعد عمود لكي يعثروا على الحجارة التي تلائم مقاصدهم (١) .

لا بد ان ثروة جرش في ايام عزها كانت طائلة ، ويبدو ان هذه الثروة كانت تنتج بصورة رئيسية من المحاصيل الزراعية ، اذ توجد الى الشرق منها حقول قمح واسعة خصبة ، وذلك لان جرش لم تكن واقعة على خط من خطوط التجارة رغم موقعها الاستراتيجي .

ومن المحتمل ان مناجم الحديد في تلال عجلون الى الغرب من جرش كـــانت تستغل وتساهم في ازدياد الثروة ، حتى ان احد الكتاب العرب في القرن الثالث عشر بعـــد الميلاد يذكر انها كانت مشهورة بصناعة المدى الدقيقة . واذا انعمنا النظر في عدد سكان البلـــدة الحالية والمساحة التي تؤلفها ، فاننا نستطيع القول ان الحد الاعلى للسكان في المدينة القديمة كان يتراوح بين ١٣٫٠٠٠ و ١٨٫٠٠٠ نسمه ، وهذه الارقام طبعا لا تزيد عن كونها تقديرات محضة . اما الاسوار التي كانت تكتنف المدينة والتي يمكن مشاهدة اجزاء كثيرة منها ، فلم يكن المقصود منها مقاومة حصار قد يفرضه الاعداء ، بل بالاحرى لمنع الغزاة القادمين من الصحراء الذين كانوا يشكلون تهديداً دائميا للسكان المقيمين في القرى . والدليل على ما تقدم : ان السور لم يكن من المنعة والضخامة بحيث نعتبره تحصينا دفاعيا .

بعد الحرب العالمية الاولى عندما اصبح الاردن جزءا من منطقة الانتداب البريطاني على فلسطين — بدأت دائرة الاثار تهتم بهذا الموقع اهتماما فعالا ، وقد اجريت منذ عام ١٩٢٠ حفريات واسعة بالاضافة الى اعمال الترميم والصيانة . ويمكن ان نضرب مثلا واحداً عـــلى

---

(١) انا لا اصدق حكاية شوميكر هذه ، لان حجارة الاعمدة الضخمة لم تكن لازمة للشراكسة اوائل مجيئهم عندما كانوا يكتفون ببناء منازل بدائية صغيرة لهم ، ولا بد انهم كانوا يكتفون بانتقاء ما يلائمهم من الحجارة الصغيرة الملقاة على الارض والتي يسهل عليهم نقلها الى العدوة الشرقية . ثم ان ملـــح البارود لا يصلح لنسف الاعمدة ، ولم يظهر أي دليل على ذلك . وأعتقد ان ابعد مدى كانوا يستطيعون الذهاب اليه هو ان يعمـــدوا الى تقطيع بعض حجارة البناء الضخمة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جهود دائرة الآثار بأن ساحة الندوة (الفوروم) والشارع الرئيسي كانا مدفونين كليا تحت الانقاض ، وان اختلاف اللون في الجزئين العلوي والسفلي من احد الاعمدة يدل على مسافة العمق التي كان العمود مدفونا فيها ، كما انها تعطي بعض الدلالة على طول الفترة التي قضاها العمود في تلك الحالة ، لان تكوّن الطحالب على الحجر نتيجة لأشعة الشمس ، يقتضي مدة اكثر من بضع سنوات . وبالاضافة الى ذلك ، فان المدخل العظيم لهيكل ارتميس كان في حالة من الخراب والتفسخ ، حتى ان الدائرة قامت بنقضه حجرا حجرا ، ثم اعادت بناءه من جديد مع اضافة حجارة جديدة حيثما اقتضت الضرورة ذلك . ولكن ما يزال هناك عمل كثير يجب القيام به ، وقد ابدت الحكومة الاردنية منذ انتهاء الانتداب عام ١٩٤٨ سخاء عظيما في رصد المخصصات لاغراض الصيانة والتجديد ، هذا مع العلم بان موارد الحكومة زهيدة حقا (١) .

التاريخ :

تمّ العثور ، في المنحدرات الواقعة الى الشرق من قوس النصر ، على كميـــة من الادوات الصوانية ومن جملتها بعض المعاول اليدوية الصغيرة الدقيقة الصنع ، ويدل اكتشاف هـــذه الادوات على ان جرش كانت مأهولة بالسكان في العصر النيوليثي حوالي ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ومن المحتمل ايضا ان الكهوف الطبيعية المطلة على الجدول في هذا المكان ، كـــانت كذلك مأهولة في تلك الفترة . وقد كان الموقع الذي يقوم فيه الان خزّان المياه في الشمال الشرقي من المدينة ــ قرية تعود الى العصر البرونزي الاول ، واثناء انشاء خزان الماء تم العثور على قطع صوانية وادوات اخرى تعود الى تلك الفترة اي حوالي ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد . وعلى رؤوس التلال المجاورة بقايا خربة لبعض الانصاب (Dolmens) وهي تعود اما الى العصر الخالكوليثي او اواخر العصر النيوليثي حوالي (٤٠٠٠) سنة قبل الميلاد . ولكن لم يتم العثور حتى الان على اماكن سكن تعود الى تلك المرحلة . ولا توجد الان بقايا ظاهرة للعيان من اية قرية او محلة سكن يعود تاريخها الى ما بعد قرية العصر البرونزي الاول المذكورة اعلاه . حتى لو كانت هناك قرية في الموضع الذي انشأ فيها الرومان مدينتهم الحالية ــ فلا بد ان تكون بقاياهـــا قد تلفت او دفنت اثناء عمليات البناء الضخمة .

---

(١) حقا لقد ازداد الوعي بين المسئولين من رجال الحكم والاهلين على السواء بأهمية الآثار والثروة العظيمة التي تمثلها للبلاد . وفي عام ١٩٦١ رصدت الحكومة ٧٠ ألف دينار لاعمال الصيانة والترميم اذ امكن بواسطتها القيام بأعمال مهمة في البتراء وجرش ومدرج عمان . اما الخطوة الكبرى في هذا المجال والتي يجب ان تسجل بالتقدير ، فهي تلك التي قامت بها حكومة السيد وصفي التل في صيف عام ١٩٦٢ اذ جندت مفرزة من سلاح الهندسة الملكي مع آلياتها القوية لرفع عدد كبير من الاعمدة الملقاة على الارض في جرش وتعزيل الركام عن الشوارع المبلطـــة وكذلك الطين الـــذي تراكم عبر العصور في البركتين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا نستطيع الان ان نجزم تماما بالتاريخ الذي بدأت فيه جرش تبرز من غياهب النسيان وتتحول من قرية صغيرة الى مدينة هيللينية مهمة ، مع ان هذا التحول لم يكن ممكنا قبل القرن الرابع ق . م . وتدلنا الكتابات على ان المدينة كانت يوما ما تسمى (انطاكية) الواقعة على النهر الذهبي (Antioch on the Chrysorhoas) وهذا الاسم الفخيم كان يطلق على الجدول الصغير الذي ما يزال يجري في الوادي . اما الاسم الاخر القديم للمدينة ، فهو جراسا (Gerasa) وربما كان اسم انطاكية يحمل شيئا من الاهمية ، اذ يوحي لنا بان احد الملوك السلوقيين الذي كان يحمل اسم انطيوخس هو الذي كان مسؤولا عن تحويلها وتطويرها . واذا صحّ هذا ، فمن المحتمل ان يكون انطيوخس الرابع في اوائل القرن الثاني قبل الميلاد . لاننا نعرف انه كان كثير الاهتمام بالاردن . ومهما يكن من امر فان كتابات اخرى تشير الى وجود روايات عديدة عن انشاء المدينة ، فبعض هذه الروايات يعزو الامر الى الاسكندر الكبير ، وبعضها يعزوه الى (برديكاس) احد قواد الاسكندر ، وكلاهما عاش في القرن الرابع قبل الميلاد . وهناك مرشح آخر لهذا الشرف هو بطليموس فيلادلفس الثاني حاكم مصر (٢٨٣–٢٤٦ ق . م .) الذي افتتح البلاد واخضعها لحكمه مدة من الزمن وهو الذي جدد بناء عمان واطلق عليها اسم فيلادلفيا على اسمه هو . ولكن من المحتمل ان كل واحد من هؤلاء اسهم نوعا ما في بناء جرش ، وان بروزها كمدينة هيللينية فخيمة رائعه بعد ان كانت قرية حقيرة ذات اكواخ من الطين – يعود الى ازدياد رخائها والى استتباب الامن ، اكثر مما يعود الى جهود اي حاكم واحد بعينه .

لا يتعرّض التاريخ لذكر جرش حتى نهاية القرن الثاني قبل الميلاد ، عندما يشير المؤرخ يوسيفوس اليها بأنها المكان الذي عمد ثيودوسوس « طاغية فيلادلفيا » الى نقل كنزه اليه لتأمينه في هيكل زفس بعد اخراجه من جدارا . ويبدو من هذا ان هيكل زيوس في ذلك الحين كان معبدا لا يجوز انتهاك حرمته ، وان اي شخص يلجأ اليه يكون امينا على نفسه من الاعتداء ما بقي داخل نطاقه ، وكذلك الحال بالنسبة للامتعة والاموال التي توضع فيه من اجل الحفاظ عليها . ومهما يكن من امر فان ثيودوسوس لم يلبث أن خسر جرش بعد هذا الحادث بقليل اذ استولى عليها اسكندر جانيوس حاكم اليهود وكاهنهم الاعلى (١٠٢ – ٧٦ ق.م) ويظهر ان جرش بقيت في ايدي اليهود حتى قدوم بومبي القائد الروماني . ولا شك انها نالت نصيبا من نتائج مخاصمات الحكام اليهود الصغار ومنافساتهم التي لم تكن تهدأ أبدا :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم يبق من المدينة الهيللينية اية بقايا يمكن مشاهدتها اليـــوم ، ولكن عثر عـــلى بقايا رسوم منها خلال الحفريات التي اجريت في منطقة المصلّبة الجنوبية (Tetrapylon) . ودلت تلك الرسوم على ان الشارع الرئيسي كان يمتد امتدادا مخالفا لامتداد الشارع الروماني الذي أنشيء بعده . ويعتبر اكتشاف تلك الرسوم ، بالاضافة الى النصوص الكتابية ، الادلـــة الوحيدة في الوقت الحاضر على وجود تلك المدينة ، هذا الى جانب اكتشاف قطعـــة نقد أو جذاذة أثرية من مخلفات ذلك العهد . والواقع انه لولا ما ورد من اشارة الى هيكل زيوس ، لما استطعنا ان نكوّن اية فكرة عن طبيعة الابنية التي كانت قائمة في ذلك الحين . ويظهر من كتابات معينة وجدت في جوار ساحة الندوة ، وهيكل زيوس ، ان المدينة كانت اثناء القرن الاول ، وربما ايضاً اثناء القرن الثاني ق. م. ، تمتد من هناك حتى منطقة الكنيسة الكاتدرائية ، بينما يقدّر آخرون ان المدينة ربما كانت تشمل كذلك منطقة هيكل أرتميس . ومهما يكن من امر فليس من المستطاع التحدث عن المدينة التي كانت قائمة قبل العصر المسيحي ، الا اذا تم القيام بحفريات اخرى .

وفي عام ٦٣ ق . م . حدثت حادثة أدت ، ليس الى تغيـــير مجرى التاريخ في جرش وحدها ، بل الى تغييره بالنسبة الى جميع اقطار الشرق الادنى .. ففي ذلك العام فرغ بومبي من افتتاح الجانب الاعظم من المنطقة ، وابتدأ بتقسيمها الى مقاطعات لتسهيل شؤون الادارة ، ونتيجة لهذا التقسيم أُلحقت جرش والاراضي التابعة لها بالمقاطعة السورية .

كانت هذه الحادثة نقطة التحول في تاريخ جرش ، وقد اعتبرتها المدينة في تقويمهـــا كذلك ، لانها بقيت تسجل جميع التواريخ بحسب تقويم عهد بومبي حتى الايام الاخيرة من حياتها ، باعتبار انها مركز امامي للحضارة الغربية . وكانت المدن في ظـــل الادارة الهيللينية تتمتع ببعض مزايا الحكم الذاتي ، وظلت هذه السياسة الحكيمة متبعة في ظل الادارة الجديدة . ولقد تمتعت جرش بهذه الحقوق ، وفي اوائل العهد الروماني من تاريخهـــا دخلت في حلف المدن الحرة المعروف باسم حلف الديكا بوليس . وربما كانت اعظم الفوائد التي منحهـــا الحكم الروماني للمقاطعات والمستعمرات الرومانية انه وطد فيها درجة من الامن لم يعرفهـــا الشرق الاوسط من قبل (١) . اما تأثير هذا الامن على جرش — والامن هـــو ضرورة حيوية للنمو والتطوير في كل مكان — فقد كان في ازدهار الزراعة والتجارة ازدهارا عظيما

(١) Paxromana — السلم ضمن نطاق الامبراطورية الرومانية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حتى ان الناس اخذوا يجدون وقتا للاهتمام بالفنون التي تزدهر في ايام السلم . واخذت جرش تتبادل الاعمال التجارية الناجحة مع الانباط خلال القرن الاول ق . م ، والقرن الاول ب.م وقد عثر فيها على نقود كثيرة من نقود الملك الحارث الرابع . ولقد سبق للنفوذ النبطي ان لعب دورا في تطوير جرش ، فالحجارة المنحوتة على طراز « خطوة الغراب » تدل على ان طراز الهندسة المعمارية عند الانباط كان معروفا ومستعملا فيها . وهناك كتابة مزدوجة باللغتين النبطية واليونانية ، ولكنها لسوء الحظ تكاد تكون غير مقروءة ، ومع ذلك هناك آخرون يذكرون هيكلا باسم « الرب المقدس بكيدس » وكذلك « الاله العربي ». ونستنتج من هذا ان الاشارة الاخيرة تتجه الى « ذو الشرى » وهو المعبود الاكبر عند الانباط. ومما له دلالة ان الكتابة التي تشير الى ذلك المعبود والحجارة المنحوتة على شكل خطوة الغراب ، تم العثور عليها في مكان واحد قرب الكاتدرائية وساحة البركة . وهناك بقايا هيكل قديم تحت الكاتدرائية ، يرجح بأنه كان هيكل الاله العربي الذي قيل فيما بعد انه هيكل ديونيسيوس.

لا بد ان الادارة الحكيمة الامينة وفرت للمدينة إمكانات جمع ثروة كبيرة خلال هذه الفترة ، لاننا نجد اهالها في القرن الاول ب . م . يباشرون العمل في برنامج إعمار يكاد يكون شاملا . ولقد تم وضع مخطط جامع للمدينة ، يتألف محوره حسب التصميم التقليدي للرومان : من شارع رئيسي تحيط الاعمدة بجانبيه ويتقاطع مع شارعين آخرين ، بحيث تتحكم هذه الشوارع في وضع كل شيء آخر في المدينة . ومن الواضح انه لم تدخل على هذا المخطط اية تعديلات مهمة طوال حياة المدينة . وهناك كتابة على البوابة الشمالية الغربية في نهاية الشارع الشمالي ، تنبئنا ان السور المحيط بالمدينة تم انشاؤه في العامين ٧٥ – ٧٦ ب.م . وهكذا وضع السور حداً للمساحة التي يمكن ان تنتشر فيها الابنية . وحوالي السنة ٢٢–٢٣ ب.م . بدأ العمل في انشاء هيكل جديد للاله زفس ، وكان هذا الهيكل ما يزال في طور البناء سنة ٦٩ – ٧٠ ب.م. وكان المواطنون الأثرياء يساهمون في نفقات الابنية ، ويظهر انهم كانوا يشعرون بالفخر اذ يساهمون في تجميل مدينتهم . وفي نفس الوقت كان العمل يجري في المدرج الجنوبي الى جانب هذا الهيكل ، كما كان يجري العمل في تحسين هيكل ارتميس وتجميله بانشاء رواق وبركة ، وفي مكان آخر غير معروف أنشيء ايضا مزار للامبراطور طيبا ريوس . وفي هذه الفترة احيط الشارع الرئيسي باعمدة على الطراز الايوني ، وهي اعمدة ما تزال قائمة في ساحة الندوة ، وعلى امتداد الشارع شمالي المصلّبة الشمالية . والواقع ان المدينة كلها كانت كخلية النحل حافلة بالحركة والنشاط ، وقد بلغت درجة من الثراء لم تعرفها من قبل او من بعد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم يستمر هذا النشاط الواسع خلال القرن الثاني فحسب ، بل انه ازداد زيادة ملحوظه بعد ان مدّ الامبراطور تراجان رقعة الامبراطورية الرومانية واخضع مملكة الانبـاط سنة ١٠٦ ب . م . وانشأ سلسلة ممتازة من الطرق في جميع المقاطعات . وازدادت تجارة جرش شيئا فشيئا وتبع ذلك ازدياد ثروتها ، حتى ان عدداً من الابنية العامة الكبيرة الـتي كانت تعتبر من الطراز الاول في القرن السابق — جرى هدمها لكي تحل محلها منشئات اكثر فخامة وزخرفة وتنسيقا . وكانت البوابة الشمالية احدى هذه المنشئات الجديدة ، اذ أُعيد بناؤهـا على تصميم جديد لكي تمر بها طريق تراجان عام ١١٥ ب . م . وفي هذا العهد ايضاً اخذت المدينة تشهد عددا من الاحتفالات العامة في مواعيدها السنوية ، ومن جملتهـا احتفالات المصارعة والقوى وغيرها . وتنبئنا بعض الكتابات عن اريحية رجل كريم هو تيتوس فلافيوس كيرينا الذي اقام المآدب للمنتصرين والمهزومين على حد سواء . اما الحـمامات فقد كانت ظاهرة اساسية في حياة الرومان ، اذ لم يكن اي روماني سليم العقل يتصور ان الحياة جديرة بان يعيشها المرء دون حمامات ، ولو للحظة واحدة . وهكذا كانت جرش تملك حمامين احدهما واسع وضخم الى الجانب الشرقي من جدول الماء ، والثاني اقل ضخامة الى الجانب الغربي. اما مهام هذه المؤسسات فقد كانت اوسع بكثير مما نعرفه عن الحمام التركي العادي، اذا كانت تمثل حياة النوادي الخاصة في ذلك العهد ، وكثيراً ما كانت تستعمـل من اجل خنق قريب غير مرغوب فيه بواسطة البخار ، كما كان الوجهاء الطامحون او الاغنيـاء يقيمون فيها الحفلات البهيجة .

وهكذا ، فان القرن الثاني بعد الميلاد شهد العصر الذهبي لمدينة جرش ، لان اكـثر الابنية العظيمة التي نعجب بها اليوم شيدت اثناءه . وقام الامبراطور هدريان بزيارة المدينة زيارة شخصية وقضى فيها جانبا من فصل الشتاء سنة ١٢٩ — ١٣٠ ، وكانت زيارته ايذانا ببدء حركة جديدة من النشاط العمراني . وقد شيد قوس النصر تخليداً لهذه المناسبة المهمة . ويبدو ان النية كانت تتجه الى توسيع مساحة المدينة حتى موقع القوس ، لان طرفي الجدار تركا ناتئين مشرشرين كأنما يقصد بذلك التحام جدار اخر بذينك الطرفين. ولكن يبدو ان زعماء المدينة كان لديهم من الاعمـال ما يكفي ، لان المشروع اهمل بعد رحيل هدريان وعـدم الاهتمام ينصب على منتصف المدينة . وها هنا كان العمل قد بدأ في برنامج للتوسع والبناء، وهو برنامج كان يشمل فيما يشمل تعريض الشارع الرئيسي من ساحة الندوة الى هيكـل ارتميس ، وكذلك استبدال الاعمدة ذات الطراز الايوني باعمدة اضخم وافضل على الطراز

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكورنثي . وقد تم جلب اعمدة المرمر من اسيا الصغرى واعمدة الجرانيت من اسوان، زيادة في الابهة والفخامه . وهدمت الهياكل ، ثم اعيد بناؤها لتكون اكثر ضخامة وروعة ، ومن جملتها هيكل الاهة المدينة : ارتميس . وهذا البناء الجديد الذي انشئت له بوابة فخيمة ومدخل طويل — منح اسم ارتميس سنة ١٥٠ ؛ اما هيكل زيوس فقد اعيد بناؤه مرة اخرى وتم تدشينه حوالي سنة ١٦٣ كما دشن سبيل الحوريات سنة ١٩١ . وقد شيد ايضاً هيكل نمسيس في محاذاة البوابة الشماليه من الخارج ، ولكن لم يبق منه اي اثر حتى الان . وانشيء هيكل اخر على مسافة ابعد في الوادي ، ودشن باسم زيوس ابيكاريوس ، وقد بناه قائد مئة . وتسجل لنا كتابات تلك الفترة قيام المواطنين بانشاء المحاريب وقواعد الاعمدة والتماثيل والشواهد ، وبعض الابنية الاخرى التي لا نستطيع التعرف عليها الان . كما ان كتابات اخرى تدل على وجود كثيرين من الكهنة الذين كانوا من اشياع مذهب عبادة الاباطرة الاحياء ، وانه كان هنالك معابد باسم (زيوس هليوس سيرابيس) و (زيوس بوسيدون) و (ايزيس) و (ابو لاو) و (ديانا) . وتحتفظ لنا نصوص اخرى باسماء عدد من حكام المقاطعات والجباة وموظفين اخرين ، وهناك اشارة الى وجود جنود من فيلق ليبيا الثالث ، ومحام من فيلق (جمينا) العاشر .

ان المصدر الرئيسي للمياه الذي كانت تستقي منه المدينة هو النبع الذي يتفجر داخل الاسوار والذي يعرف الان باسم عين القيروان ، وهو نبع ماء قوي لا تنقطع مياهه ، ونادرا ما تهبط دون المستوى العادي . ولكن لما كانت هذه العين تتفجر في قاع الوادي ، فان مستواها كان منخفضا عن مستوى القسم الغربي من المدينة حيث توجد الهياكل الكبيرة ونوافير الماء . وهكذا جيء بالماء بواسطة قناة من نبع البركتين الذي يقع على بعد حوالي كيلو متر في الوادي الى الشمال ، ويرتفع مستواه ارتفاعاً لا بأس به فوق مستوى نبع القيروان . ويظهر ان مياه نبع البركتين كانت كافية لسد حاجات الجانب الغربي من المدينة على الاقل ، مع ان المرء لا يستطيع الاقتناع بأن الماء الذي يتفجر من هذا النبع حالياً يمكن ان يكون كافيا .

بلغت المدينة قمة تطورها وثرائها في اوائل القرن الثالث ، عندما جرى ترقيتها الى مرتبة «مستعمرة» ، وهكذا بقيت بارزة على هذه الهضبة الحالمة بضع عشرات من السنين ؛ ولكن سرعان ما بدأت مرحلة الانحدار التدريجي ، ورغم مجيء فترات قصيرة مؤقتة من الازدهار ، فان العصر الذهبي فات وانقضى . ولقد كان هذا الانحدار التدريجي ذا علاقة وثيقة بمقدرات الامبراطورية الرومانية . وهكذا توقف النشاط العمراني ، مع اننا لا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نستطيع ان نجزم فيما اذا كان التوقف حدث فجأة او بصورة تدريجيـــة ، ولكن توجد لدينا زخارف ومنحوتات أُهملت قبل ان تستكمل جميع مراحلها . وفي نهايـــة القرن الثالث نجد قطعا منحوتة من الحجر يجري استعمالها في البناء مرة ثانية، وهذه ظاهرة تتسم بطابع التقهقر والانحطاط دائما .

كان من نتائج خراب تدمر في الشمال وتوسّع مملكة الساسانيين في العراق ان توقفت تجارة جرش على نطاقها الواسع ، وأُهملت طرق التجارة في الصحراء ، وتحولت طرق نقل البضائع الى البحر . ولا بد ان المدن الواقعة على الاطراف الشرقية للامبراطوريـــة الرومانية مثل جرش ، شعرت بنتائج هذه التطورات الخطيرة حال حدوثهـــا . اضف الى ذلك ان ضعف السلطة الرومانية دفع قبائل البادية التي تميل بغريزتها القديمة الى السلب والنهب ، الى القيام بنشاطاتها المعهودة فأصبح الامن مضطربا . ولكن الامبراطور ديوكليتيان هزم الساسانيين (حوالي سنة ٣٠٠ ب م) مما ادى الى مباشرة بعض اعمال البناء في جرش خلال فترة قصيرة من الزمن . ويعود الى هذه الفـــترة انشاء ساحة السوق (PLAZA) المستديرة والدكاكين المحيطة بالمصلّبة الجنوبية . وعلى اية حال ، فان نوعية البناء لم تكن من الطراز الرفيع ، ولكنها لم تكن من الرداءة بما يوازي رداءة بعض ابنية العهد البيزنطي الاخير . وقد حفرت كتابات كثيرة من كتابات هذه الفترة على صفحات قواعد او اعمدة قديمة ، بل ان بعضها تم حفره فوق كتابات قديمة كانت مطموسة جزئيا .

وفي منتصف القرن الرابع ، كانت قد نشأت في جرش طائفة كبيرة من المسيحيين ، وكانت الكاتدرائية وساحة البركة(Fountain Court) قد صارتا رهن الاستعمال : ويذكر الكاتب ابيفانيوس — وهو من كتاب القرن الرابع — ان بعض معاصريه شربوا من نافورة جرش التي كانت مياهها تتحول الى خمر كل سنة يوم الاحتفال بذكرى اعجوبة قانا الجليل: ولكننا لا نستطيع ان نستخلص من آثار جرش ذاتها سوى القليل من المعلومات الخاصة بهذا القرن . فالكتابات مفقودة ، والاشارة الخارجية الوحيدة تنبئنا ان المطران اكسرسيوس مثّل مسيحيي جرش في مجمع سلوقية سنة ٣٥٩ ، كما ان المطران بلاكوس مثّلهم في مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ ، ولا بد ان المسيحية كانت قد اصبحت في ذلك الوقت الديانة السائدة في المدينة . واثناء السنوات ٤٤٠ — ٤٤٣ اجريت بعض الترميمات في تحصينات المدينـــة ، كما شيدت كنيسة الانبياء والرسل والشهداء اثناء عامي ٤٥٤ — ٤٥٥ ، وكنيسة القديس ثيودور اثناء السنوات ٤٦٤ — ٤٦٦ عندما اعيد بناء ساحة البركة على نمط جديد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي عهد جوستنيان (٥٢٧–٥٦٥ ب.م) ازداد الرخاء في المدينة وانشيء ما لا يقل عن سبع كنائس . وتذكر لنا الكتابات انه تم تشييد ابنية عامة اخرى دون تفاصيل عن طبيعتها، وتجدد الاحتفال سنة ٥٣٥ بعيد وثني للمياه باسم (مايوماس) . ولقد اجريت حفريات في اكثر هذه الكنائس . ونحن نستطيع ان نكوّن فكرة طيبة عن الحياة في ذلك العهد نتيجة للاشياء التي تم اكتشافها . ومن الواضح ان السكان كانوا يستمتعون بشيء من الرخاء، ولكنه رخاء لا يمكن مقارنته بالحياة المزدهرة الرغيدة التي عرفتها جرش سابقا. كان المهم في الامر هو المحافظة على المظاهر ، اما الجمال فقد كان سطحيا جدا . ولقد كان المرمر اللامع والفسيفساء ذات الالوان الزجاجية البراقة التي تغشى جدران الكنائس ، تخفي وراءها طرازا من البناء يصعب ان نتصور ما هو اكثر رداءة منه . ولما كانت الكنائس في هذا العهد هي المحور الرئيسي للحياة ، فانها بطبيعة الحال تعكس طراز تلك الحياة . وكانت النساء ذوات الملابس الزاهية يزدحمن في المتاجر ويترددن على الكنائس ، وكانت الحلى التي كن يتزيّن بها تبدو كأنها قلائد ثمينة واقراط ذهبية ، ولكن عند فحصها بدقة كان يتبين انها لم تكن سوى قلائد من الزجاج واقراط من البرونز المطلي بطبقة رقيقة من الذهب . ومع ذلك كانت المظاهر على شيء من الرونق والجمال ، ولم تكن الحياة كئيبة او عسيرة . وقد كانت هناك حمامات انشأها المطران بلاكوس في محاذاة كنيسة القديس ثيودور ، لكي يستعملها افراد الطائفة ، وربما كانت هذه الحمامات اول مثال على ان «النظافة من الايمان». وكان للمرتّلين ناد في مواجهة الكنيسة لا يفصل بينها وبينه الا الطريق ، اما رجال الكهنوت فقد كانوا يقيمون في مساكن واسعة مريحة الى جانب ساحة الكنيسة .

على ان كل هذا الجمال الخارجي وكل وسائل الراحة – امكن تحقيقها فقط على حساب الابنية التي انشئت سابقا وخاصة الهياكل. ولا بد ان حملة محمومة من حملات التخريب تناولت المعابد الوثنية ، ويبدو كأن اولئك الذين انشأوا الكنائس لم يقتطعوا حجرا جديدا واحدا بل انصرفوا الى استعمال الحجارة التي تحتها الناس الذين سبقوهم ، حتى ان الفناء الجميل الذي كان امام هيكل ارتميس ، انشيء فيه مصنع للفخار .

وفيما نعلم ، فان المطران جنيسيوس أنشأ آخر كنيسة في جرش سنة ٦١١ ب . م. ثم كانت بداية النهاية في حدوث الغزو الفارسي سنة ٦١٤ب .م. والأثر الوحيد الذي بقي حتى اليوم ، من آثار ذلك الغزو – هو أعمدة الاهداف في ملعب الخيل (Hippodrome) الذي تحول الى ملعب لممارسة لعبة البولو (الصولجان) . وفي عام ٦٣٦ وقع الفتح الاسلامي. وبعد ذلك ، وقعت سلسلة من الزلازل العنيفة وعلى الاخص الزلزال الذي حدث سنة ٧٤٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فتهدمت اكثر الكنائس والابنية ، واذ لم يكن هناك من يجدد بناءها ، فقد بقيت على حالها . وتعطينا كنيسة القديس ثيودور مثالا ممتازا على ذلك . ومهما يكن من امر فان تقلص المدينة وهجرة الاهلين منها حدثا بالتدريج ، لان بعض الكنائس كانت ما تزال قيد الاستعمال سنة ٧٢٠ للميلاد .

يكاد هذا يكون آخر ما نعلم عن جرش . ونرى من الحفريات ان منطقة ساحة الندوة والمصلّبة الجنوبية ، كانتا ما تزالان مأهولتين في اواخر القرن الثامن. ولكن الاشارة الاخيرة التي نعرف عنها كتبت في القرن الثامن عشر . ذلك ان فارسا من فرسان الصليبيين هو (وليم الصوري) يذكر ان (جرش) كانت مأهولة بالسكان منذ أمد طويل . وفي هذه الاثناء وضع اتابك دمشق فيها حامية مؤلفة من اربعين رجلا ، وقد قام هؤلاء بتحويل هيكل ارتميس الى قلعة . وخلال السنوات ١١١٨ — ١١٣١ استولى عليها بلدوين الثاني ملك القدس الصليبي ودمّر الهيكل تدميرا تاما. وتظهر بوضوح على واجهات الجدران الداخلية للهيكل — آثار الحرق الذي يبدو انه الوسيلة التي اتبعها بلدوين في تدميره . اما ياقوت ، الجغرافي العربي الذي عاش في القرن الثالث عشر ، فيقول ان بعض الناس وصفوا جرش له بأنها حقل من الخرائب التي لا يقيم فيها احد من الناس .

وهكذا بقيت جرش على حالتها تلك حتى ارسل اليها الترك جالية من الشراكسة عام ١٨٧٨ . وحتى هذا اليوم نرى العرب ، حتى اولئك الذين يقيمون في جنوب فلسطين ، اذا ارادوا ان يتحدثوا عن مكان شديد الخراب ، قالوا : انه يشبه خرائب جرش !.

الآثـــار :

يرى المرء اول ما يرى ، عندما يقبل على جرش ، قوس النصر ذات البوابات الثلاث التي ما تزال قائمة حتى منتصف ارتفاعها الاساسي تقريبا . وتبلغ القوس الوسطى ٣٩ قدما في الارتفاع و ٢١ قدما في العرض و ٢٢ قدما في العمق ، بينما يبلغ عرض الاقواس الثلاث ٨٥ قدمـــا . وكـــانت قوس النصر هـــذه بمثابة بوابة شرف تقـــوم على موازاة البوابة الجنوبية التي هي المدخل الرئيسي للمدينة. ولم تكن هذه القوس تفتح الا لدخول الشخصيات البارزة التي يرغب زعماء المدينة ان يرحبوا بها ترحيبا خاصا . وتحمل قواعد الاعمدة البارزة في جدار الواجهة من الجانبين نقوشا تمثل اكاليل من اوراق الخرشوف ، وهي ظاهرة غير عادية نراها تتكرر في البوابة الجنوبية . اما الساحة الكبيرة الواقعة الى الغرب وراء القوس فهي ملعب للخيل طرفه الشمالي شبه مستدير . وكان هذا الملعب ذات يوم محاطا بصفوف من المقاعد في جميع جوانبه عدا الجانب الجنوبي ، وما يزال صفان او ثلاثة من المقاعد قائما في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مكانه في الجانب الغربي . وفي وقت لاحق – تقلصت مساحة الملعب بعد ان اضيف اليه طرف آخر شبه دائري في منتصف طوله . وتمر الطريق المتجهة الى الآثار حاليا من جانبه .

ولقد كانت البوابة الجنوبية ذات ثلاث اقواس ، مثلها مثل قوس النصر ، ولكنها اصغر حجما بكثير ، وكانت قد اصيبت بالدمار واجريت فيها حفريات جزئية في الجانب الغربي . وفي هذه الحفريات يمكن مشاهدة باب غرفة حارس البوابة ، وفي كلا الجانبين برج من ابراج سور المدينه . والى جانب هذه البوابة مكتب محافظ الآثار الحالي حيث تباع تذاكر الدخول .

نحن الآن في مدخل المدينة نفسها ، وعلينا ان نتذكر بضع نقاط عندما نتطلع بأبصارنا نحو الآثار ، وهي نقاط يمكن ان تساعدنا على تكوين فكرة واضحة عنها : فالهياكل كلها كانت مسقوفة بالقرميد الاحمر ، ورؤوس الاعمدة المنحوتة نحتا دقيقا وكذلك السواكف(١) كانت كلها مدهونة بالالوان المشرقة من حمراء وزرقاء وخضراء وصفراء ، بينما كانت الابنية الرئيسية تزدان بعدد كبير من تماثيل المرمر . ولا شك ان اشياء اخرى سوف تخطر للذهن المتسائل ، ولكن النقاط التي سبق ذكرها تكفي لاعطاء انطباع عام . ولقد كانت جميع المواد اللازمة للبناء متوافرة محليا على اختلاف انواعها ، مع ان اعمدة الجرانيت وكتل المرمر المنشورة بالمناشير كانت تستورد من الخارج زيادة في التجميل والتفخيم .

نعبر من البوابة الجنوبية مباشرة الى ساحة الندوة وهي مبلطة في اطرافها الخارجية بالواح كبيرة من الحجر القاسي ، مثلها في ذلك مثل الشارع الرئيسي ، اما الوسط فمبلط بالواح حجرية اصغر او اقل صلابة . والساحة ذات شكل غريب حقاً ، لا يتفق مع اي تخطيط هندسي معروف . ومن الواضح انها انشئت على هذا النسق الغريب لسبب لا نعلم عنه شيئاً ، مع ان الطريق الى هيكل زيوس لا بد ان تكون احدى الاسباب التي تركت اثراً في التصميم . ويبلغ عمق جدار الاساس التي تقف عليه الاعمدة الشرقية ما يزيد على ٣٦ قدماً في الطرف الجنوبي . اما تيجان الاعمدة فمن الطراز الايوني ، بينما نرى احد تيجان الاعمدة في الشارع الرئيسي من الطراز الكورنثي ، ونجد الطراز الايوني مرة اخرى في الشارع الرئيسي الى الشمال من بوابة ارتميس . ويلاحظ ان العمودين القائمين في الطرف الشمالي من صف الاعمدة الشرقي ، اقرب الى بعضهما البعض مما هي عليه الاعمدة الاخرى ، وسبب ذلك انهما نقلا من مواضعهما الاساسية لافساح المجال لاقامة قوس فوق مدخل الشارع الرئيسي عندما جرى تعريضه . ونستدل من هذا

(١) جمع ساكف وهو اعلى الباب الذي يقابل الخشبة التي يوطأ عليها .

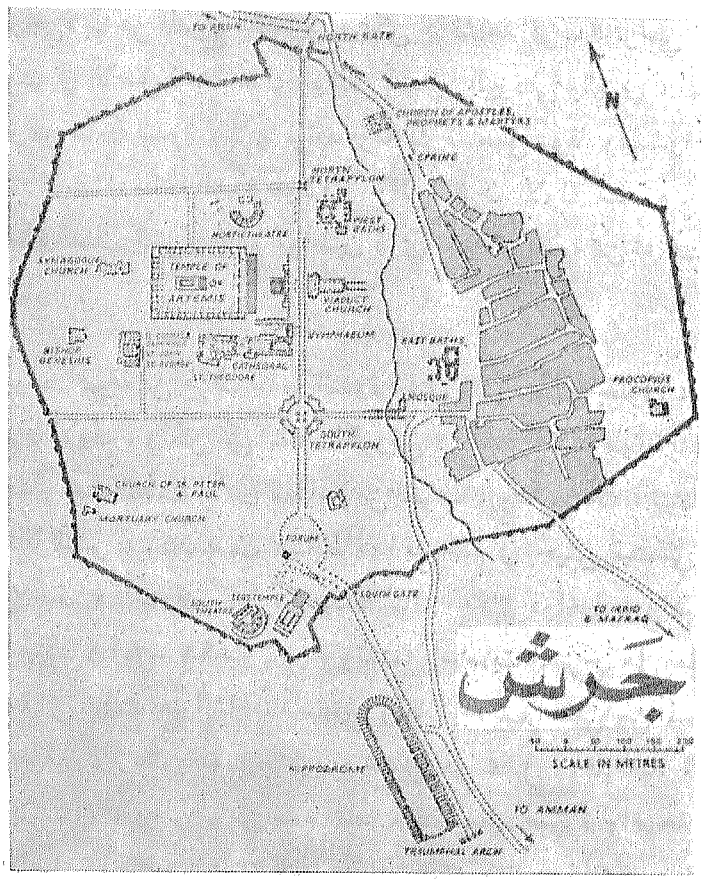

« مخطط مدينة جرش التاريخيـــة »

وتبدو في الحدود التي كانت تقوم عليها اثناء عمرانها ، ويلاحظ فيها بوضوح ، مدخل المدينة من (باب عمان) ، كما يلاحظ فيها (شارع الاعمدة) ، والساحة الكبرى ، التي كانت تقوم في وسط المدينة ، ثم بقية المعالم التاريخية الأخرى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالاضافة الى رؤوس الاعمدة الايونية ، ان ساحة الندوة انشئت في تـــاريخ سابق لتاريخ انشاء الشارع الرئيسي ، اما التنوعات البارزة التي نراها في حجارة الاعمدة ، فالقصد ان تمسك بها الحبال عند رفعها الى مواضعها . على أننا لا نعلم الهدف من وجـــود الكراسي الحجرية في الوسط ، وقد عثر عليها مبنية في جدار انشيء في تاريخ متأخر قريباً مـــن موقعها الحالي ، وربما جيء بها من المدرج الجنوبي . ويمكن ان نشاهد قرب الكراسي بقايا قاعدة مربعة ربما كانت في الاصل قاعدة تمثال . واثناء العهدين البيزنطي والعربي ، انشئت منازل صغيرة فوق ارض ساحة الندوة ، لانها لم تعد يومذاك تستعمل سوقا ونـــدوة للاجتماعات العامة . ويحتمل ان انشاء ساحة الندوة يعود الى اوائل القرن الاول ب . م . وقد نحتت على بعض اعمدة الصف الشرقي اسماء مواطنين ذوي غيرة وحمية ممن تبرعـــوا بأموالهم للمساهمة في انشائها .

تؤدي درب ضيقة من طرف ساحة الندوة الجنوبي الى المدرج الجنوبي ، الذي انشيء ايضاً خلال القرن الاول ، ولكن على النمط الكورنثي . وهناك كتابة طويلة باللغة اليونانية على صفحة الجدار تحت الصف الأدنى للمقاعد من الغرب ، وهذه الكتابة تنبئنا عن صف ضابط قدّم تمثالا للنصر ، وكان صف الضابط هذا قد خدم في جيش نبطـــي اثناء الثورة اليهودية سنة ٧٠ ب . م . ، وقد كان ثمن هذا التمثال ٣٠٠٠ دراخما ، ونصب في عهد الامبراطور دوميتيان (٨١ — ٩٦ ب . م) . وتشتمل اساسات المسرح على بعض حجارة الاعمدة الغشيمة التي تبقت بعد انشاء بناء سابق . وكان الجانب الخلفي من المسرح يتألف في الاصل من طابقين ويزدان باعمدة ومحاريب تحتوي على تماثيل . وقد اعيد الآن بنـــاؤه حتى بداية الطابق الثاني ، وبالرغم عن عدم اتمامه ، فانه يعطي صورة واضحة للحالة التي كان عليها في الاصل . وكان هنالك ٣٢ صفا من المقاعد تتسع الى ٤٠٠٠ او ٥٠٠٠ متفرج ، وتحمل صفوف المقاعد التحتانية ارقاماً مما يدل على انها كانت تحجز لاشخاص معينين .

يقع هيكل زيوس في محاذاة المدرج من الجهة الجنوبية ، وقد تم انشاء البناء الحالي في اواخر القرن الثاني ب . م . (١٦١ — ١٦٦) ولكن يبـــدو ان الموقع كـــان يعتبر موقعاً مقدساً منذ القديم . وفي الاصل كانت الاعمدة تقف حول محيط البناء الرئيسي ، ولكن هذه الاعمدة — عدا واحد منها — تهاوت بفعل الزلازل الارضية ، وانك لترى اثنين منها في الجهة الشمالية مطروحين على الارض باكملهما من القاعدة حتى الرأس . وكانت الطريق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الموصلة بين الهيكل وساحة الندوة تتألف من عدد كبير من الدرج لم تبق منه حتى اليوم درجة واحدة . وهناك ظاهرة جديرة بالاهتمام الا وهي تلك الانبية الضخمة التي انشئت لرفع مستوى ساحة الهيكل ولكي تمر الدرجات فوقها . ويمكن مشاهدة احد هذه الاقبية وطوله حوالي ١٠٠ قدم ، عند التلعة المنخفضة القريبة من الطريق ، امـا الاقبية الاخرى فتستعمل مخازن للوازم والادوات .

نعود الآن الى ساحة الندوة ، ونشرع بالسير في شارع الاعمدة الرئيسي الذي يمتد مع امتداد المدينة كلها من ساحة الندوة حتى البوابة الشمالية ، على مسافة حوالي ٦٠٠ متراً . ولقد انشيء الشارع الاساسي خلال الفترة ٣٩ — ٧٦ ب . م . على الطراز الايوني . اما الطراز الكورنثي الذي يظهر مع امتداد الشارع حتى بوابة ارتميس فيدل على توسيع الشارع وتجديد بنائه في النصف الاخير من القرن الثاني . وانك لترى كثيراً من القواعد المربعة للاعمدة لم يتم نحتها ، وخاصة تلك الاعمدة القائمة الى اليسار بعد مغادرة ساحة الندوه ، كما ان بعض الاعمدة الضخمة تختلف فى ارتفاعها مما اقتضى تعديل السواكف. ويمكن ملاحظة هذا الاختلاف ايضاً في الاعمدة التي سبقت الاشارة اليها . ومما هو جدير بالملاحظة ان الاعمدة التي كانت تقام امام الابنية العامة الضخمة — كانت ترتفع حتى توازي الواجهة في ارتفاعها . ويمكن مشاهدة هذا من الاعمدة القائمة امام سبيل الحوريات ومدخل هيكل ارتميس . وما يزال الشارع يحتفظ بالحجارة المنبسطة التي تم تبليطه بها على طول امتداده ، ويمكن للمرء ان يرى بوضوح آثار عجلات العربات في بعض الاماكن ، وخاصة قرب المصلّبة الجنوبية. ومن المرجح ان رصيف المرور الجانبي المرتفع ، بين الاعمدة والدكاكين ، كان مسقوفاً على نحو ما . وكان يتخلل الارض التي يمر عليها الشارع في المنتصف ، مصرف ماء واسع ، تنتظمه فتحات على مسافات متساوية ، وكانت لهذه الفتحات اغطية ذات حلقات حديدية مثبتة بالرصاص ، على ان القرويين كانو يعمدون الى بتر هذا الرصاص لاستعماله في بنادقهم القديمة (الموزر) .

ولقد كان الشارع يشتمل على عدد من الصهاريج والنوافير ، وأعظمها سبيل الحوريات. ويمكن مشاهدة الثقوب في الخرزة كي تنزل مياه الامطار بواسطتها الى المصرف الرئيسي . وفي وسط المصلبة الجنوبية يلتقي مصرف الشارع الرئيسي مع مصرف الشارع الفرعي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنشئت مصلّبتان على تقاطع الشارع الرئيسي مع الشارعين الفرعيين، وتتألف المصلبة الجنوبية من اربع قواعد مربعة تحمل كل منها اربعة أعمدة فوقها هرم مدرج، ويرجّح ان تمثالا كان يرتفع فوق ذلك الهرم. وقد أعيد بناء القاعدة الجنوبية الشرقية حتى مواطيء الاعمدة، ولكن الكتابة على الواجهة الجنوبية هي كتابة بيزنطية، أضيفت فيما بعد. اما الدكاكين وساحة السوق التي تحيط بها، فقد أنشئت في أواخر القرن الثالث او اوائل القرن الرابع، ولكننا لا نملك اي دليل عن التاريخ الذي انشئت فيه المصلبة. اما الشارع المتقاطع فيسير غربا حتى يبلغ بوابة السور، ويسير شرقا بانحدار حتى يصل الى جسر كان يقوم في منتصف الوادي.

واذا واصلنا السير في الشارع الرئيسي، فاننا نبلغ بعد ذلك البوابة وطريق الدرج المؤدي الى الكاتدرائية والذي تحيط الدكاكين بجانبيه. ولكن هذه البوابة هي في الواقع بوابة هيكل كان هنالك سابقا، وتبدو تحت الدرج بقايا ذلك الهيكل. وفي محاذاة هذه البوابة يقوم سبيل الحوريات الذي تم انشاؤه سنة ١٩١ ب.م. وكان يعتبر هيكلا للعذارى (Nymphs) التي تقيم عادة في الماء، كما كان في الوقت نفسه السبيل المزخرف الرئيسي للحصول على الماء في المدينة. وقد انشيء هذا السبيل في طابقين كان الاول منهما مغشى بالمرمر، اما الطابق الثاني فقد كان مغشى بالجبس والدهان. وفي الجانب العلوي من المحراب الذي يقع الى اليسار، يمكن للمرء ان يشاهد بقايا هذا الدهان الذي يبدو كمثلثات خضراء وبرتقالية. وكانت تعلو السطح قبة نصفية ولكن لم يبق سوى قطع صغيرة من التراب البركاني الذي كان مادة البناء. اما في محاريب الطابق الاول فقد كانت تنتصب تماثيل يحتمل انها كانت تمسك آنية لكي يتدفق الماء منها في الحوض الكبير الموجود تحتها، وما نزال حتى اليوم نرى ثقوب أقنية الماء. اما الماء الزائد في الحوض: فقد كان يتدفق من رؤوس أسود هناك الى المجاري في رصيف المرور الجنوبي، وما يزال احد هذه المصارف مزدانا برسوم سمك الدلفين. وقد انشيء في وقت لاحق حوض حجري ضخم في منتصف الرصيف، مع اننا لا نعرف الغاية من انشائه الا اذا أريد به أن يشغل فراغاً ما. ولا شك ان الزخارف المنحوتة في هذا البناء هي أجمل ما في جرش كلها من نوعها. وتقوم في محاذاة سبيل الحوريات دكاكين أخرى يزدان احدها بواجهة ذات عمودين.

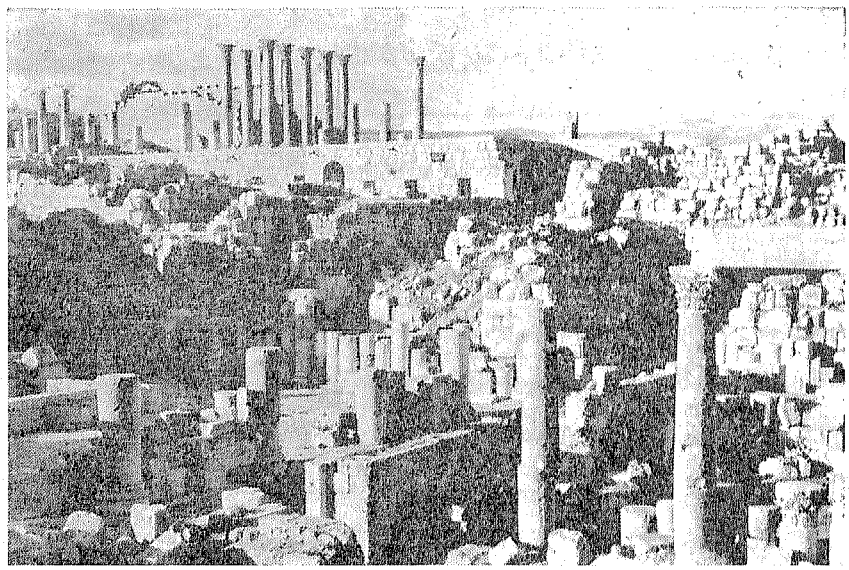

آثار جرش : وتبدو في أعلى الصورة أعمدة هيكل (ارتميس) ، التي ما زالت تحدث الاجيال عن عظمة (مدينة جرش) الخالدة .

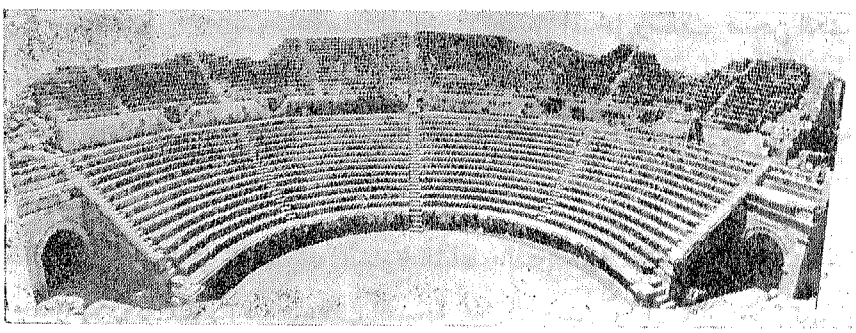

جانب من المدرّج الجنوبي في جرش : وهو احد مدرجين كبيرين ، كانت تشتمل عليهما المدينة ، ويقوم الثاني في الجانب الشمالي منها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم نأتي الى بناء من اضخم الابنية في جرش واكثرها جلالا ، الا وهو هيكل ارتميس ومدخله الفخم التي كانت الالهة الراعية للمدينة ، لذلك جاء هيكلها اكثر فخامة واعظم مظهرا من سواه . انه ما يزال واقفا بجلال فوق كل ما حواليه من آثار ، وامامه تقف اعمدته الضخمة المتناسقة في ضخامتها مع الهيكل التي بقيت صامدة رغم الزلازل العديدة . ولكن الهيكل نفسه ليس الا بناء يتوسط مخططا عظيما واسعا من الباحات والبوابات التذكارية والممرات المدرّجة . وهذا كله يعود الى منتصف القرن الثاني ب م . حيث تم الفراغ من المدخل سنة ١٥٠ ب م . وكانت بداية ذلك المخطط في الجانب الشرقي من جدول الماء حيث كانت تقطع الوادي طريق منحدرة فوق جسر لم يبق شيء منه حتى اليوم ، رغم ان رحالة عبر به خلال القرن الماضي وشاهد جانبا منه وقام بتصويره . وليست الكنيسة التي ندعوها اليوم باسم كنيسة الجسر (Viaduct) سوى امتداد لهذه الطريق ، التي كانت تتخللها بوابة مثلثة كانت قائمة في موضع صدر الكنيسة الحالي . وقد استعملت حجارة اقواس البوابة في بناء صدر الكنيسة هذا ، ويمكن مشاهدتها ملقاة بين بقايا الاعمدة الخارجية للقوس . وهذه الكنيسة هي الوحيدة من نوعها — فيما نعرف — التي تتوغل متطفلة في بناء كلاسيكي . وعلى ارضية الفسيفساء للغرفة المستديرة في الجانب الشمالي من ساحة الكنيسة نرى كتابة تعطي تاريخ : ايار سنة ٥٦٥ ، وهذه الفسيفساء ما تزال مدفونة تحت الانقاض . وفي الواقع ان الجهود الحقيقية لتحويل البناء الى كنيسة كانت بسيطة جدا ، فالاعمدة والجدران الخارجية بقي معظمها في مكانه ، بينما عمد البناؤون الى استعمال حجارة القوس المتساقطة في انشاء صدر الكنيسة . اما الارضية فقد كانت مبلطة سلفا فلم يبق الا تضييق المدخل وسقف صحن الكنيسة . وهناك ظاهرة غريبة بالنسبة الى جرش الا وهي الحوض التي كانت تحفظ فيه المياه التي تستعمل لغسل الاواني المقدسة وايدي المحتفلين ، وهو عبارة عن جرن عميق محفور في الحجر ، ومن المحتمل ان المذبح كان يقوم فوقه .

كان صحن الكنيسة في الاصل هو الشارع المبلط الذي تحيط الاعمدة بجانبه ، وخلف الصحن جدار دون نوافذ ، وقد تم سقف الفسحة بين الاعمدة والجدار حتى تغدو ممرا جانبيا . بعد ذلك نرى ساحة ذات شكل غريب تحولت فيما بعد الى رواق امام الابواب الرئيسية للكنيسة ، اما جانبها الغربي فاكثر عرضا من الشرقي ، لكي يتاح للناس ان يمتعوا انظارهم برؤية مدخل هيكل ارتميس ، ذلك لان الشارع الرئيسي كان من الضيق بحيث لا يتيح للمشاهدين ان يتملّوا من منظره البديع . وفي هذا الموضع من الشارع نرى مثالا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عجيبا مما تستطيع ان تفعله الزلازل ، اذ نرى قوسا ملقاة على الارض من الطنف العلوي ، وكل حجر من حجارتها في موضعه الطبيعي ، رغم ان الزلزال قذف بالقوس وطنفها من مسافـــة لا تقل عن ستين قدما ، ولا بدّ انها كانت في الاصل جزءا من مدخل ارتميس او من اعمدته الامامية . فاذا ما قطعنا الشارع ومررنا من البوابة الكبرى ، واجهتنـــا سلسلة من الدرج العريض تؤدي الى ساحة مشرفة . وهنا تواجه المرء واجهة البناء الذي يكتنف فناء الهيكل ، وهو عبارة عن صف من الاعمدة وراءها جدار تتخلله بوابة من الوسط . كان طول هذا الجدار في الاصل ١٢٠ مترا ، تمتد مع مسافته كلها سلسلة اخرى من الدرجات يعبر عليها الناس من الساحة المشرفة الى رواق المدخل الامامي. ولم يبق من هذه الدرجات حتى اليوم الا بقايا قليلة يمكن مشاهدتهـــا عند الطرف الجنوبي للساحة ، تلك الساحة التي يرتفع ركامها الآن بضعة امتار عما كانت عليه في الاصل .

اما فناء الهيكل نفسه فقد كان محاطا من جوانبه الاربعة بجدار وصفّ من الاعمدة ، ويبلغ طول الجدارين الشرقي والغربي ١٦١ مترا اما الشمالي والجنوبي فيبلغ ١٢٠ مترا . وكان هنالك مدخل واحـــد في كل من الجدارين الشمالي والجنوبي . وقد اقيمت غرف عديدة في الساحة الواقعة بين الرواق والجدار . وكان هنالك ممر آخر من الدرج يؤدي الى الهيكل ، ومن سوء الحظ ان هذا الممر قد زال الآن ، كما كان هنالك مذبح في الفناء على موازاة محور الهيكل. ويمكن ان نشاهد زاوية من هذا المذبح تحت الابنية البيزنطية قريبا من افران الفخار .

ومن اجل رفع مستوى فناء الهيكـــل ، فقد تم بناء قبوين كبيرين في الجانبين الشمالي والجنوبي حيث تنحدر الارض هناك . اما القبو الجنوبي فيستعمـــل الآن متحفا محليا يضم بعض الكتابات والنقوش والفسيفساء التي عثر عليها بين الخرائب .

اما هيكل ارتميس نفسه فقد اقيم فوق عدد من الاقبية لكي يزداد ارتفاعا ، وتبلغ مساحة البسطة العظيمة التي بني عليها ٤٠ مترا في الطول و٢٢ ½ في العرض و٤ ½ في الارتفاع . ويبلغ ارتفاع الاعمدة الجميلة ١٣ ¼ مترا اي ٤٤ قدما ، وكان صف منها في الاصل يكتنف الهيكل من جميع جهاته عدا المقدمة التي كانت تزدان بصفين من الاعمدة . اما الآن فلم يبق قائما منها سوى الاعمدة الامامية . وقد تزحزح بعضها عن امكنتها الطبيعية ، بل ان احدها يتمايل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عندما تشتد الريح حتى لتسمع دقاته لمسافة لا بأس بها . وهناك اربع درجات تصعد الى مدخل الهيكل المسدود حالياً ، وتتسم داخلية الهيكل بالبساطة التامة مثلها في ذلك مثل الجوانب الخارجية ، اللهم فيما عدا محاريب مستطيلة في الجدران كانت في الاصل مغشاة بالواح من الرخام .

وهناك طاقات في مداميك الحجر العليا كانت ترتكز عليها الدعائم الخشبية للسقف . أما قدس الاقداس فلم يكن سوى منصة مرتفعة تحت اقواس في الطرف الجنوبي حيث كان تمثال الالهة أرتميس . ومما هو جدير بالذكر أن الكهنة وحدهم كان يسمح لهم بدخول الهيكل ، بينما كان يتعين على المصلين والمتعبدين ان يقفوا خارجا في الفناء .

وعندما غدا الهيكل عرضة للاهمال بعد القضاء على عبادة الاوثان ، أخذ البيزنطيون ينشئون أخصاصهم وافرانهم في ساحته ، كما اخذوا ينتزعون الحجارة بين منحوتة وغير منحوتة وينقلونها لبناء الكنائس . واخيرا عمد العرب في القرن الثاني عشر الى سد الباب الرئيسي ، كما أنشأوا الجدران بين الاعمدة وحولوا الهيكل الى قلعة . ولم يلبث الصليبيون ان استولوا على الهيكل ودمروه ، ولا شك ان معظم الخراب الذي نراه اليوم حدث في ذلك العهد . ولقد اقتصرت الحفريات هنا على بضعة خنادق وحفر تجريبية ، ومع ذلك فانها تظهر مبلغ عظمة هذا الاثر النفيس فيما لو امكن ازاحة الانقاض ن ساحته يوما ما ، ولو امكن القيام ببعض الترميمات . وفي الوقت الحاضر يمكن الدخول الى بناء الهيكل من باب صغير تم قطعه في الواجهة الجنوبية عند تحويله الى قلعة .

يستطيع المرء ان يحصل على منظر ممتاز لسور المدينة اذا هو وقف عند هيكل ارتميس. وما تزال معظم اجزاء هذا السور في حالة جيدة عبر امتدادها مع المنحدرات والتعاريج على جانبي الوادي ، ولكن الجانب الشرقي في حالة افضل . ويعطي هذا السور دليلا على نمو المدينه وتطورها اثناء اتساعها التدريجي ، فهو كثير التعاريج من الجهة الغربية : لا ليتمشى مع وعورة الموقع بل لكي يضم في داخله المناطق العامرة بالابنية . اما من الجهة الشرقية فالبناء يسير في خطوط طويلة مستقيمة . ويبدو ان انشاء السور كله تم في حقبة واحدة الا وهي اواخر القرن الاول ب.م. ، لاننا لا نرى اي تنويع في طراز البناء ، فيما عدا آثار الترميم الذي اجري فيما بعد . اما تصميم السور فقد كان يشتمل على أبراج مربعة منيعة أقيمت على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعاد منتظمة طول كل منها حوالي ٥٠ متراً، بينما أنشيء السور بالحجارة الضخمة المنحوتة نحتا حسنا على الواجهتين مع ملء الفراغ بين الواجهتين بالدبش والتراب ، بحيث بلغ عرض السور مترين ونصف المتر . ويبدو ان القصد من انشاء السور هو رد الغزوات او الهجمات الفجائية ، لا مقاومة حصار منظم تدعمه الآلات ، لان السور لم يكن محاطا بخندق .

يضيق الشارع بعد ان يجتاز هيكل أرتميس ، ويظهر النمط الايوني فيه مرة أخرى . وتوجد في التقاطع الشمالي للشارع مصلبة أخرى تختلف في تصميمها اختلافا كليا عن مصلبة التقاطع الجنوبي ، وتتألف هذه من اربع قواعد متصلة بأقواس ، وتعلو فوقها قبة الحمام المجاور لها . وقد انشئت هذه المصلبة على شرف (جوليا دومنا) وهي الزوجة السورية للامبراطور سبتيموس سفيروس (١٩٣ – ٢١١ ب.م) وأقيم في الواجهتين الشمالية والجنوبية عمودان منفصلان ، نحت على قاعدة كل منهما رأس اسد كان الماء يتدفق منه ويصب في حوض تحته . ومن هنا تمتد درب تؤدي الى الحمامات الغربية التي أنشئت على الترجيح في القرن الثاني ، وهذه الحمامات تشتمل على مثال من اقدم الامثلة مما يدعى اليوم فنيا « القبة المعلقة » اي قبة مستديرة فوق غرفة مربعة . وكان هناك في الاصل ثلاث قباب كهذه : احداها على الغرفة الكبيرة الغربية والقبتان الاخريان على الغرفتين الشمالية والجنوبية . اما اليوم فلم تبق منها سوى القبة التي تعلو الغرفة الشمالية الصغيرة . وفي الجهة الغربية لهذه الحمامات بوهي الجهة الاكثر قربا من الشارع ، أنشيء فناء جميل يقوم فيه صفان من الاعمدة . ومهما يكن من أمر ، فانه لمن العسير التحدث عن الحمامات حديث الواثق بسبب عدم إجراء أية حفريات في هذا البناء حتى الان ، وكذلك بسبب ما حل به من دمار .

اما البوابة الشمالية ، كما نراها اليوم ، فقد أنشئت سنة ١١٥ ب.م. في عهد كلوديوس سفيروس مبعوث الامبراطور تراجان ، وهو الذي جدد بناء الطريق من بيلا (طبقة فحل) على مشارف وادي الاردن الى جرش . ومن الغريب أن جدار البوابة من الناحية الغربية اكثر عرضا مما هو عليه في الناحية الشرقية ، والسبب في ذلك ان شارع الاعمدة الرئيسي يلتقي مع طريق بيلا على شكل زاوية منفرجة ، فاتجهت رغبة المهندس الى اقامة واجهتي البوابة قبالة كل من الطريقين على زاوية مستقيمة بدون انحراف . وعلى بعد حوالي كيلومتر واحد من البوابة الشمالية ، يتفجر النبع الذي كانت مياهه تسقي النصف الغربي من المدينة ؛ وهذا النبع يدعى الآن باسم البركتين ، والاسم مشتق من البركة الحجرية العظيمة التي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يفصلها جدار في منتصفها حيث يتدفق النبع ، ويتصل بهذه البركة من الجهة الغربية مدرج صغير . وهناك كتابة تعود الى القرن السادس مفادها ان الاحتفالات بعيد المـــاء الذي كان معروفا باسم (مايوماس) كانت تجري هناك ، وكانت العناصر المسيحيه تعتبرها احتفالات فاضحة وتنظر اليها بعين السخط لان الاستحمام فيها كان مختلطا للجنسين . ومن المدهش حقا ان نعلم أن هذه الاحتفالات كانت ما تزال تجري في تلك الحقبة عندما كانت الديانة المسيحية في غاية القوة .

كان يحيط بالبركة أصلا صف من الاعمدة ، مما كان يضفي عـــلى المكان مزيدا من الروعة ، ولا بد ان الاشجار كانت تكتنفه من كل جانب ، حتى ان الرحالة بركهاردت الذي زار الموقع سنة ١٨١٢ وصفه بأنه « بقعة رومانتيكية في غاية الروعة حيث أشجار البلوط والجوز الكبيرة تلقي ظلالها على الجدول » . ويعود تاريخ انشاء هذه البركة الى اوائل القرن الثالث ، اما المدرج فقد انشيء بعد ذلك بزمن قصير .

تتفرع من المصلبة الشمالية طريق تتجه غرباً وهي محاطة من الجانبين بصفين من الاعمدة ذات الطراز الايوني ، ويمكن مشاهدة اطراف ثلاثة منها بارزة بين تراب الحقول . وهناك درب تؤدي الى ساحة سوق انشئت عـــلى الطراز الكورنثي وفيها اعمـــدة جميلة ضخمة وسواكف جسيمة . وفي محاذاة هذه من الجنوب يقوم المدرج الشمالي وهو اصغر بكثير من المدرج الجنوبي . لم تجر أية حفريات حتى الآن هنا ، ولا يعرف تاريخ بناء هذه المنشآت ، ولكن يرجح بأنها اقيمت في القرنين الثاني او الثالث .

اما في الجانب الشرقي فلم تبق اية آثار ضخمة فيما عدا الحمامات الشرقية وهي في حالة خراب شديد . على ان احدى الغرف ما تزال تحتفظ بعقدها كاملا وهو عقد بالغ الضخامة . ويستعمل هذا الحمام حالياً اسطبلا للحيوانات ، ويمكن الوصول اليه من شارع بلدة جرش الرئيسي ، وليس من المستطاع تعيين تـــاريخ انشاء هذه الحمامات ، ولكـــن يرجح انها انشئت في وقت لا يتعدى القرن الثاني ب . م .

الكنائس :

فاذا ما حولنا اهتمامنا الى الكنائس المسيحية ، وجدنا ان (جرش) تشتمل على بقايا ثلاث عشرة كنيسة ، ولكن من المرجح جداً ان بقايا كنائس اخرى ما تزال مدفونة تحت الانقاض ، لان مدنا اخرى اصغر مـــن جرش بكثير كانت تضم عدداً اكـــبر من هذه الكنائس . اما تاريخ انشائها فمتقارب ، عدا واحدة بعينها ، كما لم تجر فيها أية اعمال ترميم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

او تجديد منذ ان تركت مهجورة في القرن الثامن او القرن التاسع . لذلك فان هذه الكنائس تمثل مادة ذات اهمية من الطراز الاول لدراسة فن البناء المعماري عند المسيحيين الاوائل ، خاصة لما يعرف عن تاريخ انشائها ولان تصاميمها الاصلية بقيت دون تغيير او تبديل . وقد كانت معظم الجدران الداخلية في هذه الكنائس مغلفة بالرخام او بألواح الحجر الملون او مغشاة بالجبس المدهون واحيانا بفسيفساء الزجاج . ولم يبـــق لدينا حتى الآن ما يدل على كيفية تزيين الجدران بالزخارف سوي ثقوب الاوتاد التي كانت تثبت بها الالواح ، كما ان رداءة نوعية البناء كانت تختفي في نفس الوقت خلف تلك الزخارف .

من المرجح ان تكون الكنيسة الكاتدرائية اول الابنية المسيحية في جرش كما نعرف حتى الآن ، ولا بد ان هذه الكنيسة تعود الى حوالي ٣٥٠ – ٣٧٥ ب . م . وهـــي في الواقع الكنيسة الوحيدة التي لا يستطاع تعيين تاريخ انشائها بدقة . اما الدليل الثبوتي عـــلى تاريخها فهو اشتراك مطران جرش في مجمع سلوقيا سنة ٣٥٩ ، وما ذكره ابيفانيوس الذي كتب سنة ٣٧٥ عن وجود نافورة ماء في جرش يحتفل فيها سنوياً باعجوبة تبديل الماء الى خمر . وهذه النافورة لا يمكن ان تكون سوى النافورة الموجودة في الفناء غربي الكاتدرائية . وهنالك دليل ثبوتي آخر على هذا هو ان الكنيسة نفسها انشئت في موقع هيكل وثني اقـــدم عهداً ، هو هيكل (الطفل ديونيسيوس) . ولا شك في ان حادثـــة الخمر تمثل تحويل الاحتفالات بالشعائر الوثنية الى احتفالات بشعائر الديانة المسيحية المتغلبة .

ولقد سبقت الاشارة الى البوابة والدرجـــات التي تصل مـــن الشارع الرئيسي الى الكاتدرائية ، وانك تستطيع ان ترى على رأس الدرج قريباً من الجدار الخلفي للكاتدرائية بقايا اجزاء من هيكل صغير شيد على اسم مريم العـــذراء والملاكين ميكائيل وجبرائيل ، وهذه الاسماء تظهر مكتوبة بدهان احمر على النطاق الظاهر تحت التجويف . اما الاعمدة والتيجان الايونية الملقاة على الارض هنا ، فقد كانت في السابق تؤلف صفاً من الاعمدة حول الجانب العلوي من بئر الدرج .

يمكن الدخول الى الكاتدرائية من الجانب الشمالي او الجنوبي ، اما تصميمها فعلى طراز الباسيليكا العادي ، اي انها كانت تتألف من قاعة مستطيلة لها جناحان شمالي وجنوبي وصدر مجوف يقوم فيه الهيكل ، وهناك مذبح يكتنفه حاجز من الرخام ، بينما يقوم منبر الوعظ في الزاوية الجنوبية الغربية من المذبح . ولقد نقلت الاعمدة وتيجانها ومعظم حجارة البناء من ابنية قديمة ، ولا شك ان اكثرها جاء من هيكل ديونيسيوس . وانك تستطيع ان تشاهد في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خندق حفر في وسط قاعة الكنيسة ـ جانباً من اساس الحائط الذي كان يقوم عليه ذلك الهيكل الوثني . ويشير صف الاعمدة التي تبدو بقاياها في هذا الموضع ـ الى المدى الذي انكمشت اليه الكنيسة بعد ان هدمتها هزة ارضية في زمن لاحق . واهم ما بقي من هذه الكنيسة هو الحوض القائم في الناحية الغربية والذي اشرنا اليه سابقاً . وكان هذا الحوض في الاصل يقوم في منتصف ساحة مربعة ويحيط به صف من الاعمدة ، ولكن عندما انشئت كنيسة القديس تيودور في محاذاتها ـ اقتضى ذلك اقامة الجدار الشرقي والصدر المجوف في ساحة الكاتدرائية بحيث ادى الامر الى خلع صفوف الاعمدة من جانب الساحة الغربي ، وكذلك اعمدة الجانبين الشمالي والجنوبي . ولكن الحوض بقي في مكانه ، كما ان عرش المطران او الكاهن الذي كان يقوم بخدمة القداس ما يزال في موضعه الى الغرب . ولقد كان الماء ينقل الى الحوض في انابيب من الرصاص ، وكانت هذه الانابيب ما تزال في مواضعها عند اجراء الحفريات الاولى ، ولكنها لم تلبث ان سرقت .

يوجد في الجانب الشمالي من ساحة الهيكل ممر من الدرج يؤدي الى المعبر الذي يطل على الطريق الممتدة من سبيل الحوريات الى جانب ساحة هيكل ارتميس . وهناك غرفة على يمين هذه الدرجات كانت تستعمل في القرن السادس مصنعاً لصنع الفسيفساء الزجاجية . اما الى الجانب الجنوبي فتقوم كنيسة صغيرة تذكر لنا كتابة من الفسيفساء انها انشئت « تذكاراً لراحة نفوس اولئك الذين تبرعوا ببنائها ولمريم العذراء » . ويرجح ان هذه الكنيسة الصغيرة انشئت في القرن السادس .

وهنالك ممر من الدرج في الجانب الغربي يقودنا الى كنيسة القديس تيودور ، التي انشئت خلال السنوات ٤٩٤ ـ ٤٩٦ ب . م . وهناك كتابتان تحملان هذه التواريخ ، احداهما فوق الباب الغربي الرئيسي والاخرى فوق البوابة الخارجية للكنيسة . وفيما يلي نص الكتابة التي كتبت فوق البوابه الخارجية :

« لقد صرت في غاية من الروعة والجمال مما يدهش جميع الذين يمرون بي . اذ انقشعت غيوم الخزي كلها ، وبعد ان كنت قذى في العيون فقد اصبحت عناية الله تحوطني من كل جانب . وفي السابق كانت جثث الحيوانات تلقى في هذا الموضع وتنتشر روائحها الكريهة حتى كان الناس الذين يمرون من هنا يسدون انوفهم ويكتمون انفاسهم حتى لا يستنشقوها . اما الآن فالذين يعبرون هذا السهل المعطر فانهم يضعون ايديهم اليمنى على جباههم لكي يرسموا اشارة الصليب المقدس . فاذا كنت تريد المعرفة فاعلم ان (اينياس) هو الذي منحني هذا الجمال الرائع ـ اينياس رئيس الكهنة الكلي الحكمة ذو التقوى والورع ».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت ارضية هذه الكنيسة مبلطة بالحجارة الملونة والرخـام ، ولكن لم يبق منها الا القليل . وفي الجنوب الغربي من صحن الكنيسة يوجد جـرن المعمودية ، بينما يوجـد في الجنوب الشرقي مصلى صغير ارضه مرصوفة بالفسيفساء . اما المدخل الخارجي للكنيسة فقد كان يحتوي على ثلاثة صفوف من الاعمدة ، بالاضافـة الى غرف صغيرة مختلفة رصفت ارضها بالفسيفساء . بينما كانت الغرف الموجودة في الجهة الشمالية تستعمل مـنزلا لرجال الكهنوت . وهنالك ايضاً مصلى صغير في الجهة الجنوبية :

تبدو اعمدة الكنيسة ملقاة على الارض كما سقطت عند حدوث الزلزال حتى لم تبق في مواضعها سوى القواعد . ويظهر ان الدمار كان شاملا بحيث لم تكن هناك اية محاولة لاصلاح الكنيسة او ترميمها . وترى على قواعد الاعمدة حروفاً يونانية يبدو ان البنائـين وضعوها كعلامات لتسهيل امر رفـع الحجارة فوق بعضها البعض . وقد تكرر هنا مـا حدث في الكاتدرائية من ان جميع الحجارة نقلت من ابنية قديمة اخرى .

تغطي ارضية الممر في الشمال الشرقي طبقة من الفسيفساء في مربعات حمـراء وبيضاء ، ويمكن ان ترى من خلال فجوة في جداره الشمالي جانباً من ادوات التسخين الـتي كانت تستعمل في حمامات (بلاكوس) المحاذية . ويبدو ان النار كانت توقد في احدى الفترات من هذا الممر . اما مدخل هذه الحمامات فيبدأ من الشارع المحاذي لساحة هيكل ارتميس . ولقد انشأ هذه الحمامات المطران بلاكوس خلال العامين ٤٥٤ – ٤٥٥ م ، ونفهم مـن احدى الكتابات ان اعمال تجديد اجريت فيها سنة ٥٨٤م . ولكننا لا نعلم فيما اذا كان ذلك المطران الطيب انشأها حباً في عمل الخير ام انه انشأها بقصد الفائدة التجارية . ومهما يكن من امر فانه اتبع التقليد الذي اختطه بناة الكنائس الاخرى فانتزع جميع مـواد البناء من أبنية قديمة .

وعلى بعد مسافة قصيرة الى الغرب من كنيسة القديس تيودور – كانت تقوم ثلاث كنائس باسماء القديسين : يوحنا ، جورج ، كوسموس وداميانوس . وقد انشئت هـذه الكنائس الثلاث خلال الفترة ٥٢٩ – ٥٣٣ ب . م . وكانت هنالك تبرعـات لانشائها ، حتى ان شخصاً يدعى تيودور وزوجته جورجيا تبرعا بمعظم نفقات الكنيسة الاخيرة . ولا شك انهما كوفئا على سخائهما لان صورتيهما واسميهما منقوشان في الفسيفساء يشاهدهما العالم بأجمعه ويعجب بهما حتى يومنا هذا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ان ترتيب هذه الكنائس الثلاث الى جانب بعضها البعض ، بحيث تفتح كل منها على الاخرى – كان ناشئا عن عادة الكنيسة الارثوذكسية الشرقية بان لا تسمح باجراء خدمة القداس على مذبح كنيسة ما اكثر من مرة واحدة في اليوم . امـا بخصوص التصميم فقد انشئت الكنيستان الواقعتان على الجانبين – على طراز الباسيليكا العادي ، بينما انشئت الكنيسة الوسطى وهي كنيسة القديس يوحنا : على هيئة دائرة داخل مربع ، وفي وسـط الدائرة (ثريّا) مربعة ترتكز على اربعة اعمدة كبيرة . ويعتبر هـذا المخطط صورة مصغرة عن كاتدرائية بصرى في سوريا التي انشئت قبل ذلك ببضع سنوات .

كانت الكنيسة الجنوبية المكرسة باسم القديس جورج مـا تزال قيد الاستعمال حتى القرن الثامن ، وهي الوحيـدة بين الكنائس الثلاث التي ما تزال مقاعد الكهنة قائمـة في صدرها المحوف . وما يزال فيها ايضاً موضعان لحفظ الذخائر الكنسية ، وبقايا حاجزين ، مما يدل على ان بعضاً من اثاث الكنيسة كان قد نقل من احـدى الكنيستين المجاورتين حينما بطل استعمالهما . وربما يفسر لنا هذا سبب بقاء الفسيفساء سليمة في كنيسة القديس كوسموس وجانباً من فسيفساء كنيسة القديس يوحنا .

فان تدمير فسيفساء كنيسة القديس جورج لم يتبعه تدمير فسيفساء الكنيستين الاخريين لانهما كانتا قد تهدمتا . ولم يكلف الاشخاص الذين قاموا بالمهمة انفسهم عناء ازاحة الانقاض من اجل تدمير الفسيفساء ، بل لعلهم كانوا يجهلون وجودها . عـلى ان فسيفساء كنيسة القديس جورج ليست بذات اهمية تذكر (وهي ما تزال مدفونة) ولكن فسيفساء كنيسة القديس يوحنا على قدر عظيم من الروعة وتشتمل على صور مدن مختلفة ومن جملتهـا الاسكندرية وممفيس . وكان هنالك اطار عريض يشتمل على رسوم أشخاص وحيوانات ، ويمكن مشاهدة بعض اجزاء منه في المتحف .

ما يزال اكثر من ثلثي الفسيفساء في كنيسة كوسموس ودميانوس سليما لم يصبه اذى ، وقد قامت دائرة الاثار خـلال سنتي ١٩٣٧ – ١٩٣٨ برفع تلك الفسيفساء واصلاحها ثم تثبيتها في مواضعها ، وتعتبر الصور فيها رائعة جدا خاصة صورتي تيودور وجورجيا . وتتضمن الكتابة ذكر تكريس الكنيسة والتاريخ (٥٣٣ ب.م.) ، وتحت الصورتين صور محسنين آخرين : فالى اليسار يوحنا بن استريكس والى اليمين كاليونستوس ، والى جـانب يوحنا ايقونة تتضمن كتابة عن القائد داجيستيوس (أحد قواد الامبراطور جوستنيان) . اما بقية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الارضية فتمتلىء بلوحات تحتوي على اشكال هندسية متعددة بينهـا رسوم هندسية ورسوم متشابكة وصلبان معقوفة وطيور وحيوانات من جميع الانواع ، كما ان الفسحة الواقعة بين الاعمدة المربعة تحتوي على رسوم هندسية وطيور وأسماك . ولكن ارضية الرواقين الجانبيين صنعت على شكل سجادة عادية النقوش ، وكانت فسيفساء الرواق الشمالي قد اصيبت بتلف كبير ثم جرى اصلاحها في ذلك العهد .

تطل الكنائس الثلاث على ساحة عامة كانت تحتوي على صف من الاعمدة المختلفة على امتداد جانب واحد . وكانت الفسحة الواقعة بين الاعمدة والكنائس مرصوفة بالفيسفاء ، بينما كانت بقية أرض المساحة مرصوفة بالحجارة . ويبدو ان جرنا للماء المقدس كان يقوم أصلاً خارج كل كنيسة .

اما فيما يتعلق بالغرف الواقعة في الطرف الشرقي من الكنائس ، فقد كانت الغرفـة الواقعة بين كنيستي كوسموس ويوحنا معبدا في الاصل ثم حولت الى غرفة معمودية ، وقد نصب جرن المعمودية فوق زخارف الارضية التي كانت على شكل صليب ضمن دائرة . وترى فوق باب الجدار الغربي المؤدي الى كنيسة يوحنا حجرا كبيرا نحت فيه رأس اسـد ونقوش اخرى . وليس هذا الحجر الا قطعة من الكورنيش الخارجي الذي كان يزدان به هيكل ارتميس ، حيث كان الماء يتدفق من رأس الأسد . وترى في ارضية كنيسة يوحنـا كتابة جيء بحجارتها من هيكل زيوس : اما الغرف الاخرى فيبدو انهـا كانت مساكن للشـمامسة .

ولا شك في ان نوعية بناء هذه الكنائس كانت رديئة جدا ، ويمكن التأكد من هذا خاصة عند مشاهدة الجدران المنهارة في كنيسة القديس جورج . وتتألف هذه الجدران من واجهتين من الحجارة ، مليء الفراغ بينهما بالحصى والاتربة غير المجبولة . وترى في صـدر كنيسة كوسموس قطع الحجارة التي تركها العمال الذين قاموا بصنع المكعبات في الارضية .

وكانت تقوم على الجانب الشرقي لجدول الماء قريبا من رأس النبع كنيسة تثير الاهتمام كرّست باسم الانبياء والرسل والشهداء خلال الفترة ٤٦١ ـ ٤٦٥ ، ولكن الطريق المعبدة لم تلبث ان انشئت فوق جانب كبير منها فلم يبق هناك ما يستطاع مشاهدته . ان هذا لامر مؤسف لان الكنيسة كانت فريدة في تصميمها بـين كنائس جرش . وكانت تحتوي عـلى فسيفساء جيدة وكتابة تذكر تاريخ انشائها ، وقد شوهدت لاخر مرة حوالي سنة ١٨٦٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهناك كنيسة اخرى الى الشرق انشئت عامي ٥٢٦ – ٥٢٧ عـلى نفقة ضابط يدعى بروكوبيوس ، وماتزال بقايا اعمدتها قائمة يمكن مشاهدتها من الجانب الغربي فوق القريـة من الجهة الجنوبية الشرقية . وكانت تحتوي على فسيفساء تعتبر من اجمل ما وجد في جرش حتى الآن ، ولكن لحق بهذه الفسيفساء تلف كبير كما انها ما تزال مدفونة بالتراب.

اما الكنائس الباقية فلا تحتوي على آثار مهمة . فكنيسة القديسين بطرس وبولس التي تقع الى الجنوب من كنيسة يوحنا – انشئت حوالي سنة ٥٤٠ ، وكانت فسيفساؤها تشتمل على صور للمدن ، ولكنها لا ترتفع في نوعيتها الى مستوى صور المدن الموجودة في كنيسة القديس يوحنا . وعلى بعد مسافه قصيرة الى الجنوب تقع كنيسة الموتى (Mortuary) التي أنشأها شخص ما كذكرى لوالديه. وهناك قوس الى الجنوب تؤدي الى مغارة كانت تستعمل مقبرة لدفن الموتى . وقد اجريت حفريات كثيرة في هذه الكنيسة لوقوعها على جانب تل ، ولكن تاريخ انشائها غير معروف ومن المحتمل انها بنيت في اواخر القرن السادس. اما كنيس اليهود فيقـع الى الغرب من هيكل ارتميس . وقد كان في الاصل كنيساً لليهـود ثم حوّل سنـة ٥٣٠ ب. م . الى كنيسة . وقد اقتضى هذا التحويل تبديلا في المخطط ، لان الكنيس في شرق الاردن يتجه نحو الغرب بينما تتجـه الكنائس دائماً نحو الشرق . ولا نرى الآن من هذا الكنيس سوى الاعمدة التي يحتمل انها ليست في مواضعها الأصلية . وهناك بعض قطع الفسيفساء التي تمثّل مشاهد للطوفان كما تحمل كتابة عبرية ولكنها ما تزال مدفونة .

أما آخر كنيسة انشئت في جرش – فيما نعلم حتى الان – فهي كنيسة المطران جانيسيوس اذ يعود تاريخ انشائها الى سنة ٦١١ ب.م. وتقع هذه الكنيسة الى الغرب من كنيسة يوحنا . وليس فيها ما يثير الاهتمام ، كما لم تجر فيها حفريات كامله .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الخامس

مكاور – ذيبان – حجر ميشع – القصر – الربة – الكرك – مؤته – المزار – ذات راس – خربة التنّور – ضانا – الشوبك

مكاور :

يرى المسافر على بعد بضعة كيلومترات الى الجنوب من مادبا تلّا مرتفعا معزولا غربي الطريق يدعى « لب » تقوم على قمته قرية قديمة . وفي محاذاة هذا التل تتفرع عن الطريق الرئيسية ، درب ضيقة تسير غربا حتى تؤدي في النهاية الى مكاور حيث كان يقوم قصر هيرودس . ويقال انه في هذا القصر رقصت سالومي وقطع رأس يوحنا المعمدان . يستطيع الزائر ان يصل بالسيارة الى (عطاروز) ولكنه بعد ذلك يجب ان يسير على قدميه في طريق وعرة حتى يصل الى مكاور[1] ولا يوجد هناك ما يستلفت النظر اذا استثنينا المنظر الرائع للبحر الميت ، لأن القصر – وهو اشبه ما يكون بقلعة – تهدم منذ عهد بعيد ولم تبق منه الا بعض الجدران المطمورة بين الانقاض وبقايا اطلال تشبه الممر . على ان الموقع يسيطر على ما حوله كليا ، ومنه يستطيع المرء ان يشاهد البنائين الاخرين اللذين اقام هيرودوس كلا منهما على رأس جبل : هيروديوم غير بعيد عن بيت لحم ، والكساندريوم على قرن سرطبة شمالي اريحا وغربي داميه[2] . وفي الايام الصافية يمكن للمرء ان يشاهد ابراج القدس ايضا .

تسير الطريق جنوبا نحو الكرك ، وسرعان ما تلتوي منحدرة الى وادي الوالا احد فروع الموجب (ارنون) . ويجري في الوالا جدول تظلل مجراه شجيرات الدفلى ذات الزهور الحمراء . ولا تعدم ان تجد سمكة لا بأس بها في بعض بركه . وبعد ان تعبر الجسر القائم فوق الجدول ترى حجرا منتصبا وحده (منهير) الى جانب الطريق وحوله عدد من الحجارة المماثلة مطروحة على الارض . وفي هذا الموضع على الجانب الشمالي للجدول – توجد بقايا قرية صغيرة قديمة تدعى خربة اسكندر ، وهي قرية تعود الى فترة العصر الخالكوليثي والعصر

---

(١) اصلحت هذه الطريق فيما بعد وتستطيع السيارة ان تصل الآن الى جبل مكاور

(٢) فوق سرايا الجفتلك بطريق جسر دامية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البرونزي الاول ، وربما كانت هناك علاقة بين حجارة المنهير وهذه القرية . ويمكن مشاهدة مجموعة من الصوى (الحجارة التي تكتب عليها مسافات الطرق) الرومانية ، على مقربة من رأس الوادي . انها ما تزال مطروحة في مواضعهـــا القديمة الى جانب الطريق التاريخية غير بعيد عن الطريق الحديثة .

ذيبان :

ان قرية ذيبان هي الموقـــع التالي الذي يثير الاهتمام على طريق مادبا - الكرك . وهي تقع على قمة تل مشرف الى الغرب من الطريق بمسافة قصيرة . في هذا الموقع تقوم (ديبون) التي تذكرها التوراة ، والتي كانت يوما ما عاصمة (ميشع) ملك مؤاب . ولقد قامت المدرسة الاميركية للابحاث الشرقية بحفريات استمرت عدة سنوات ، ونتيجة لهذه الحفريات تبين ان هذا الموقع كان مأهولا بالسكان منذ اوائل العصر البرونزي (حوالي ٣٠٠٠ ق.م) مع انه لم تبق من آثار المدينة الاولى سوى بقايا قليلة . تغطي وجه التل آثار العصر العربي والعصر البيزنطي ، اما الطبقة الثانية تحت السطح فتضم بقايا المدينتين الرومانية والنبطيـــة ، وهناك دلائل كافية على ان الموقع كان مأهولا في العصر الحديدي . كشفت الحفريات عن ابنيـــة متردمة وشوارع وجدران تعود لكافة العصور المذكورة ، ولكنها بحاجة الى جهود واحد من علماء الآثار كي يفصل كل طبقة اثارية عن الطبقة الاخرى ويكشف معالم كل منها على حده . ويبدو جانبا من سور المدينة نتيجة لعمليات حفر عميقه اجريت في صفحة التل الشرقية ، ومع ان العصر الذي بني فيه السور لم يعرف بعد - الا ان بناء الحجارة يبدو متناسقا رغم ان الحجارة ذات احجام ضخمة للغاية وقد نحتت وجوهها جزئيا . وما يزال البناء قائما على ارتفاع لا بأس به مع ان الحفريات لم تصل الى اساسات السور . تبدو في منتصف مدمـــاك السور من الناحية العليا — فوهتا فجوتين واسعتين تنحدر قصبتاهما الى عمق احد عشر مترا تقريبا ، ويعتقد ان هاتين الفجوتين انشئتا في الاصل لغرض عمراني لم تتضح ماهيته بعد : ويعتبر هذا الجدار من اضخم ما انشيء في الاردن خلال العصور القديمة من اصناف الجدران التي بنيت اسوارا للمدن : والى الشرق من التل كشف عن بعض المدافن التي نحتت في الصخر وتعود الى العصر الحديدي الاخير اي حوالي القرن السابع قبل الميلاد ، ولكن محتوياتها كلها سرقت منذ عهد بعيد :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في هذا الموضع تم عام ١٨٦٨ اكتشاف النصب المشهور الذي تركـــه الملك ميشع ، فقد عثر عليه اهل القرية ووصلت انباؤه الى المسيو كلير مون‌جانو المستشرق المعروف الذي كان ملحقا بالقنصلية الفرنسية في القدس . وبعد ان شاهد جانو النصب اتفق مع الاشخاص الذين عثروا عليه ان يبتاعه منهم مقابل ستين جنيها ثم عاد الى القدس كي يدبر المبلغ بعد ان نقل الكتابة المنقوشة عليه . كان من حسن الحظ حقا ان جانو نسخ نص الكتابة ، لأنه ما كاد يبارح المكان حتى بدأ الخصام بين الاهلين حول اقتسام النقود ، وعمد بعض الاشخاص الذين ظنوا انهم سيحرمون مما كانوا يحسبونه حقا شرعيا لهم — الى اشعال النار تحت النصب خلسة ، وبعد ان اشتدت حرارة الحجر صبوا ماء عليه . ولما كان الحجر من نوع البازلت الناري القاسي ، فانه تحطم وتناثرت اجزاؤه حتى ان بعضها ضاع نهائياً . وعندما عاد المستشرق لم يكن له الخيار فجمع ما امكن جمعه من الاجزاء المتناثرة وحملها معه الى القدس ومنها الى فرنسا ، حيث يمكن الآن مشاهدة ذلك النصب بعد ان اعيد تجميره في متحف اللوفر بباريس .

بعد ان يغادر المسافر ذيبان ، فانه سرعان ما يصل الى نهر ارنون (يدعى حاليا وادي الموجب) . ان انحدار الوادي من الجانبين على قدر عظيم من الوعورة والالتواء ، وطالمـــا وقف السياح على كتفه معجبين مندهشين . على انه يوجد خـــط سيارات منتظم بين عمان والكرك فتقطع السيارات هذا الوادي السحيق يوميا دون اية مصاعب اللهم الا في الايام التي تفيض فيه مياه النهر او يحدث انهيار في احد جوانب الطريق نتيجة للامطار . ان قوهة الوادي السحيقة تبعث في النفس تأثيرا عميقا ، ففي هذه النقطـــة يبلغ عرض الوادي عند الكتفين حوالي اربعة كيلو مترات بينما يبلغ عمقه حوالي ٤٠٠ متر .

وعلى بعد بضعة كيلومترات شرقي الطريق(١) يوجد موقع صغير يدعى (عراعر) وهو الموقع المذكور في التورة باسم (عروعير) . وعلى مقربة من النقطة التي تمر فيها الطريق فوق الجدول ، توجد بقايا جسر روماني . وبعد ان يقطع المسافر ١٥ كيلومترا بعد الخروج من الوادي فانه يصل الى قرية (القصر) حيث توجد خرائب هيكل نبطي صغير . لقد ادخل اهل القرية بعض حجارة الهيكل المنحوتة ضمن جدران منازلهم ، ويتبين من هذه الحجارة انها تماثل حجارة خربة (التنور) في وادي الحسا وتعود الى نفس الفترة الزمنية . لم تجر قـــط اية حفريات في الهيكل ، وترى داخله كومـــة من الحجارة المتراكمـــة لا يستبعد ان تخفي تحتها

---

(١) تقع الطريق الجديدة مع الجسر الذي تمر عليه ، شرقي هذا الموقع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حجارة مزخرفة اخرى . والى الشمال الشرقي تقع (بالوعة) رغم انها لاتبدو لعيان المسافر على الطريق . وقد عثر على نصب آخر في (بالوعة) قبل عدة سنوات (١) . اما قرية (الربة) فتقع على بعد خمسة كيلومترات الى الجنوب ، وربما كانت هذه القرية هي (ربة موآب) المذكورة في التوراة و (اريوبوليس) الرومانية. لم يبق من امجاد هذا الموقع الغابر سوى بعض الاعمدة المطلة برؤوسها من بين الانقاض والاكواخ ، ولا شك ان هذه الاعمدة كانت جزءاً من واجهة احد الهياكل .

الكرك:

لا يرى المسافر على الطريق مواقع اخرى تثير الاهتمام حتى يصل الى بلدة الكرك ، التي تقع على قمة تلة تكاد تكون معزولة ، وتشرف على مناظر رائعة من جميع الجهات ، خصوصاً جهة البحر الميت . ولا بد ان موقعا منيعاً كهذا كان مأهولا بالسكان منذ اقدم العصور رغم انه لا توجد أدلّة قاطعة على ذلك الا منذ العصر الحديدي حوالي ١٢٠٠ ق.م. وتطلق التوراة على الكرك اسماء مختلفة — كير حارسه ، كير حرس ، كير موآب — ولا شك انها كانت احدى المدن الرئيسية في مملكة موآب بل ربما كانت عاصمة للمملكة في وقت من الاوقات . وتذكرها التوراة بصورة رئيسية في سفر الملوك الثاني الاصحاح الثالث ، عندما كان ميشع ملكا على موآب ويهورام ملكا على اسرائيل ويهوشافاط ملكا على يهوذا حوالي سنة ٨٥٠ ق.م . اما اكثر ما جاءت به التوراة من ذكر الكرك فلعنات كان يوجهها النبي اشعيا للمدينة . ولا نعرف شيئاً كثيراً عن تاريخها عدا ما جاء في التوراة ، اما في عهد البيزنطيين فقد كانت مركزاً لرئيس اساقفة ، وكانت تضم كنيسة يوقرها الناس كثيراً هي (كنيسة الناصرة) .

بلغت الكرك اعظم فترة في تاريخهـــا زمن الصليبيين عندما اطلق عليها اسم (كرك موآب) او (جوهرة الصحراء) وكانت عاصمة لامارة الاردن الخارجية . اما تحصيناتها فقد بناها (بايم) امير الكرك والشوبك عام ١١٣٦ . واشهر الامراء الذين حكموها — او اكثرهم شقاوة — هو رينودي شاتيلون الذي قتله صلاح الدين بعد معركة حطين يوم ٣ تموز ١١٨٧ بسبب اعمال الغدر التي قام بها . وفي ذلك العـــام انتقلت الكرك الى ايدي المسلمين. وسنة ١٢٦٣ قام بيبرس حاكم مصر بهـــدم الكنيسة . ومنذ ذلك الحين اختفت المدينـــة من

---

(١) نصب (بالوعة) معروض حاليا في مدخل متحف الآثار بعمان .

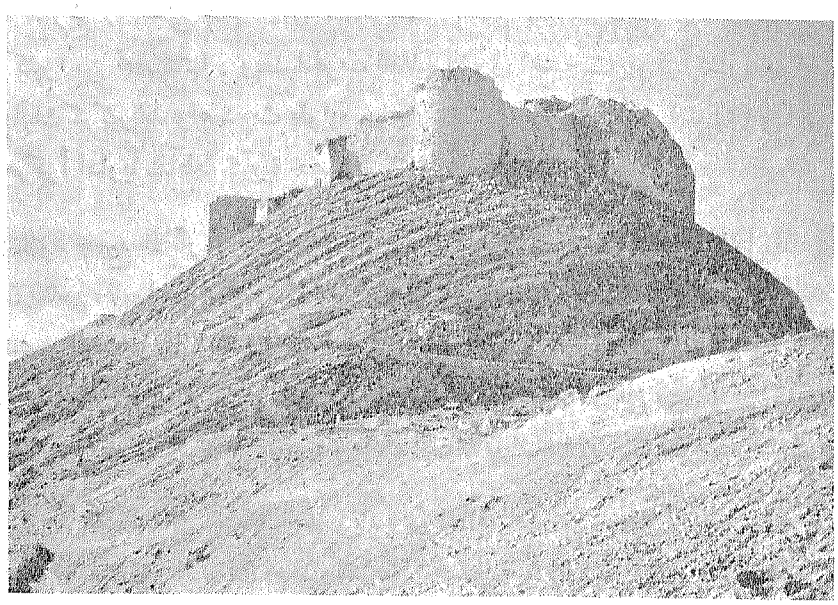

قلعة الشوبك (مونتريال) : كما تبدو للناظر اليها من اسفل الوادي عند قرية (بلايا) التي أنشأها في القديم اللاجئون الى القلعة .

« رسالة المعلم »

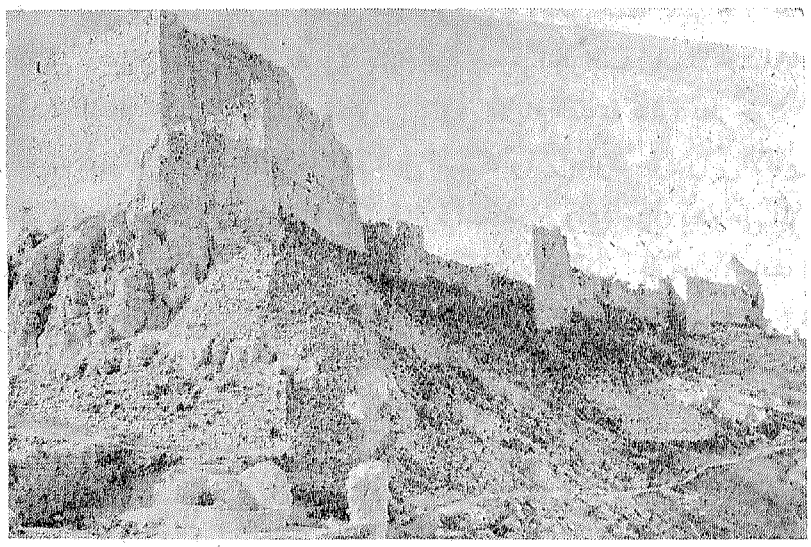

القلعة الصليبية في الكرك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واجهة التاريخ (١) حتى عام ١٨٤٠ عندما استولى عليها ابراهيم باشا خلال حروبه في سوريا ودمر كثيراً من تحصيناتها . وبعد الحرب العالمية الاولى اصبحت مركزاً اداريـاً تحت ادارة المستر اليك كركبرايد واصدرت طوابع خاصة بهـا في فترة من الفترات (٢) وما تزال حتى اليوم مركزاً ادارياً لمقاطعة كبيرة خصبة .

تعود جميع الاثار الباقية في الكرك الى عهد الصليبيين وما بعده . والدليل المادي الوحيد على ان الناس اقاموا فيها خلال العصور الاولى – عدا بعض العاديات الصغيرة العائدة للعصر الحديدي والتي عثر عليها خلال شق الطريق – هو النصف الاخير لاحد الاسود وقد نحت على لوحة حجر من البازلت وتمثال لانسـان يمثل النصف الاعلى من الجسم ولكن بدون رأس وهو يعود الى عصر الانباط ، وهاتان القطعتان ادمجتا في جدران ابنية انشئت فيما بعد .

لم يكن للمدينة في المخطط الصليبي سوى ثلاثة منافذ تحت سطح الارض ، ويمكن رؤية احد هذه المنافذ حتى الآن الى جانب الطريق الحـالية ، قبل ان تمر في فجوة بين الاسوار لدخول البلدة . والقلعة هي اهم ما يلفت النظر : وقد انشئت على نمط الأبنية الصليبية العادية بأروقتها المعتمة ذات العقود الحجرية حيث لايدخل الضوء الا من فتحات السهـام وحيث تؤدي قناطر ضخمة الى حجرات معتمة اخرى . وتقتصر محاولة تبديد الجو الكئيب القـاتم على غرفة مستديرة صغيرة حيث يوجد عدد من الفتحات حول محور القبة . وكـان يتصل بالمعاقل في الاصل من جهة الغرب مضيق من الارض ، ولكن خندقاً عميقاً جافا جرى شقه خلال المضيق فاصبح موقع القلعة معزولا بالمرة من جميع الجوانب . ان الانحـدار السحيق الذي يلي هذه المعاقل يبعث الرعب في النفوس ، وفي الايام القديمة كانوا يطرحون الاسرى غير المرغوب فيهم من فوق ليلاقوا حتفهم ، بل انهم كانوا يربطون حول راس الاسير صندوقا خشبياً حتى لايصاب بالاغماء قبل وصوله الى قرارة المنحدر . واي جمال يبدو على الموقع يعود كليا الى الدمار الذي اصابه ، ذلك لان الصليبيين – رغم انهم كانوا بارعين في انشاء المعاقل العسكرية ، لم يكونوا يضيعون وقتا على التجميل والزخرفة ، حتى لو كانوا يميلون اليهما .

---

(١) الحقيقة ان الكرك كانت على قدر عظيم من الأزدهار في عهد المماليك وموسوعاتنا العربية مملوءة باخبارها قبل عهد ابراهيم باشا .

(٢) يشير المؤلف هنا الى فترة الحكومات المحلية التي سادت في شرقي الاردن بين انتهاء الحكم الفيصلي (تموز ١٩٢٠) وانشاء الامارة على يد الامير عبد الله بن الحسين (آذار ١٩٢١) وكـان كركبرايد ضابط الارتباط البريطاني في الكرك خلال تلك الفترة (راجع كتاب : تاريخ الاردن في القرن العشرين) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تسير الطريق من الكرك باتجـــاه الجنوب عبر هضبة مرتفعة لاتتجدد المشـــاهد فيها . وتنتشر خرائب القرى القديمة في هذه المنطقة التي تعتبر ارضها غنية بانتاج الحبوب . واول قرية عامره تمر بها هي (مؤتة) التي حدث فيها الصدام الاول بين قوات الأسلام والبيزنطيين عام ٦٣٢ ب.م. حيث هزم العرب وقتل قادتهم . وقد دفن اولئك القادة في (المزار) وهي القرية التي تلي مؤتة جنوبا .وفي المزار جامع كبير جداً بُني فوق ضريح جعفر بن ابي طالب. وكان هنالك في الاصل جامع قديم من المحتمل انه يعود الى القرن الثاني عشر ، ولكن بنـــاء ذلك الجامع هدم قبل خمس وعشرين سنة ، واقيم الجامع الحالي في موضعه (١).ويمر المسافر بقريتين او ثلاث قبل ان يصل الى كتف وادي الحسا . ولكن لايوجد في اية قرية من هذه القرى ما يثير الاهتمام . والى الشرق من الطريق الجديدة على بعد كيلو مترين او ثلاث كيلو مترات توجد قرية (ذات راس) وفيها هيكل صغير غير متهدم ربما يعود الى القرن الثـــاني او الثالث بعد الميلاد . انه يقوم الى جـــانب الطريق القديمة ،وفي القرية التي تقع خلفه يمكن مشاهدة بعض الاعمدة وبقايا اسوار قديمة .

خربة التنـور

يستطيع المرء ان يلاحظ تغيرا في مناظر الطبيعة اذا ما مدّ بصره جنوباً في الموضع الذي تبدأ فيه الطريق انحدارها الى وادي الحسا . هنا تختفي مناظر الهضبة الواسعة والتلال المستديرة الملساء التي تبرز منها ، وبدلا من هذا تبدو للعيان عدة اودية صغيرة عميقة ، وتتخذ قمم التلال اشكالا وعرة غير مستوية ، يتمثل فيها انتقـــال تكوين الصخور من النوع الجيري الى النوع الرملي . ويبدو منظر الوادي باتجاه الغرب مهيبا بالغ الروعة . بينما يرتفع في منتصفه تل عال منعزل توجد على قمته بقايا هيكل نبطي يدعى اليوم (خربة التنور) . ينساب جدول الماء على مدار السنة وترصّع جنبات مجراه شجيرات الدفلى ، وقد أنشيء جسر في منتصف الوادي فوق مجرى الجدول . وبعد ان يقطع المسافر هذا الجسر فانه لايلبث ان يبلغ اسفل التل الذي تقوم على قمته خربة التنور . ان ارتفاع التل ووعورته تسبب لمن يريد بلوغ القمة شيئا من العناء . اما الهيكل فيعود الى القرنين الاول ق.م. والاول ب.م. وهو في الواقع اول هيكل نبطي تجري فيه اعمال الحفريات . تنبسط امامه ساحة خارجية مبلطة يقوم في زاويتها الشمالية الشرقية مذبح كبير ، والى الشمال والجنوب عدد من الحجرات الصغيرة يعتقد بانها كانت منازل

---

(١) بني الجامع الجديد خلال الاعوام ١٩٣٠ــ١٩٣٤ (راجع العدد الخامس من رسالة الاردن ــ قرية مؤته وتاريخها)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكهنة الهيكل . والى الغرب كانت تقوم واجهة جليلة تزينها الاعمدة المستديرة والمربعة وفي وسطها معبر تؤدي اليه بضع درجات . وفوق هذه الواجهة كان يقوم تمثال نصفي ضخم لآلهة منتقبة (ذات حجاب) يرتفع فوقها قوس كبير يبرز قرن من كل فتحة من فتحاته ، وكان على الحجر الاوسط في القوس نسر مبسوط الجناحين . وقد وجدت لوحات تماثيل اخرى حوالي الهيكل ومن المحتمل انها كانت منصوبة في الحائط بين الاعمدة.

توجد ساحة اخرى صغيرة ضمن المدخل، وفي منتصف هذه الساحة اقيم المذبح والمعبد الرئيسي . ويتألف هذا المذبح من منبر مربع يبلغ ارتفاعه حوالي مترين وعرض كل ضلع من اضلاعه حوالي ثلاثة امتار . وكانت تزين واجهته اعمدة ذات اضلاع مربعة يرتفع فوقها عقد مستقيم . وفي المحراب الذي تألف في الواجهة نصبت تماثيل للآلهة ، ولكن لم يعثر الا على واحد منها في موضعه وهو تمثال رجل ذي لحية يقف عجل صغير عند قدميه ، وربما كان هذا التمثال للآله هدد . ولا بد ان تمثال زوجته كان يقف الى جانبه ولكن لم يعثر على اي اثر له . يزدان النصف العلوي من كل عمود بلوحات رسوم تبدو فيها اشكال نباتات على مراحل مختلفة ، ورؤوس اناث نحتت في الحجر ، وهذه الرسوم تمثل رأس آلهة ويغطي كل رأس رداء يختلف عن غطاء الرأس الآخر فتجد على احدها سنابل قمح وسمكات على آخر . ويبدو انها الآلهة (عطار غاطس) وربما كان الرسمان شكلا من اشكال آلهة الانباط الرئيسية (ذو الشرى) و (اللات) . توجد الى جانب المنبر بضع درجات تؤدي الى سطح المعبد حيث كانوا يقدمون الذبائح كما يعتقد . ولقد كان الهيكل كله مزيناً بالرسوم والمنحوتات الرائعة واكثرها موجود الان في متحف الآثار بعمان. ولا بد ان رفع هذه الكتل الضخمة الى قمة التل قد استغرق جهداً هائلا خاصة تلك الحجارة اللازمة لصنع تمثال ضخم كتمثال الآلهة ذات الخمار . ولقد كلّفت عملية نقل التماثيل من قمة التلة الى اسفلها كثيراً من الجهد والمشقة.

تقع خربة التنور عند ملتقى وادي الحسا بوادي (اللعبان) المتفرع عنه . وقد ذكر وادي اللعبان بالاسم في احدى الكتابات التي عثر عليها في الهيكل . تقطع الطريق منتصف وادي اللعبان الذي يبقى جافاً معظم ايام السنة ، وبعد ان تسير مصعّدة بمسافة كيلو مترين تقريباً فان المرء يمكن ان يشاهد مرتفعاً صغيراً من الخرائب الى الجهة الشرقية . هذه الخرائب هي بقايا هيكل آخر يماثل هيكل التنور في مخططه وتاريخه مماثلة كاملة . لم تجر حفريات بعد في هذه الخرائب ، ومن سوء الحظ انه توجد عدة قبور في نفس المكان الذي يقوم عليه مذبح الهيكل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تستطيع الآن ان تخرج من الوادي مصعداً في طريق طويلة تؤدي في النهاية الى سهل صغير وتتفرع عن هذه الطريق في جانبها الابعد – درب تتجه شرقاً الى جرف الدراويش ومعان . وفي هذا الطرف من السهل خاض الكولونيل لورانس معركةالطفيلة المشهورة وهي المعركةالمركّزة الوحيدةفي حملاته الحربية كلها(١) وسرعان ما تنحدر الطريق الى واد آخر ، وبعد عدد من الانحناءات والمنعطفات تبدو بلدة الطفيلة في جانب الوادي المقابل تحيط بها اشجار الزيتون . وموقع الطفيلة من اجمل مواقع البلدان في الاردن حيث يستطيع المرء ان يستمتع بمنظر أخاذ اذا هو مد بصره نحو الشمال الغربي مع انحدار الوادي الى الطرف الجنوبي للبحر الميت . وفيما عدا هذا لا يوجد في البلدة ما يثير الاهتمام بل ان الطريق تمـــر في الحي الجانبي منها وسرعان ما تترك الوادي خلفها .

تستلفت روعة المشاهد انظار المسافر من هنا حتى وادي موسى : ومن الضروري ان يغتنم المرء وقفة على الطريق فوق قرية (ضانا) كي يتأمل مشهداً جميلا يأخذ بالالباب عبر وادي عربة الى الغرب ، بينما تنبسط سطوح المنازل في قرية (ضانا) الصغيرة مباشرة تحت امتداد البصر . وبالاضافة الى هذا توجد في هذه النقطة صخرة منخفضة يمكـــن ان ترى فوقها عددا من الادوات الصوانية التي تعـــود الى العصر (المكروليثي) واواخـــر العصر (الباليوليثي) . على انه من المستبعد ان نتصور ان الانسان الاول اختار هـــذا الموقع بسبب جمال المناظر فيه .

وعلى بعد بضعة كيلو مترات اخرى يمكن مشاهدة قطعة لا بأس بهـــا من الطريق الرومانية العظيمة التي انشأها (تراجان) وهي تمتد بجانب الطريق الحديثة . انها جـــزء من الطريق المرصوفة الكبيرة التي كانت تمتد من دمشق الى العقبة .

بعد هذا بمسافة قصيرة تبدو الشوبك على حين غـــرة في الوادي الى الغرب ، وترى جاثمة على رأس تل منعزل تحيط به الشعاب العميقة ومنظرها رائع جداً على مبعده ، ولكنها غير ذلك على القرب . وكانت الشوبك قلعة من قـــلاع الصليبيين المهمة دعيت (مونتريال) انشأها بلدوين الاول عام ١١١٥ كي يسيطر على الطريق الممتدة من دمشق الى مصر . وقد

---

(١) قاد الامير زيد بن الحسين معركة الطفيلة بمعونة عدد من الضباط العرب البواسل وابلى فيها اهـــل الطفيلة وعيمة والحويطات بلاء حسناً . لقد حضر لورنس المعركة ولكنه اختص نفسه بالفضل فتناقل الغربيون روايته مصدقين . (راجع كتاب لورنس والعرب من تأليف مترجم هذا الكتاب) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

استولى عليها صلاح الدين عام ١١٨٩ . وجدد المماليك بناءها في القرن الرابع عشر ، ونحن نراها اليوم في الشكل الذي صارت اليه بعد تجديد المماليك . ان الاسوار والبوابه الرئيسية ما تزال كاملة البناء ولكن لا يوجد داخل الاسوار الا منازل القرية الحديثة . والأثر التاريخي الوحيد هو تلك البئر العميقة التي حفرت في باطن الصخر على عمق ٣٧٥ درجة تؤدي الى المياه المتفجرة على ذلك العمق . والسير على الدرج الاملس مع انحدار القصبة ينطوي على مخاطرة كبيرة ، كما اننا لا نعلم كيف تيسّر للحفارين القدماء العلم بوجود الماء في اعماق تلك النقطة . (١)

بعد المرور بقرية (نجل) تمر الطريق في منطقة تكثر فيها قرامي الاشجار ، وهي كل ما تبقى من غابة كانت كثيفة يوماً ما . لقد قطع الاتراك اشجار هذه الغابة خلال الحرب العالمية الاولى كي يوفروا الوقود لقاطرات سكة الحديد . وما تزال التسوية التي انشأوها لمد الخط الفرعي لسكة الحديد من اجل نقل الحطب – قائمة حتى اليوم . تسير الطريق بعد هذا مع قمم التلال التي ترتفع هنا الى ٥٥٠٠ قدم فوق سطح البحر وهي اكثر المواقع ارتفاعا في الاردن(٢) وبعد هذا تأخذ الطريق بالانحدار التدريجي حتى تلتقي مع طريق معان – وادي موسى . وسرعان ما يبلغ المسافر نبع (عين موسى) التي تعتبر بداية الوصول الى البتراء .

---

(١) هناك مجموعة غنية من الخطوط العربية التي نقشها المماليك على الجدران عند تجديدهم لها .

(٢) الواقع ان جبل رم هو اعلى جبل في المملكة اذ يبلغ ارتفاعه ١٧٥٤ مترا اي ٥٨٤٧ قدما فوق سطح البحر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السادس

البتراء : بركهاردت يكتشفها مجدداً سنة ١٨١٢ – فترة ما قبل التاريخ – اقامة الانباط فيها – فخّار الانباط ، كتابتهم ، لغتهم ، آلهتهم وملوكهم – هجوم اليونانيين على البتراء – الاحتلال الروماني سنة ١٠٦ ب.م. – الآثار .

ان العالم المتمدين بأجمعه لا يجهل اسم هذا الموقع القديم الذي لا مثيل له ، كما انه يحمل فكرة ما عن طبيعته ، ولكن بالرغم عن وسائل المواصلات الحديثة ، فان البتراء ما تزال على شيء من البعد وما يزال الوصول اليها عسيراً نوعاً ما . على ان السنوات الاخيرة – والحق يقال – شهدت جماعة من الزائرين يسافرون بالطائرات من بيروت الى معان ثم يعودون في اليوم التالي الى بيروت. ولكن وسيلة السفر هذه لا يستطيع إتباعها الا ذوو اليسار وهي كذلك ابتداع حديث جداً . وفي عام ١٩٣٢ عندما زرت البتراء لاول مرة مع جماعة من الزملاء العاملين في الآثار عند انتهاء موسم الحفريات قرب مدينة غزة في فلسطين – لم تكن هذه الوسائل متوافرة يومذاك ، ولم يكن في مقدورنا إتباعها لو كانت متوافرة . وبدلا من الطائرات ، فاننا ركبنا سيارة مما يصلح للاسفار البعيدة (Station Wagon) وسرنا بها – كنا ستة وشابين من العمال البدو – من غزة مروراً بالقدس وعمان ، عبر دروب وعرة غير ممهدة عدا مسافة قصيرة قرب القدس(١). ولكن الرحلة كانت نوعاً من المغامرة تصل غايتها

---

(١) هكذا كانت الحال في ذلك العهد . اما اليوم فالوصول الى البتراء اصبح في غاية السهولة لمن يرغب في زيارتها ومشاهدة آثارها ، فالمسافر يستطيع ان يقطع المسافة بالسيارة من عمان الى معان ثم الى قرية وادي موسى – عبر طريق معبدة حديثة – في ثلاث ساعات فقط ، بل ان السيارة تستطيع الوصول على الطريق المعبدة حتى مدخل السيق نفسه اذا رغب الزائر ان يأخذ فرس الركوب من هناك . وفي ١٩٦١ دخل الدكتور عوني الدجاني الى مدينة البتراء عبر السيق الضيق نفسه بسيارة (لاند روفر) ودخل مرة ثانية بسيارة من طراز (اوستن) ولكن مدير الاثار لا يميل الى تشجيع العبور من السيق بالسيارات ، لان ذلك يفقد الزيارة كثيراً من روعتها وسحرها ، كما ان الزائر لا يتمكن من مشاهدة الجبل المرتفع الى جانبيه ارتفاعاً مدهشاً.

وقد قامت دائرة السياحة ببناء استراحة واسعة قبل مدخل السيق ، حيث يقيم موظفون مختصون وادلاء من دائرتي السياحة والآثار لتسهيل الزيارة واتخاذ الترتيبات المناسبة. ومن مشاريعها تين الدائرتين للمستقبل : انشاء عربات على النمط الروماني او النبطي تجرها الخيول للطواف بالزائرين في معالم الآثار .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القصوى في البتراء ، حيث لم يشعر اي واحد منا انه خدع او خذل . . لان البتراء تشتمل حقاً على كل ما تكتبه عنها وكالات السفر — فيما عدا اللون الاحمر الوردي — فالحجر الرملي في أغلبه ذو لون أحمر غامق ماثل الى الصفرة ، تتخلله في بعض المواضع عروق رائعة من الالوان الصفراء والرمادية والبيضاء (١) .

اما الموقع الوحيد الذي نستطيع ان ندعوه (احمر وردي) فهو الخزنة ، وانا لااعرف على الاطلاق منظراً يساوي في روعته المسّرة الاولى التي تشاهد فيها هذه الواجهة الضخمة المنحوتة في الصخر وهي تتوهج وتتألق في ضوء الشمس الساطع — بعد ان يخرج المرء من ظلمة الشق العظيم الذي يؤدي الى المدينة . ولقد زرت البتراء زيارات عديدة حتى الآن ولكن روعة الرؤية الاولى التي تأخذ باللب ، ستبقى دائماً ابداً ماثلة في ذهني . أما فيما يتعلق بالخزنة فان كثرة التردد عليها لاتقلل من تأثيرها ، لان المرء في كل مرة يزور فيها البتراء يجد نفسه مسوقاً الى التوقف عن المسير والتفرس فيها مندهشاً ، كأنما يراها للمرة الاولى ، فتبهره خطوط النحت بحدّتها وصفائها كما تبهره روعة الصخر المتوهج .

على ان البتراء في واقع الامر تبدأ في وادي موسى ، وهو احد المواقع التقليدية التي يعتقد بأن موسى ضرب فيها الصخرة فتفجر منه الماء ، وكذلك في قرية (الجي) التي تقوم منازلها على انقاض احدى الضواحي المجاورة لمدينة البتراء. وتتزود القرية من مياه النبع لغزيرة ، ولكن هذه المياه لا تصل الآن في جريانها الى البتراء . ومن المحتمل ان جانباً كبيراً من اعمال التجارة والاعمال الاخرى كان يتم هنا ، بدلامن ان تنحدر قوافل الجمال المتعددة عبر الشق الضيق الوعر الى مدينة البتراء نفسها . . ان الذي يقف على الجبال المحيطة لا يستطيع مشاهدة المدينة ، ولكن منظر المنطقة من عند عين الماء في فصل الربيع رائع ومدهش ، فالجبال ذات الحجر الجيري والقمم المنبسطة ، تختفي على حين غرة ، لتحل محلها لوحة فسيحة تنتظم فيها قمم الحجر الرملي الشعثاء بألوانها البيضاء والبنية والحمراء ، بينما تبدو سيناء بعيداً في ضبابية الافق الازرق. وانك لترى الاشجار بين الصخور في المنحدرات ، حيثما تستطيع ان تعثر على موضع لها وماء كافياً يحفظ لها الحياة . وما اشبه الانطباع العام الذي يتركه هذا المنظر في النفس بالتأثير الذي تبعثه لوحة فنان بارع رسم عليها منظراً من المناظر الطبيعية في بلاد الصين .

---

(١) قال الشاعر العربي : من اصفر وأحمر وبني ألوانه تعشي عيون الجن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم يكن العالم الغربي يعرف شيئاً عن هذه المدينة الفريدة خلال الفترة التي تقضّت بين فترة الحروب الصليبية حوالي سنة ١٢٠٠ ب.م. وبين سنة ١٨١٢ عندما قام رحالة انكليزي ـ سويسري شاب اسمه بركهاردت بالكشف عنها مجدداً .. كان هـذا الرحالة يطوف في اقطار الشرق الاوسط بتكليف من جمعية انكليزية مهتمـة بالمعرفة ، وكان آنذاك يقـوم برحلته من القاهرة الى دمشق الشام ، وهي رحلة كانت محفوفة بالمخاطر حافلة بالمتاعب في ذلك الحين . وبينما كان يمضي ببطء في طريقـه عبر الاردن ، بدأ يسمع من دليله وزائريه حكايات عن آثار عجيبة غريبة مختفية بعيداً بين الجبال.. انه يذكرها لأول مرة في دفتر يومياته بتاريخ ٢٢ آب اذ يقول : انه شديد الرغبة في زيارة وادي موسى وآثاره بعد ما سمـع الناس يتحـدثون عنها باعجاب بالغ . وكان يرغب في الذهاب رأساً من وادي موسى الى القاهرة دون ان يمر بالعقبة ، ولكن دليله أصّر على اتخاذ الطريق الابعد بسبب المخاطر التي تحف بالطريق الاخرى . وفيما يلي نبذة مما جاء في يومياته :

« ان الطريق من الشوبك الى العقبـة ، وهي لا بأس بها ، تقـع الى الشرق من وادي موسى . وحيث ان خروجي عنها بحجة مجرد الفضول لرؤية الوادي كان سيثير الشكوك في نفوس العزب (البدو) فانني عمدت الى الحيلة متظاهراً بانني كنت نـذرت بأن اذبح شاة على اسم هارون الذي كنت اعرف ان قبره يقوم على الطرف الابعد مـن الوادي . وقد قدرت ان هذه الخطة ستتيح لي مشاهدة الوادي في الطريق الى الضريح . ولم يعارض دليلي هذا الاقتراح ، خوفاً من ان تجلب عليه المعارضة سخط هارون » .

ومرّ بركهاردت في طريقه بمضارب الفلاحين في (وعيرة) وهـو قصر من عهد الصليبيين قرب وادي موسى . وارشده هؤلاء الى عين موسى حيـث حاولوا اقناعه بتقديم الذبيحة الى هارون عندها كما يفعل الحجاج الاخرون ، لان الضريح يبدو للعيان من هنا رغم انه بعيد جداً .

وكان من الطبيعي ان يرفض بركهاردت ذلك الاقتراح بعد ان اصبح قريباً من هدفه حتى هذا المدى . وأخيراً عندما بلغ قرية (الجي) وجد شخصاً ليمضي معـه دليلا الى ضريح هارون ، ولكي يحمل الشاة وقربة الماء الضرورية . وعندما بدأ ينحدر من القريـة كتب في دفتر يومياته « هنا تبدأ الاثار » ولكنه لم يتمكن من الوقوف عنـد الآثار وإمعان النظر فيها بسبب شكوك دليله . وعلى اية حال فانه شاهد الاضرحـة المربعة المتفرقة هناك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وضريح المسلة (Obelisk) قبل ان يعجله الدليل على المضي في طريقه عبر السيق الى البتراء : واستطاع بركهاردت على نحو ما ان يلج الى داخل الخزنة ، لانه رسم في كتابه مخططاً معقولا جداً لها ، ولا بدّ ان قدرته على الاقناع كانت عظيمة ، لانه استطاع كذلك ان يرى الاضرحة التي نعرفها اليوم باسم (الجرة URN) والاضرحة الكورنثية ، حيث قطع الوادي منها الى منطقة الآثار والهيكل الروماني . ولكن يبدو ان فضوله أثار شكوك الدليل فاتهمه بانه يبحث عن الكنوز وهدده ببندقيته . ومهما يكن من شيء فان بركهاردت واصل سيره حتى وصل الى (البرّه) وهي تقع مباشرة الى الجنوب من ام البياره ، حيث يستطيع الواقف عندها ان يرى بوضوح الضريح القائم على قمة جبل هارون . وكانت الشمس قد غربت حينذاك . ولما كان قد انهكه التعب كما قال ، فانه اعتزم ان يقدم الضحية هناك . وبعد ان فعل هذا ، كان عليه ان يعود حالا الى قرية (الجي) في غلس الظلام . ولذلك تعذرت عليه مشاهدة أية آثار اخرى . ولكنه يعلق مستنتجاً « . . . يبدو من المحتمل جداً أن آثار وادي موسى هي بالذات آثار البتراء القديمة ، ومما تجدر ملاحظته ان يوسيبيوس يقول ان ضريح هارون يقوم قريباً من البتراء ». ويبدو ان احد الاسباب التي جعلت الاهلين لا يرغبون ان يشاهد الاجانب هذا الموقع — انهم كانوا يخشون قدوم هؤلاء الاجانب باعداد كبيرة ، مما قد ينتج عنه التدخل في وسائل معيشتهم ومصادر رزقهم ، التي يبدو ايضاً انها لم تكن مشروعة دائماً . وكان هذا هو ما حدث بالضبط بعد ان عاد بركهاردت الى بلاده وأنبأ العالم عن اكتشافه مع انه من المشكوك فيه ان يكون الزوار قد تدخلوا كثيراً في نشاطات القرويين . اما في هذه الايام فان القرويين يفعلون كل ما في وسعهم لتشجيع الاجانب على المجيء ، لأن جانباً كبيراً من موارد رزقهم يعتمد على المواسم السياحية الطيبة .

والواقع ان زيارة البتراء كانت حتى عام ١٩٢٥ تكاد تكون مقصورة على الرحالة الاثرياء او اولئك الذين لا يهابون المخاطر ، لان السكان المحليين في تلك المنطقة ظلوا على موقفهم غير الودي ردحاً طويلا من الزمن ، بل انهم قاموا بتقتيل أفراد أول مخفر للشرطة أنشأه الجيش العربي فيها لحماية الزائرين . وانك لترى الفرق واضحاً في ان الآنسة ديانا كركبرايد استطاعت ان تقضي هناك عام ١٩٥٦ مدة ستة أشهر بمفردها مسؤولة عن الحفريات ، دون ان تتعرض لأية مصاعب ، اللهم سوى احتجاجات متفرقة من شخص او آخر يعتقد ان له الحق في ان يعمل في الحفريات ويريد ان يعرف لماذا لا يتاح له مجال العمل على ان السهولة النسبية وحالة الأمن اللتين تتوافران للزائرين في أيامنا هذه — لا تقللان أبداً من أهمية البتراء ولا تجعلان مشاهدتها أقل إستثارة للنفوس ، فالبتراء فريدة حقاً ولا مثيل لها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تاريخ البتراء القديم :

ما يزال الغموض يكتنف تاريخ البتراء كما كان هذا الغموض نفسه يكتنف موقعها في العصور السالفة . ولكن بفضل الحفريات الحديثة التي اجرتها الآنسة كركبرايد ، فاننا صرنا الآن نعرف شيئاً عن قصتها في أوائل عهدها . فلقد تم العثور على ادوات مما كان يستعمله انسان العصر الباليوليثي ، وهذه الادوات عبارة عن المعاول اليدوية المعتادة وقد وجدت على منحدرات بعض الجبال العالية. ولكن الآنسة كركبرايد عثرت في واد بعيد يعسر الوصول اليه في قلب البتراء ، على كهف صخري يرجع عهده الى الفترة الباليوليثية القصوى ، اي حوالي عشرة الآف سنة ق . م . حيث يبدو ان انسان ما قبل التاريخ كان يعيش في هذا المأوى جانباً من السنة على الاقل خلال فترة طويلة من الزمن. ولقد عثر في هذا الكهف على ادوات صوانية وغيرها مما كان يستعمل في ذلك العهد . وقد وجدت أيضاً سكنة صغيرة (Settlement) تعود الى العصر النيوليثي على الطريق المحاذيـــة (البارد) وهي ضاحية شمالية للبتراء . وفي هذه السكنة عثر على رؤوس سهام ونصال وادوات اخرى مـــن الصوان وبعضها يماثل الادوات التي عثر عليها في طبقات اريحا القديمة . حقاً لقد عثر فيما مضى عـــلى ادوات صوانية ملقاة على الأرض في البتراء ، ولكن كانت هذه هي المـــرة الاولى التي تبين فيها وجود ضياع وأماكن إقامة تعود الى ذلك العصر .

ولم يتم العثور حتى الآن على دلائل تشير الى الحياة في الفترتين التاليتين : العصـــر الخالكوليثي والعصر البرونزي ، لذلك لا نعرف شيئاً عن تاريخ البتراء خلالهما حتى العصر الحديدي. ويوجد سبب قوي للاعتقاد ان البتراء هي (سلع) المذكورة في التوراة . اضف الى هذا ان الاسم العبري والاسم اليوناني (بتراء) يدلان على نفس المعنى « الصخر » مع ان كلمة سلع في اللغة العربية تعني بالتدقيق الشق في الصخر ، وهذا الاسم اكثر تطابقاً مع طبيعة البتراء وموقعها . ونحن نفهم من اقوال التوراة ان سلع تقـــع في مملكة أدوم القديمة التي كان يسمى سكانها الاصليون (حوريون) او سكان الجبال ، وهم الذين طردهـــم الادوميون وحلوا محلهم ، حتى جاء الانباط فطردوا الادوميين بدورهم واستولوا عـــلى بلادهم . وتروي التوراة ان (امصيا) ملك يهوذا احترب مع الادوميين في معركة كبيرة والحـــق بهم الهزيمة وذبح عشرة الآف منهم على ارض المعركة (او عشر عائلات لأن الكلمة العبرية تعطي كلا المعنيين) وأخذ عشرة الآف آخريـــن (او عشر عائلات) الى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصخرة (سلع) التي استولى عليها « وطرحهم عن رأس سلع فتكسروا أجمعين » (١) . وقد وجدت على قمة (ام البيارة) وهي أعلى القمم الضخمة بين جبال البتراء غربي الهيكل – بعض الدلائل الثبوتية على اقامة الانسان أثناء العصر الحديدي (حوالي القرن التاسع ق.م . ولكن يبدو ان البتراء كانت تستعمل كملجأ اكثر منها سكنة للاقامة الدائمة . ولا بد ان الاسرى قذف بهم من أعلى هذه القمة .

الانباط العرب :

وتجمع الروابط المتينة في التاريخ بين الانباط والبتراء ، ذلك لأن الأنباط هم أول من بدأ الاقامة فيها بصورة جدية . وهم الذين اخذوا يبتدعون نماذج خاصة بهم من فنون البناء والنحت وصنع الفخار وزخرفة الحجارة . وربما كانت صناعة الفخار اعظم انجازاتهم الباهرة . رغم انها كانت صناعة شائعة بينهم وما يتضح من عدم تقديرهم لها تقديراً خاصاً . ذلك لأن فخارهم كان من الرقة ودقة الصنع بحيث لم يكن يقارنه في ذلك الا افضل انواع الخزف الصيني (البورسلين) . لا بل ان فخار الانباط كان اكثر امتيازاً من البورسلين من بعض النواحي ، لأنه كان يطرح على الدولاب ويلف ، او يصقل املس فيما بعد ، بينما يصب البورسلين في القوالب . اضف الى هذا ان اكثر مصنوعاتهم الفخارية شيوعاً ، كانت الجفنة المفتوحه ، وهي اكثر اشكال الفخار صعوبة في الصنع على الدولاب حتى لو انها صنعت بقدر كاف من السماكة . وانك لترى الصفحة الداخلية لهذه الجفان مزدانة بنقوش بالغة الدقة ومدهونة بدهان اسود او بني غامق . كما ان طبيعة صناعاتهم ونماذجها كانت متناسقة متماثلة الى حد يستطاع معه التعرف بثقة تامة حتى على القطع الصغيرة من فخارهم حيثما وجد .

وينطبق هذا التناسق ايضاً على طريقتهم لزخرفة الحجارة وصقلها ، اذ كانوا يستعملون زميلا ذا طرف واحد ويبدأون النحت على مقياس الدرجة ٤٥ من الزاوية ، فوق وجه الحجر او العمود او وجه الصخر او على اي شيء يريدون قطعه وتغيير شكله . ولا حاجة للقول ان أمثلة عديدة على هذا يمكن ان تشاهد في البتراء .

---

(١) اخبار الايام الثاني ٢٥ : ١٢

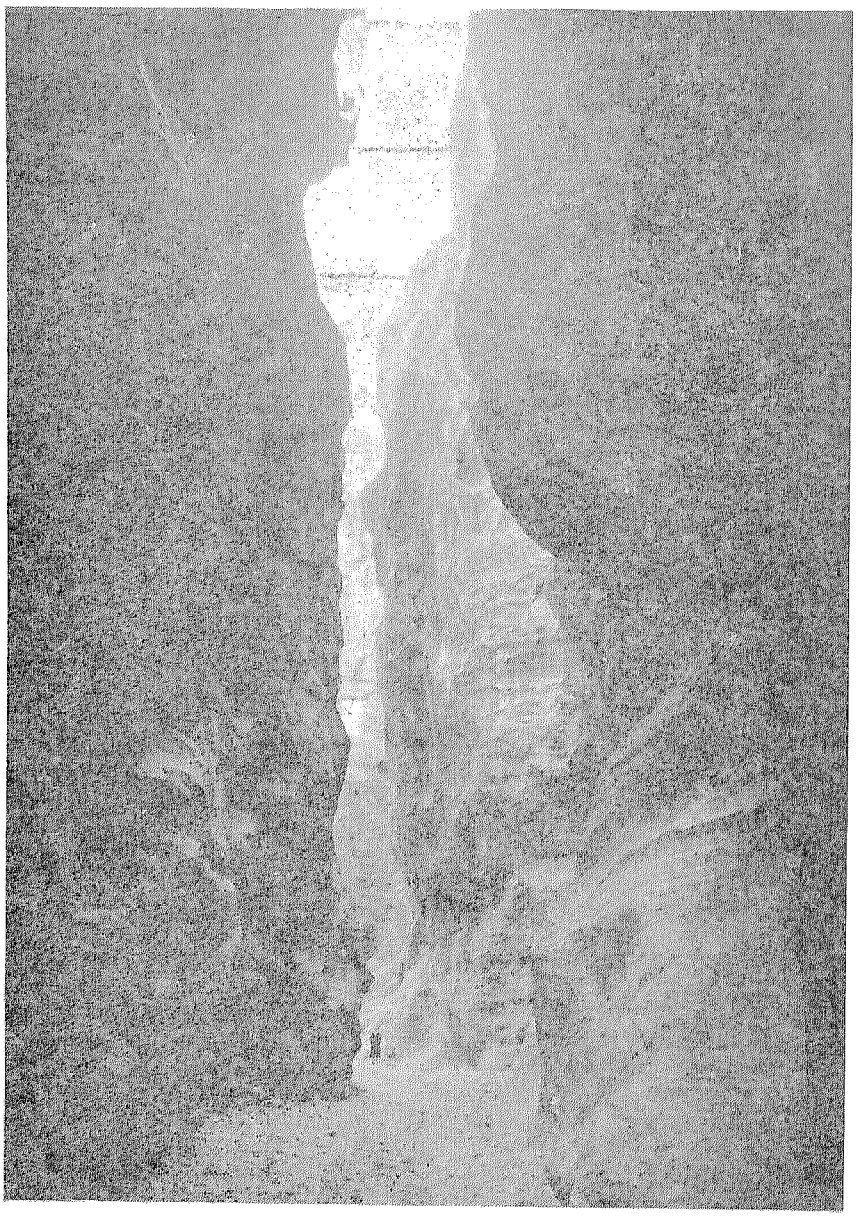

« مدخـــل البتراء »

الذي تسميه العامـــة (السيق) ، ولعله لفظ نبطي متوارث ، تحرف عن كلمة (الشق) ، في السبئية القديمة ، (ام النبطية) ، كما يؤكد الباحثون .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتابة الانباط :

وكان للانباط ايضا حروفهم ولغتهم الخاصة بهم ، اما الحروف فتتشابه نوعاً ما مع لحروف العبرية لذلك العهد ، ولكن من الغريب انها متطاولة عمودياً وقد اعتاد الانباط ان يعلقوا بعض الحروف ببعضها الاخر ويكتبوها متلاصقة بسبب اشكالها المستطيلة ، وهذا ما يجعل قراءة كتاباتهم عسيرة جداً . اضف الى ذلك ان كتاباتهم ليست كثيرة لسوء الحظ ، فلم يكتشف منها سوى بعض الكتابات الغشيمة المنقوشة على الصخور . واطول كتاباتهم المعروفة وجدت على اوراق البردي النبطية في مغارة على شاطىء البحر الميت شرقي بيت لحم . ويمكن للمرء ان يشاهد كتابة نبطية طويلة واحدة في البتراء على ضريح التركمانية وعلى أيا حال فان الكتابة الكوفية ومن بعدها الكتابة العربية تعود في اصلها الى حروف الانباط ، اما اللغة فيبدو انها كانت احدى اللهجات الارامية التي تأثرت تاثراً قوياً باللغة العربية ، لذلك نرى ان معظم اسماء الاشخاص عندهم هي اسماء عربية .

آلهة الانباط :

وكان (ذو الشرى) و (اللات) هما الآلهة الكبرى عند الانباط . اما ذو الشرى فكانوا دائماً يجسّدونه على هيئة كتلة من الصخر او عمود بينما كانوا كثيراً ما يقرنون اللات بالينابيع والماء . وكلمة (دوشارا) نابعة من الكلمة العربية (ذو الشرى) . والشراه هي الجبال الواقعة قريباً من البتراء وهي ما تزال محتفظة بهذا الاسم حتى اليوم . اما في التوراة فيطلق عليها اسم (سعير) وهي نفس كلمة الشراه — وتصف التوراة (يهوه) بانه (أشرق من سعير) أي انه دوشارا نفسه . وكان يهوه يقيم في بيت من الحجر ، يدعى احياناً بيت أيل — بيت الله — وكانت هياكله الكبرى تقوم في الاماكن المرتفعه ، مثله مثل دوشارا .

ويبدو ان الانباط انفسهم كانوا في الاصل قبيلة عربية كبيرة ، احتلت الجزء الشمالي — الغربي من جزيرة العرب وهو الجزء الذي كانت تمر فيه القوافل المحملة بالبخور والبهارات قادمة من حضرموت في الجنوب . ومن المحتمل ان رجال هذه القبيلة كانوا في بادىء الامر يهاجمون القوافل وينهبونها ، ولكن بعد ان تمكنوا وأصبحوا اكثر قوة وبأساً ، فأنهم كما يبدو اخذوا يجبون من هذه القوافل نوعاً من الضريبة ضماناً لسلامتها وحمايتها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونرى ان اول مرة سجّل التاريخ فيها ذكراً للانباط كشعب من الشعوب . ورود
مهم في قائمة اعداء اشور بانيبال ملك اشور في سنة ٦٤٧ ق . م . ولكن البتراء في ذلك
قت كانت ما تزال بأيدي الأدوميين الذين ظلوا يقيمون فيها بعد ذلك طوال قرن من الزمن
ن الاقل . وليس بالمستطاع حتى الآن التثبت بصورة مقنعة من التاريخ الذي بدأوا فيه
امتهم في البتراء . ولكن الكاتب الكلاسيكي ديودوروس الصقلي ، يذكر بعض المعلومات
ن البتراء ، مستنداً في ذلك الى كاتب آخر قبله ، قد نضع كتابه حوالي السنة ٣١٠ ق. م ؟
، يدعوها باسم « الصخرة ... في غاية المناعة ولكنها بدون اسوار » ويحتمل ان يشير
كاتب بهذا الى (ام البيارة) . ثم يمضي الى اعطاء معلومات طريفة عن « العرب الذين
رفون باسم الانباط » . ومن جملة الاشياء التي يحدثنا عنها ان هؤلاء الانباط اتخذوا لهم
نّة « ان لا يزرعوا قمحاً ولا يغرسوا أشجاراً مثمرة ولا يشربوا خمراً ولا يبنوا بيتاً » .

ويسجل لنا ديودوروس انباء الحملة العسكرية التي قادها انتيجونس حاكم سوريا
وناني ، لكي يخضع الانباط . وفي هذه الحملة تمكن انتيجونس من احتلال الصخرة ،
ن جميع الشبان الانباط كانوا يحتفلون بمناسبة عظيمة في مكان غير بعيد . وقد قام اليونان
تل عدد كبير من الشيوخ الذين ظلوا في منازلهم وكذلك النساء والاطفال ، ثم تراجعوا
سرعة بما غنموا من اللبان والمر وحوالي ٥٠٠ وزنة من الفضة . على ان الرجال الغائبين لم
كونوا بعيدين جداً ، لان انباء الحملة الغازية بلغتهم خلال ساعة او ساعتين . لذا فانهم
ادوا وشاهدوا ما احدث الغزاة من دمار وتقتيل ، ثم سارعوا للحاق بالجيش اليوناني ،
ذي لم يكن يتوقع ان يعود العرب بسرعة وظن انه في مأمن من الهجوم فتراخى في تعيين
لحرس والرقباء . وقام الانباط بالهجوم فاستولوا على المعسكر اليوناني ونهبوه بعد ان
لوا معظم الجنود حتى لم ينج سوى خمسين من مجموع اربعة الآف . وعند عودة الانباط
ى الصخرة بادروا فبعثوا برسالة الى انتيجونس يشرحون له ما حدث لانهم كانوا يرغبون
- كما يبدو - في ان لا تزداد العلاقات سوءاً بينهم وبينه . وتظاهر انتيجونس بالاقتناع
أعلن لهم صداقته ، بينما كان في الواقع يعدّ العدة لمهاجمتهم مرة اخرى ، وفعلا لم يطل
وقت حتى زحفت قواته وعلى رأسها ابنه ديمتريوس . على ان الانباط لم ينخدعوا
قوال ديمتريوس فلم يلدغوا مرة ثانية بسبب يقظتهم واستعدادهم ، وكان من جملة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تدابيرهم الاحتفاظ بمخافر مراقبة امامية لكي تحيطهم علماً بقدوم العدو . وعندما جاءتهم الانباء بأن جيشاً يزحف نحوهم بادروا الى تحميل امتعتهم ، واودعوا كل مالم يستطيعوا حمله في (الصخرة) تحت حراسة حامية قوية ، ثم تفرقوا في الصحراء . وفشل ديمتريوس كلياً في الاستيلاء على (الصخرة) وفي النهاية رضي بالعودة من حيث اتى مع ما قدم له الانباط من هدايا ثمينة .

نستدل مما تقدم انه لم تكن هناك مدينة قائمة بذاتها في البتراء خلال القرن الرابع قبل الميلاد . ولكن اعمال التنقيب كشفت عن قطع صغيرة من اصص فخارية للزهور ذات طابع يوناني ويعود تاريخها الى حوالي سنة ٣٠٠ ق.م. وقد عثر على هذه القطع متناثرة على تلال النفايات الى الجنوب مباشرة من العمود الواقف (عمود فرعون) ، مما يدل على وجود مدينة في اول مراحل عمرانها على الاقل خلال تلك الفترة . وبالاضافة الى ماتقدم ظهرت بينات على وجود جدارين كانا يضمان في نطاقهما مساحة واسعة من جانبي الوادي ، ويرجح انهما يرجعان الى هذه الفترة . ولكن ربما انشأ الانباط الجدارين بعد عقد الصلح مع انتيجونس.

اما سترابو وهو الكاتب الكلاسيكي الآخر الذي يشير الى البتراء ، فقد حصل على معلوماته من شخص يدعى (اهنودورس) الذي كان صديقاً ومعلماً للامبراطور اغسطس ، وكان قد ولد في البتراء . انه يصف الانباط ومدينتهم كما كانت في القرن الاول قبل الميلاد . ونرى ان الوصف يطابق مطابقة دقيقة المكتشفات الاثرية التي نحصل عليها اليوم . واليك ترجمة لما جاء في كتاب سترابو :

« يمتاز الانباط باعتدالهم وجلدهم ، حتى انهم يفرضون عقوبة علنية على كل شخص تتناقص ثروته ، اما الشخص الذي ينمي ثروته فيزداد تكريماً وشرفاً . واذ ان الانباط لا يقتنون سوى عدد قليل من العبيد ، فانهم يستخدمون اقاربهم في اعمالهم ، او يخدمون بعضهم بعضا ، او يخدمون انفسهم بانفسهم ، حتى ان الملوك يتبعون هذه العادة . وهم يؤلفون مآدب للطعام يضم كل واحد منها ثلاثة عشر رجلا مع فتاتين تجيدان الغناء. ويقيم الملك في منزله الكبير مآدب طعام عديدة . وفي هذه المآدب لايشرب الشخص اكثر من احد عشر كأساً لكل مادبة ثم يزيد عليها باطية ذهبية اخرى . وهكذا ترى ان الملك ديمقراطي ، فبالاضافة الى قيامه بخدمة نفسه ، فانه يقوم بخدمة الاخرين ، كما انه كثيراً ما يقدم حساب نفقاته الى الشعب ، واحياناً اخرى يجري التدقيق في مسلك حياته . اما مساكن

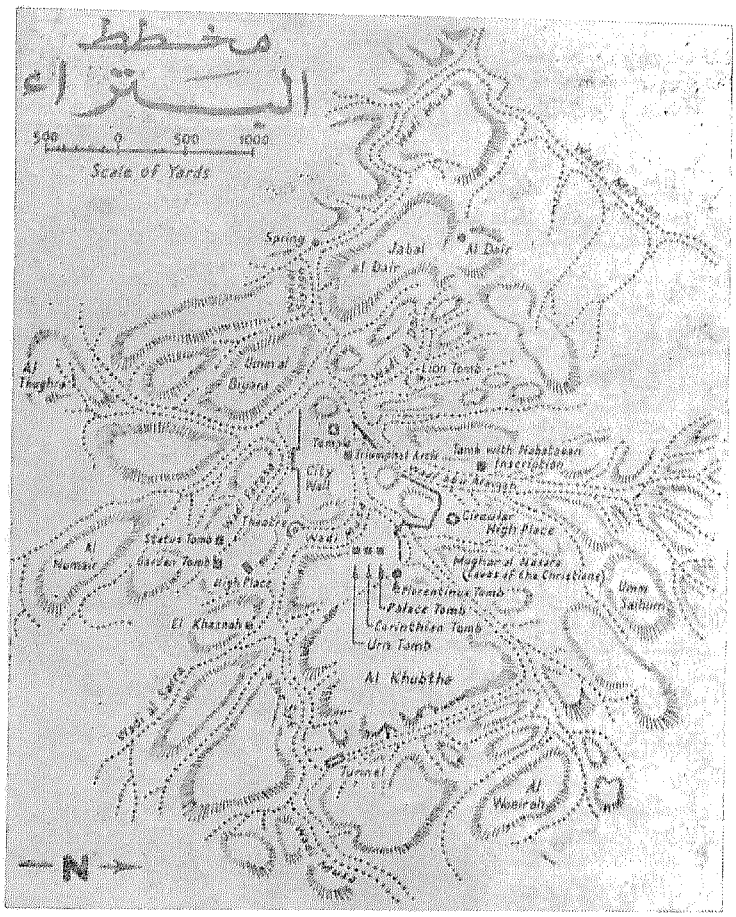

مخطط مدينة البتراء : على النحو الذي كانت قائمة عليه ، بعد أن ينقسم لها الوادي باسطاً ذراعيه عند نهاية (السيق) ، وحين تمتد معه وهو يتسع قليلاً قليلاً ، وعلى جانبيه (المدرج العام) على شمال الداخل ، والمحكمة فالقصر على يمينه ، ثم بيوت الرعية في الجانبين . : الى ان يصل قوس النصر ، فالشارع العام ، فقصر البنت ، فاقسام المدينة الوردية الباقية ، عند شعاب الوديان ، وعلى الذرى المطلة عن يمين وشمال . . (رسالة المعلم)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأنباط فهي منشآت ضخمة من الحجر ، ومدنهم غير محاطة بالاسوار بسبب حالة السلم والأمن السائدين في بلادهم . وتكثر الثمار في اراضيهم باستثناء الزيتون ، وهم يستعملون الزيت المستخرج من السمسم . واغنامهم بيضاء الشعر ، وثيرانهم كبيرة ، وليس في بلادهم خيول لذلك يستعيضون عنها باستخدام الجمال . حتى الملوك يخرجون وهم يرتدون بزات لا احزمة لها ، وبالنعال ، ولكنهم يصنعون بزاتهم من الارجوان . وهم لا يقيمون وزناً لجثث الموتى ولا يفضلونها على الزبل . وفي هـذا يقـول هيراكليتوس « ان جثث الموتى خليقة بان تطرح بعيداً اكثر من اكوام البعر . لذا فانهم يدفنون موتاهم حتى ملوكهم الى جانب المراحيض ، انهم يمجدون الشمس فيقيمون لها هيكلا في منازلهم ، ويسكبون الخمر عليها يوميا ويحرقون امامها البخور . وعاصمة الانباط هي المسماة بتراء ، لانها تقع على ارض مستوية ومنبسطة عموماً ولكن تحميها الجبال الصخرية من جميع الجوانب ، وهذه الجبال سحيقة الانحدار من الخارج ويعتريها الجفاف ، ولكنها من الداخـل كثيرة الينابيع ومن مياهها يستقي النـاس ويروون البساتين » .

وفي اقوال سترابو بعض عبارات لا تنطبق عـلى الاحوال السائدة في أيامنا هذه ، خاصة فيما يتعلق بجثث الموتى . فالاضرحة العديدة المنحوتة بعناية واتقان تـدل على احترام كبير للموتى . وهذه الاقوال تدلنا ايضاً على ان البتراء خـلال القرنين الثالث والثاني قبـل الميلاد ، كانت تنمو في عمرانها نمواً مضطرداً حتى اصبحت قاعدة لتجارة القوافل القادمة من جزيرة العرب . والواقع ان موقع البتراء كان ملائماً جداً لتوزيع البضائع في فلسطـين والبحر الابيض المتوسط ومصر وسوريا .

ملوك الانباط :

ان اول ملك من ملوك الانباط يذكره التاريخ هو الحارث الاول . « حوالي اواخر القرن الثاني قبل الميلاد » . والى حمى هذا الملك لجأ جاسون كبير كهنة اليهود في القدس ، بعد طرده من بلاده . وتغلب الملك عبادة الاول حـوالي سنة ٩٠ ق . م . عـلى اسكندر جانوس حاكم فلسطين وهزمه في ميدان القتال ، واسترد موآب وجلعاد اللتين كان اسكندر قد استولى عليهما سابقـاً . واننا لا نرى ذكراً لعمون ، ولكن اعمال التنقيب كشفت في اضرحتها عن فخار نبطي يعود للقرن الاول قبل الميلاد . وهكذا فان شرقي الاردن كلها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا بد ان تكون قد خضعت لحكم الانباط خلال ذلك العهد . واثناء حكم الحارث الثالث ابن عبادة ، اتسعت المملكة حتى بلغت دمشق . وقد اهتم هذا الملك بالاحداث السياسية في فلسطين اهتماماً كبيراً ، حتى ان القائد الروماني بومبي ارسل حملة عسكرية ضد البتراء بقيادة القائد سكاوروس ، ولكن الانباط نفذوا مرة اخرى الخطط التي استعملوها مع ديمتريوس ، فابتاعوا القائد (بالهدايا) واحتفظوا باستقلالهم .

ووقف الملك التالي ، مالكوس (مالك) الثاني ، الى جانب الفرس عندما اشتبكوا في الحرب مع روما ، وعندما لحقت الهزيمة بالفرس اضطر الانباط الى ان يدفعوا الجزية للرومان (حوالي سنة ٤٠ ق . م) . وبعد هذا قدم مارك انطونيو جزءاً كبيراً من بلاد العرب ، ومن ضمنه مملكة الانباط ، هدية الى كليوباترا ، فتحول دفع الجزية اليها . واخذ مالكوس يتباطأ في تقديم الدفعات ، فتحالف هيرودس الكبير مع كليوباترا وقامت قواتهما بمهاجمته ، ولكن الهزيمة لحقت بهيرودوس نتيجة لاعمال الخيانة . غير انه لم يلبث عام ٣١ ق . م. ان حقق نصراً كبيراً واستولى على جانب واسع من بلاد الانباط . وعند وفاة مالكوس خلفه الملك عبادة الثالث الذي حكم من سنة ٢٨ ق .م . الى سنة ٩ ق.م.وفي عهده اعد الامبراطور اغسطس حملة عسكرية لمهاجمة بلاد العرب . وقد عرض ساليوس (صالح) رئيس وزراء الملك عبادة ، ان يكون دليلا للجيش في زحفه عبر الصحراء ، ولكنه سار بالجيش في اكثر الاماكن وعورة واشدها جفافاً ، حتى ان عدداً عظيما من الجنود ماتوا عطشاً . ولقد دبّر عبادة مكائد كبيرة مع قيصر ضد هيرودوس ، لانه رغب ان يتزوج سالومي اخت هيرودس ولم تقابل رغبته بالموافقة (١) . ولكن هذا كله لم يكن له اي اثر على البتراء التي استمرت تجارتها في الازدهار .

اما الحارث الرابع الذي خلف عباده ، فقد تولى عرش الانباط من سنة ٩ ق. م .حتى سنة ٤٠ ب.م .وكان يسمي نفسه (راحم امة) اي محب شعبه ، وكان عهده عهد رخاء يسوده السلام على وجه العموم . والحرب الوحيدة التي خاضها كانت ضد هيرودس انتيباس ابن هيرودس الكبير . وكان انتيباس هذا قد تزوج ابنة الحارث ، ولكنه اراد بعد ذلك ان يطلقها لكي يتزوج هيروديا زوجة أخيه ، وقد رد الحارث على هذه الاهانة الموجهة الى عائلته بالاشتباك مع انتيباس في معركة وألحق به الهزيمة . على ان الرومان كانوا يعاضدون

(١) سالومي ليست اخت هيرودس بل هي ابنة زوجته مريمنا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هيرودس انتيباس وبدأوا يزحفون نحو البتراء لكي يأخذوا بالثار . ولكن اثناء ذلك مات الامبراطور طيباريوس فارتد الجيش الزاحف عائداً . والحارث هـذا هو الذي يذكره الانجيل لان عامله كان حاكما على دمشق اثناء سجـن القديس بولس الذي نجا من السجن بواسطة زنبيل تدلى به من النافذة . واثناء حكـم نيرون (سنة ٦٧ ب .م) بعث مالكوس الثالث قوات لمساعدة الرومان ضد اليهود . ولكننا لا نكاد نملك اية معلومات عـن البتراء حتى عهد آخر ملوكهم رابل (رئبال) الثاني الذي توفي سنة ١٠٦ ب. م .والذي اصبحت البلاد بعد وفاته مقاطعة رومانية . فلقد استولى الرومان على مدينة البتراء واعادوا تنظيمهـا على النسق الروماني التقليدي . وشمل هـذا انشاء شارع رئيسي تحيط الاعمدة بجانبيه ، وكذلك معالم التجميل الرومانية المعتادة . وقد تم الكشف حديثاً عن جانب من هذا الشارع .

واستمرت مدينة البتراء في ازدهارها مدة من الزمن ، واننا نـرى كتابة على ضريح احد حكامها الرومانيين نستدل منها ان مـن جملة المهام الـتي كان يقوم بها ، انه كان مسؤولا عن سك النقود . ولقد كانت النقود النبطية تصنع دون شك عـلى النمط الروماني واليوناني ، ولكن من الحقائق الغريبة انه لم يعثر حتى الآن على قطعة واحدة من النقد النبطي المسكوك من الذهب ، بل ان النقود الفضية نادرة جـداً . عـلى ان ثروات البتراء بدأت بالانخفاض تدريجياً نتيجة لتغيير طريق التجارة وازدهار المدينة المنافسة لهـا « تدمر » في الشمال . لذلك لم يعد المؤرخون المعاصرون يذكرونها في كتاباتهم . ولكنها سارت في السبيل الذي سار عليه تاريخ مدن الشرق الاوسط الاخرى ، واعتنقت الديانة المسيحية عند انتشارها. وتحدثنـا كتابة في ضريح (الجرّه) الـكبير ان داخليتـه تحولت الى كنيسـة في القرن الخامس ، كما ان البتراء صارت مركز اسقفية . واننا نرى من الحفريات ان شارع الاعمدة اهمل مع الزمن واخذ يندثر . ومثلما حدث في جرش نرى ان السكان الذين تعاقبـوا على البتراء بدأوا يقيمون الدكاكين الصغيرة والزرائب فوق موقـع الشارع . وفي اوائل القرن السابع عندما انتشر الاسلام في هذه البلاد ، كانت البتراء ما تزال مأهولة ببعض السكان ولكنها لم تلبث بعد ذلك ان سقطت في غياهب النسيان . وفي القرن الثاني عشر أنشأ الصليبيون فيها قلعة اطلقوا عليها اسم (سيل) وهي تسمية يبدو انها تجديد للاسم القديم (سلع) . وفيما عدا ذلك فان البتراء ظلت في عزلتها الهادئة حتى اوائل القرن التاسع عشر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الآثـــار :

على الزائر ان يترك السيارة التي جاء فيها عنـــد مخفر الشرطة في قرية وادي موسى (الجي) ومن ثم يواصل سيره على ظهر حصان او سيراً على قدميه حتى يبلغ البتراء نفسها. هذا مع العلم بانه يجري حالياً تمهيد الطريق ورصفها واعدادها لكي يتمكن الزائر في النهاية من الوصول بسيارته حتى مدخل السيق . (تمّ هذا فعلاً ــ المترجم) .

ان الدرب التي تبدأ من مخفر الشرطة تمر في وسط القرية الصغيرة ثم تنحدر في الوادي باتجاه الغرب . وفي هذا الوادي تبدو اول آثار الانباط التقليدية : فالى اليمين يوجد برجان منتصبان على شكل الاضرحه، ويرتفع هذان البرجان بجوانبهما الاربعة حوالي ثلاثين قدماً، وترى على قمتهما مدماكاً علوياً منكمشاً يجعل منظرهما شبيهاً بمنظر الحصون والقـــلاع . وبعد مسافة قصيرة ترى الى الجانب الآخر من الوادي الضريح الذي يسمى (عمود المسلّ Obelisk) بسبب وجود اربع مسلات في الطابق العلوي منه . وينحني الوادي بعد ذلك الى اليمين ،ولكن هناك درباً مستقيمة تمضي بك عبر الصخور الى ضاحية البتراء المسماة (المدرس) وهو الاسم النبطي القديم المسجل في احدى الكتابات . وهنا ترى جميع انواع الآثـــار والانصاب المماثلة لما في البتراء نفسها .

واذا ما سار المرء في الوادي الذي الى اليمين ،يقابله فجأة سد عظيم بني من كتـــل ضخمة من الصخور الرملية ، وقد انهارت بعض جوانبه . ويبدو لأول وهلة ان هذا السد يغلق طريق التقدم الى الامام ، ولكن توجد الى اليسار فتحة ضيقة او شقّ في واجهة التلة الصخرية . هذه الفتحة هي طريق البتراء التي نسميها (السيق) وبمقدور حفنة من الرجال ان يقفوا على حمايتها في وجه جيش بأكمله . وبعد ان تدخل الشق بقليل ترى فوقك بقايا متقطعا مـــن قوس النصر ، بـــل ترى قاعدة القوس في كلا الجانبين . وكان هذا القوس ما يزال قائماً حتى سنة ١٨٩٦ . تسير الطريق مباشرة مع مجرى السيل ، وكلما أوغل المرء في مسيره ازداد ارتفاع الصخور العمودية على الجانبين شيئاً فشيئاً . بينما تسود السكينة فلا يقطعها سوى وقع حوافر الجواد على الحصباء ،او تنهدات الريح من خلال اغصان الدفلى النامية هنا وهناك.

وفي بعض الاماكن ترى الصخور وهي تكـــاد تلتقي فوق رأسك . حيث يشحب الضوء وتزداد البرودة ، بينما تنفرج الصخور في اماكن اخرى فتغمر المكان اشعة الشمس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي كلا الجانبين ترى قنوات محفورة في الصخر لجلب المياه من عين موسى الى المدينة ، اما في المواقع التي تساقطت صخورها فان القناة انشئت على مداميك من الحجر. وتمضي الطريق حتى يخيل اليك ان لا نهاية لها، بينما لا تزيد مسافتها في الواقع على كيلو مترين، ولا تغير رتابة المنظر سوى أودية جانبية متفرقة قد تلمح في انفراج احدها درجاً كان يؤدي في الماضي الى منزل او معبد ما طوته أيدي النسيان في يومنا هذا . ولقد كانت الطريق كلها في الاصل مرصوفة بكتل ضخمة من الحجر الجيري الصلب . وانك لترى حتى اليوم هذه الحجارة المرصوفة في الاماكن التي جرفت فيها المياه اكداس الركام العليا. وتوجد على الجانبين محاريب صغيرة حفرت على غير نظام . وفي تجويفها عادة نماذج للاله (ذو الشرى) وهي اما كتلة من الصخر مستطيلة او مسلة ، وهذه النماذج تكون منفردة احياناً واحياناً اخرى في مجموعات .

وعندما يبدو للمرء ان لا نهاية لهذا المضيق الملتوي — فانه يقف فجأة وقد تملكته الدهشة ، اذ يلمح في مواجهته جانباً من واجهة بالغة الروعة تزينها الاعمدة والتماثيل. ان افضل الاوقات للوصول الى هنا هو ما بين الساعة العاشرة والساعة الحادية عشرة صباحاً. لان الزائر حينذاك يخرج من عتمة السوق الى حيث الشمس الساطعة تغمر بضوئها واجهة اعظم المنشآت الاثرية في البتراء : الخزنة . يا له من منظر لا ينسى طيلة العمر ، لان الصخر هنا بلون «الورد الاحمر» حقاً ، وتراه يتألق عندما تشرق عليه الشمس كأنما ينبعث الشعاع من جوانبه ، ويزداد المنظر روعة باللون الاخضر الغامق الماثل في شجيرات من الدفلى تنمو امام الخزنة. ان وجود هذا الاثر النفيس في موضع منتح عن الريح والمطر أبقى لخطوطه الجميلة نقاءها وجدتها كوحدة عامة. ولكن أيدي العبث والجهل اصابت الزخارف المنحوتة اصابات بالغة . لقد نقرت الخزنة في صميم الصخر ، مثلها مثل بقية المنشئات الكبرى في البتراء — عدا واحدة منها — وهي تمثل بناء من طابقين ، والطابق العلوي كرنيش (Pediment) مشرشر على الجانبين وكشك Kiosk مستدير في الوسط. وفوق هذا الكرنيش ترتفع جرة كبيرة احدثت فيها كسور عديدة نتيجة لاطلاق العيارات النارية عليها من قبل ناس لا حصر لهم ، وكان اولئك الاشخاص يطلقون النار لما ترامى اليهم زعما بانها تحتوي في داخلها على كنز عظيم من الذهب . ومن هنا أطلقت عليها تسمية « الخزنة » والواقع ان الجرة قطعة منحوتة من الصخر الاصم مثلها مثل بقية البناء.

لم يتفق خبراء الاثار عما اذا كانت الخزنة معبداً او ضريحاً، ولكن اكثر الادلة تميل الى تأييد القول بانها أنشئت لتكون معبداً . ولقد اصيبت التماثيل المنحوتة بعطب كبير حتى لم يعد بالامكان التعرف عليها ، مع ان بعضهم يدعي ان التمثال الاوسط هو للآلهة ايزيس .

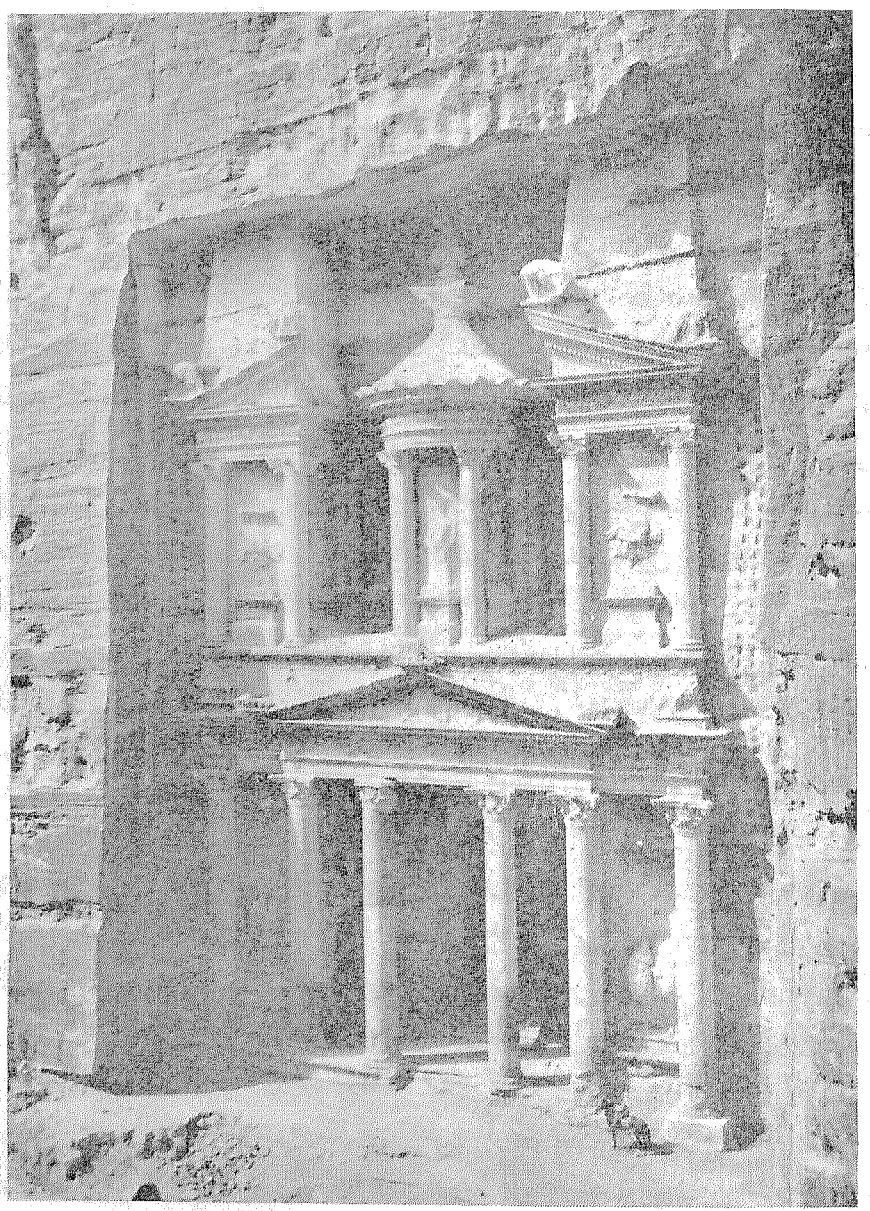

« الخزنة في البتراء »

وهي من آثار الانباط العرب ، وذلك بعد اصلاح احد اعمدتها المتوسطة الذي كان قد سقط بسبب تآكل قاعدته من الاسفل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتتألف داخلية البناء من غرفة في الوسط تؤدي الى غرفة صغيرة في الصدر يدخلها المرء على ثلاث درجات ، وغرفتين صغيريتين احداهما على الجانب الأيمن والاخرى عـــلى الجانب الايسر. على ان اهمية البناء تتجلى في واجهته وليس في داخليته ، وهذه الصفة تنطبق على جميع منشئات البتراء . ومن المرجح ان تكون الخزنة قد نقرت في اواخر القرن الثاني ب. م.(١)

وتسير مع الوادي فترى على يمينك قناة ماء هي تتمة قناة الماء المارة بالسيق ، ولكنها هنا تحولت الى انبوب مصنوع من الفخار وقد الصقت قطعه الصغيرة مع بعضها البعض وركبت كلها في ملاط من الكلس . ويقوم على الجانبين عدد من الاضرحة ، ويتميز أكثرها بعلامة « خطوة الغراب » شعار الانباط التقليدي . ولكن يجب ان لا يسود الاعتقاد بان كل كهف نقر في الصخر هو ضريح . فكثير من هذه الكهوف كان يستعمل منازل ومساكن ، حتى ان بعضها يتألف من طابقين او ثلاثة طوابق . ويمكن للمرء ان يرى على صفحات بعض الشقفان (جمع شقيف) صفوفاً منتظمة من الشوارع لتيسير المواصلات بين هذه المنازل . اما الى اليسار فيوجد المدرج الذي يتسع الى حوالي ثلاثة الاف متفرج ، وقد ادى انشاؤه الى ازالة كثير من الاضرحة القديمة او الى قطع جوانب منها . وهذا المسرح يعتبر من جملة الدلائل القليلة التي تعطينا فكرة عن الزمن التقريبي الذي انشئت فيه نماذج الاضرحة المختلفة . ومن المرجح ان يكون تحت المدرج قد تم اثناء القرن الثاني او الثالث ب . م .

بعد ان تجتاز الطريق في محاذاة المدرج ، ينحرف الوادي مباشرة الى الغرب ماراً في منتصف ارض مفتوحة ، هي الارض التي كانت تقوم عليها مدينة البتراء نفسها . انك ترى المنحدرات على الجانبين مفروشة بقطع الحجارة المنحوته ، وهي كل ما تبقى فوق الارض من هياكل المدينة وحماماتها ومنازلها. لقد كان هناك على الاقل جسران للعبور فوق مجرى السيل ، ومن المحتمل ان تكون قد انشئت عقود متصلة فوق مجرى السيل كله ، ولكن الميـــاه التي تدفقت خلال الالف سنة الاخيرة لم تترك لنا دلائل كثيرة عن الجسرين او العقود المتصلة. وفي الجانب الجنوبي من الوادي ترى مسافة من الشارع المرصوف الذي تم رفع الانقاض عنـــه مؤخراً ، وما تزال معظم قواعد الاعمدة في مواضعها على الجانب الجنوبي من الشارع ، ولكن الاعمدة نفسها تبعثرت واختفت ولم يبق منها سوى بعض الاجزاء التي اعيد استعمالها في مبان انشئت بعد ذلك . ويمكن للمرء ان يرى على حافة مجرى السيل جداراً اقيم فوق الاساسات

---

(١) كان احد اعمدة واجهة الخزنة الستة قد سقط بفعل العوامل الطبيعية ، ولكن دائرة الاثار اعـــادته الى موضعه عام ١٩٦١ ، كما ان الدائرة اعادت بناء البوابة الرومانية وقامت بتعزيـــل المدرج الروماني من الاتربة والانقاض ، ومهدت الدرب التي تؤدي الى الدير والدرب التي تؤدي الى المرقع العالي (المذبح) لتسهيل زيارتهما .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القديمة في محاولة لتخفيف الانجراف الذي تحدثه مياه السيل ، وقـد انشئت هناك بعض الغرف ولكنها اصبحت الان تحت مستوى الارض. وفي هذه الغرف وجدت كمية كبيرة من صناعات الانباط الفخارية ذات الالوان البديعة ، كما وجدت كتابات عـلى بعض القطع الفخارية ومنها كتابة على جفنة سليمة كاملة .

وقد ظهرت في طرف الجانب الذي تم كشفه وتنظيفه من الشارع — بقايا قوس مثلثة كانت فيما مضى مزدانة بالحجارة المزخرفة والنقوش المصنوعة من الملاط ، ولكن هذه البقايا اصبحت اليوم في حالة سيئة من التشويه. ويبدو على الزخارف المنحوتة في الحجر روعة الصناعة ودقتها وخاصة تلك التي صنعت على اشكال الزهور ، كما انها نماذج تقليدية للطريقة النبطية. وعلى مقربة من هذه القوس يوجد تمثال نصفي ضخم وبقايا تمثالين آخرين . ولابد ان هذه التماثيل كانت ذات يوم في واجهة احد الابنية المجاورة والتي اصبحت اليوم أثراً بعد عين . اما الطريق المبلطة فلا بد انها كانت تمر تحت القوس ، يتخللها درج كما يبدو ، وتمضي حتى تصل الى الهيكل ، اذ ما تزال بعض بلاطات قائمة في مواضعها مباشرة الى الغرب من القوس. ونستطيع من التمعن في طراز النقوش ان نقدر بان القوس أنشئت اثناء القرن الاول بعد الميلاد.

ان الهيكل القائم في سفح الشقيف الغربي يستأثر بالانتباه اكثر من سواه في الوقت الحاضر انه يدعى (قصر البنت) او (قصر بنت فرعون) وهذه التسمية ناشئة عن عادة قديمة عند العرب اذ يعزون إقامة جميع المنشاءات الضخمة الى ملوك مصر القدماء ، لاعتقادهم ان اولئك الملوك كانوا ذوي قدرة عظيمة . وهذا الهيكل هو الاثر الوحيد الباقي من بين الاثار المعمارية ، اي التي لم تنحت في صميم الجبال الصخرية . هذا مع العلم ان حالة الجدران المتداعية وكذلك القوس الكبيرة — تجعلنا نفكر بالمدة التي يستطيع خلالها ان يبقى قائماً . يبدو للباحث ان الهيكل انشيء في عهد الحكم الروماني ، ربما في اواخر القرن الثاني أو اوائل القرن الثالث ب. م . ولكن لا يوجد أي دليل مؤكد يؤيد هذا . ويتألف مخطط الهيكل من رواق يتخلله عمودان بين الجدران الجانبية ، ثم المدخل الذي تظلله القوس الكبيرة ، يليه فسحة خالية ، واخيراً الجدار الخلفي الذي يقسم الى ثلاث قطاعات ، ويبدو ان القطاعين الخارجيين منها كان يرتفع فوقهما طابق ثان . والواقع ان الجدار الخارجي نفسه انشيء مزدوجاً بحيث يبلغ الفراغ بين جانبيه متراً . وهناك ظاهرة غريبة اخرى في البناء هي وجود دعائم خشبية في الجدران ، وربما كان يقصد من هذا التدبير ان تكون الدعائم وقاية ضد الهزات الأرضية . والواقع ان هذه الدعائم كانت من الاسباب المهمة في تداعي البناء ، بعد ان اصابها التلف مع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مرور القرون . ولقد كان الهيكل كله مزداناً – على الاقل من الخارج – بالجبس المنقوش والملاط . وما تزال بقايا الجبس واضحة على ظاهر الجدار الخلفي، كما ان الالوان البراقة تبدو على بعض كتل الحجارة الكبيرة .

يقع الفندق الحديث قريباً من الهيكل ، وقد حولت بعض الحجرات المنحوتة في صخور الشقيف الى غرف للنوم . وعلى بعد مسافة قصيرة الى الجنوب يبدو ضريح لم يتم انشاؤه ،ولكن يتبين منه ان اعمال النحت كانت تبدأ من القمة وتنتهي عند اسفل الصخرة . وترى على المنحدرات الواسعة شرقي الهيكل عموداً قائماً بمفرده، انه العمود الوحيد الذي بقي في وقفته من بين اعمدة هيكل آخر ، اما الاعمدة الاخرى فتبدو ملقاة على الارض بقواعدها وتيجانها ورؤوسها ، وهي في نفس الحالة التي صارت اليها عندما القت بها الزلازل ارضاً في تاريخ لانعلم عنه شيئاً .

يمكن للزائر ان يشاهد جميع الاثار والابنية التي سبق ذكرها دون ان يتسلق شيئاً من المرتفعات ، وهناك مجموعة اخرى من الاثار في الشقيف الشرقي ، لا تكلف الزائر الذي يرغب مشاهدتها سوى اليسير من الجهد . ويمكن للمرء ان يراها على مبعدة من موضع الفندق . والاثار الرئيسية بينها هي التي نعرفها باسم (ضريح الجرة) و (الضريح الكورنثي) و(ضريح القصر) و(ضريح فلورنتينس) . على ان الجدل ما يزال قائماً بين الباحثين حول الاضرحة الثلاثة الاولى فيما اذا كانت في الواقع اضرحة او هياكل او منازل للسكن. ونظراً لطبيعة شكلها الداخلي فمن المرجح ان تكون اضرحة وربما كانت اضرحة ملكية .

يقع (ضريح الجرة) في مستوى من الارض اكثر ارتفاعاً من الاثار الاخرى ، وهو أثر مهيب جداً تنبسط امامه ساحة سماوية واعمدة نحتت في الصخر . وكان القدماء في الاصل قد قاموا بتوسيع الساحة وبنوها على طراز متقن الصنعة من الاقبية وجعلوها ذات طابقين ولكنها الان في حالة خراب شديد . اما واجهة الضريح فتملأ النفس اعجاباً ببساطتها ،وبالارتفاع العظيم لاعمدتها المربعة اذا ما قيس بمساحتها عرضاً . وتبلغ قياسات الحجرة الداخلية عشرين متراً في عرضها وثمانية عشر متراً في عمقها داخل الجبل. واذا استثنينا بعض الفجوات في الجدار فالحجرة تخلو من جميع انواع الزخارف. ويبدو في التقاء طرفي الجدار والسطح ، التقليد النبطي المعروف في النحت بالازميل على قياس الدرجة ٤٥ . وترى في أيامنا هذه القرن والزوايا منحوتة بالاستقامة الكاملة التي كانت عليها يوم الفراغ من انشائها قبل عدة قرون ، ولا تملك عند التأمل إلا ان تعجب بنظافة النحت وروعته . انها مثال فخيم على الفن النبطي في نحت الحجارة على الطريقة البسيطة الخالية من التزويق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتوجد على صفحة الجدار الخلفي كتابة مدهونة باللغة اليونانية تنبيء ان الحجرة كانت تستعمل كنيسة في سنة ٤٤٧ ب . م . وترى فوق المدخل الرئيسي تمثالا نصفياً اصابته تقلبات الجو بتلف عظيم . كما توجد هناك حجرة اخرى لا نعلم اذا كان احد قد طاف فيها وتعرف عليها حتى الان .

يأتي بعد ذلك مباشرة من الجهة الشمالية (الضريح الكورنثي) وهو يشبه في طرازه طراز (الخزنة) الى حد كبير . ولكن العوامل الجوية عبر العصور اتلفت واجهته حتى نكاد لا نتعرف عليه .وترى ابوابه الخارجية مختلفة عن بعضها البعض في طرازها واتساعها وهي تؤدي الى حجرات مستقلة ذات احجام مختلفة . وهذه ظاهرة غريبة لا نجد في الوقت الحاضر تفسيراً كافياً لها . ليس هذا الاثر على قدر من الجمال او الإثارة ولكننا نذكره على أساس ضخامته وما يتضح لنا من اهميته بالنسبة للزمن الذي انشيء فيه .

أما (ضريح القصر) فيقع في محاذاة الأثر السابق الى الشمال وقد أطلق عليه هذا الاسم لان واجهته انشئت على طراز القصور الرومانية التي تتألف من ثلاثة طوابق . وعلى هذا الاساس فهو فريد بين آثار البتراء لا يماثله أي أثر آخر ، كما انه من اضخم الامكنة الاثرية الموجودة فيها . على ان الابواب الاربعة في واجهته الضخمة الفسيحة تؤدي الى اربع حجرات صغيرة ليس فيها ما يثير الانتباه او يلفت النظر. وقد بني جانب من الطابق العلوي من الواجهة بالحجارة لان الجبل لا يرتفع هناك ارتفاعاً عمودياً كافياً بحيث يمكن النحت فيه على موازاة الطابقين الاول والثاني. وانك لترى على بعض الجدران في اقصى اليمين بقايا زخارف ملونة.

وعلى بعد ثلاثمئة متر تقريباً يوجد ضريح (سكستوس فلور نتينوس) الذي نرى اسمه ضمن نص باللغة اللاتينية حفر فوق المدخل وفيما يلي ترجمة لهذا النص :

« الى لوسيوس . . . الصغير ، ابن لوسيوس بابيريوس سكستيوس فلور نتينوس ، أحد المسؤولين الثلاثة عن سك النقود الفضية والذهبية ، المحامي العسكري لفيلق منيرفا الاول ، المدعي العام لمقاطعة اشيا ، محامي الشعب ، قائد الفيلق الثامن في هسبانيا ، القنصل الاول في مقاطعة ناربونتسيس ، الوالي المعين من قبل اغسطس ، حاكم مقاطعة بلاد العرب ، الاب الذي يعرف واجباته جيداً ، تمشياً مع وصيته بعينها » .

يبدو ان لوسيوس هذا كان رجلا له بعض الاهمية في تلك المنطقة ، ويعتبر ضريحه متقن الصنعة رائعاً . رغم انه غير بالغ الضخامة ، اما التاريخ فحوالي السنة ١٤٠ ب . م .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه هي الاماكن الاثرية الرئيسية التي يسهل الوصول اليها . بالاضافة الى ضريح في وادي التركمانية يحتوي على نص كتابة طويلة تثير الاهتمام باللغة النبطية ، فوق موضع الباب. وفيما يلي ترجمة ذلك النص :

« ان هذا الضريح والحجرات الكبيرة والصغيرة التي في داخلـه، والقبورالمبنية على طراز المدافن الجانبية (Loculi) والساحة الواقعة امام الضريح ، والاروقة والمنـازل التي بداخلها ، والحدائق ، والثلاثية ، وآبار الماء ، والشرفة والجدران وبقية العقارات والامتعة الموجودة في جميع هذه الاماكن — قد كرست ونذرت ملكاً مصوناً لدوشارا آله ربنـا ، وعرشه المقدس ، وجميع الالهه حسب التعيين في الوثائق المتعلقة بالمواضع المنذورة حسب محتوياتها . وحسبما يقضي أمر دوشارا وعـرشه وجميع الالهة بان منطوق هـذه الوثائق المتعلقة بالمواضع والاشياء المنذورة يجـب ان يطبق وينفذ دون اي تحوير . كما يجب ان لا يجري أي تراجع او نكوص عما تتضمنه تلك الوثائق ، وأن لا يدفن اي أنسان في هـذا الضريح عدا الشخص الذي يملك وثيقـة خطية تمنحه حق الدفـن حسب نصوص الوثائق المذكورة المتعلقة بالاشياء المنذورة الى الابد » .

والثلاثية (Triclinium) المشار اليها ليست الا قاعة تعقد فيها حفلة الجناز ، حيـث تصف المقاعد المسطيلة والحشايا على ثلاثة جوانب . وهناك نماذج عديدة منها في البتراء ، ولكن القاعة الخاصة بهذا الضريح عينه لا يستطاع تعيينها . ومن المرجح ان تاريخ الضريح يعود الى القرن الاول ق . م . او القرن الاول ب . م .

وفي منطقة (مغار النصارى) الى الشمال مـن ضريح فلورنتينوس يوجد عدد من الاماكن الاثرية والاضرحة والمنازل والثلاثيات والمحاريب الخاصة بالآله دوشارا . ويمكن للزائر ان يقضي صباحاً جميلا حافلا بالفائدة في الاكتشاف والتفرج هناك . وفي العثور على بقايا معالم الطريق المحفـورة في الصخر والتي تؤدي الى موقـع (البارد) ضاحية البتراء الشمالية . ولكن بعض اهالي وادي موسى ينتقلون في فصول معينة مـن كل عام للاقامة في هذه الاضرحة مع مواشيهم ، لذا فان الذباب يتكاثر في تلك الدمن بعد رحيلهم . وفي البتراء — عدا ما تقدم ذكره — عدد كبير من الاضرحة والمنازل والاماكن المقدسة التي حفرت في الصخر حيثما اتجهت ، وكثرة عدد هذه الامكنة تزيد عن طاقة استيعاب كتاب كهذا ، حتى ولو كان ذلك بصورة عابرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكن ربما كان من الضروري ان نلفت الانتباه الى مكان تقـديم الاضاحي المستدير الذي يقع على قمة تلة مقابل الهيكل من الجهة الشمالية ، ويطلق عليه اسم (عرقوب الهيشة) . وهناك ايضاً مكان مقدس مع ثلاثية على تلة (جبل الميسرة الشرقية) مقابل العرقوب مـن جهة الغرب . ويوجد في (وادي الصياغ) بعض النماذج الممتازة لمنازل نحتت في الصخر ، وعلى بعض المسافة منها مع انحدار الوادي نفسه الى الغرب — بركة طبيعية ذات موقع جميل يغذيها نبع ماء صغير . ومن الظواهر المدهشة في هذا الوادي ان واجهة الجبل الصخرية قطعت ونحتت عمودياً على ارتفاع شاهق جداً. ولكن لم يستطع احد ان يقدم تفسيراً واضحاً للدافع الذي كان وراء القيام بهذا العمل الضخم. وهناك ظاهرة ملحوظة يمكن رؤيتها في هذا الوادي وعلى جوانب معظم الاماكن الاثرية المنحوتة في الصخر — وهي عبارة عن سلسلة من الأخاديد المزدوجة في أغلب الحالات والتي تسير صعداً في واجهة الصخر المنحوتة عمودياً . و يزال الغموض التام يحيط بالغرض الذي نحتت هذه الاخاديد من اجله ، وقد قيل ان القصد منها هو اتاحة المجال للعمال كي يتسللوا الى اعالي التلال ، ولكن لا ندري كيف يمكن تساعد هذه الخطوط الخفيفة على تحقيق ذلك ، كما يبدو اشبه ما يكون بالمستحيل على اي أنسان ان يتسلق هذه الواجهات المنبسطة بواسطة هذه الاخاديد القليلة العمق دون الاستعانة بوسائل اخرى . وفي موقع (الثغرة) الى الجنوب من موقع الفندق — نصب افعى فريد من نوعه ويلفت النظر ، اذ ترى افعى ملتوية فوق صخرة ضخمة تقف بمفردها . كما ترى هناك عدداً آخر من الاضرحة القديمة وهناك أثران اخران يجب على الزائر ان يحرص على رؤيتهما رغم ما يمكن ان يعاني من مشقة الطريق الوعرة الصاعدة اليهما والالتواءات المختلفة : انهما الهيكل المعروف باسم (الدير) ومكان الاضاحي المرتفع .

فاذا اردت الذهاب الى (الدير) تعين عليك ان تقطع وادي الصياغ من موقع الفند وتسير صعداً مع وادي الدير . وسرعان ما تصل الى بقايا معالم الطريق الاصلية التي حفرت في الصخر كي تؤدي بالسائر عليها الى الدير . ولهذه الطريق درجات حفرت في المواضـع التي يرتفع فيها الصخر عمودياً . ويمكن متابعة هذه الطريق حتى بلوغ الدير دون ان يتحول المرء عنها الا في فجوات قصيرة هنا وهناك . وبعد ان تقطع المرحلة الاولى مـن الطريق ، ترى منخفضاً الى اليسار وفيه (ثلاثية) ذات واجهة تلفت النظر وقـد نحتـت فيها رسوم اقنعة لوجوه انسانية بالاضافة الى رسم أسد عـلى الجدار الى يمين الباب والى يساره . فاذا سرت قليلا بعد ذلك وجدت ان الدرب الضيقة تنحني يساراً مع الوادي حيث تستطيع ان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تتابع الطريق القديمة بالسير على درجات عريضة هنـــاك . فاذا توقفت وانت ترتقي هـــذه الدرجات رأيت على يمينك (الى الشمال) وادياً جانبياً يبدو في اعلاه كهف يرشح فيه الماء من صخرة معلقة فوقه ، وتدل الكتابات النبطية الكثيرة التي حفرت على واجهة الصخرة انه كان مكاناً مقدساً . وخلال مسيرك صعداً مع الطريق القديمة الى الديـــر ، لا ترى ما يلفت النظر سوى خرائب صومعة من العهد المسيحي ترتفع في أعلى واجهة الشقيف عـــلى يسار الدرب ، حيث توجد فجوة في الطريـــق القديمة . ويمكـــن ان ترى على الصخور بعض الكتابات اليونانية ورسوم الصلبان ، ولكن هذا الاثر لا يكاد يستحق مشقة الصعود اليه .

قد لا يبدو عند النظرة الاولى ان الدير اثر بالغ الضخامة ولكنه في الواقع من اضخم الاماكن الاثرية في البتراء، اذ يبلغ عرضه ٥٠ متراً ويبلغ ارتفاعه حتى قمة الجرة ٤٥ متراً، اما الباب فيرتفع الى ثمانية امتار . تمتاز القاعة بالبساطة المتناهية التي عرفت عن الانباط ، ولكن يوجد في جدارها الخلفي محراب أقيم فيه حجر يمثل دوشارا وهو بارز عن الجدار في وضعه الاصلي . وهناك رسوم تمثل بعض الصلبان الصغيرة منحوتة في الجدار الصخري ، مما يدل على ان الهيكل كان يستعمل للعبادة في العهد المسيحي . ولقد تمت فيما مضى تسوية الارض الواقعة امام الهيكل ، وهناك بقايا معالم تدل على وجود جدار دائري من الحجر حول تلك الساحة ، ولكن لا توجد أية دلائل تنم عن نوع العبادة والطقوس التي كان الناس يمارسونها يومذاك . ومن المرجح ان يكون تحت الدير قد تم حوالي القرن الثالث ب. م. واذا ما وقف المرء في نقطة الى الغرب من الدير يرى مشهداً رائعاً عبر وادي عربة حيث يمتد البصر الى فلسطين وسيناء ، بينما يستطيع ان يرى الى الجنوب القمة العالية لجبل هارون والمزار الصغير الذي يقوم فوقها ، على اساس الاعتقاد السائد بان هارون دفن هناك .

على انك اذا اردت بلوغ مكان الاضاحي المرتفع ، الذي ربما كان اعظم امكنة العبادة التي شادها الأنباط في البتراء ــ ترتب عليك ان تبدأ السير من منطقة الفندق فتقطع الاخدود قريباً من العمود المنتصب فوق كثيب نفايات المدينة القديمـــة ، ومـــن هناك تسير صعداً في (وادي فرسه) . يوجد على بعد بعض المسافة في هذا الوادي الموقع الاثري المعروف باسم (ضريح الجندي الروماني) وهذه التسمية نشأت عـــن وجـــود التمثال القائم في المحراب الاوسط فوق الباب انهـــا واجهة جليلة رغم انها صغيرة . وفي القاعة تـــرى بعض المدافن المنحوتة في الجدران بالاضافة الى فجوات ذوات اقواس في الجدار الجنوبي . وتقوم قبالة هذا الضريح ثلاثية رائعة الصنعة تزدان جدرانها الداخلية باعمدة متصلة عـــلى الطراز

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الايوني ، كما ان الصخر هنا غني بالالوان البديعة . ومن المرجح ان تكون هـذه الثلاثية ملحقة بالضريح من اجل عقد الحفلات الجنائزيه .

وتتقدم مرتقياً سلسلة من الدرجات المتآكلة ، فترى الى اليسار هيكلا صغيراً اصيب بتلف كبير نتيجة العوامل الجوية وعدوان الناس . وفـوق هذا الهيكل بئر مـاء ذات اتساع كبير . وبعد ان تقطع مسافة قصيرة مصعداً في الوادي ، يبدأ التسلق بسلسلة ضيقة من الدرج المغروسة في واجهة الشقيف من الناحية الشرقية . انه لممر وعريحتاج عبوره الى خفة وفطنة ، ومع ذلك فان حمير الاهلين كثيراً ما تعبره والاحمال على ظهورها ، ويبدو ان هذه الحمير في بعض النقاط تتقمص اجنحة تطير بها أو ايدي تسهل لها العبور . فاذا ما بلغت الفسحـة الاولى واجهك رسم اسد كبير نحت في الصخر المقابل ، ورأيت قناة ماء تنحدر من شـق فوقها ، ويكاد يكون من المؤكد ان الماء قديماً كان يتدفق من فم الاسد . لقد اصاب رسـم الحيوان تلف بالغ مـن فعل العوامل الطبيعية وعدوان الناس حـتى لم يبق منه سوى معالم يتعرف المرء عليها بصعوبة . اما متابعة السير على الدرب فتكون امـا بتسلق الاخدود الذي حفرته المياه فوق الاسد — وهي مسافة قصيرة ولكنها ليست على شيء من السهولة — او تكون باتباع طريق مأمونة سهلة تمتد على يسارك عندما تقف في مواجهة الاسد . والاشياء الوحيدة التي يمكن ملاحظتها اثناء السير في الطريق — هي بعض الكتابات النبطية على وجه صخرة ملساء الى اليسار . مع ان هذه الكتابات لا تزيد في معظمها عن قول « السلام عـلى فلان وفلان ابن فلان وفلان » .

نزعت كمية كبيرة من صخور القمة في ذلك المرتفع حتى تكونت هناك ساحة واسعة تنتصب فيها مسلتان ، يستطيع المرء من النظر اليهما ان يقدر كمية الصخر التي نقلت من هناك : ويرى بعض الثقاة دلالة دينية في هاتين المسلتين ، على أساس ان دوشارا تمثله دائماً حجارة منتصبة كهذين الحجرين . ولكن يصعب علي ان اتصور كيفية قيامهما بدور ما في أية حفلات دينية . ولا بد انه كان اكثر سهولة بالنسبة للاقدمين ان ينصبوا عموداً ضخما من حجر واحد في ذلك المكان ، من ان يقطعوا تلك الكميات الهائلـة من الصخور وينقلوها بعيداً من اجل الابقاء على هاتين المسلتين . ويمكن للمرء ان يشاهد بقايا عمارة فوق مرتفع بارز ، ومن المحتمل انها كانت في الاصل منزلا للكهنة الذين كانوا يزاولون عملهم في مكان الاضاحي . ومكان الاضاحي هذا يقوم في منطقة منبسطة غـير واسعة الى الشمال مـن هذه البنايات مباشرة ، وهو يتألف من ثلاثية كبيرة مع مذبح في منتصف جانبها الغربي . وهـناك ثلاث درجات يصعد المرء عليها كي يقترب من المذبح . ويقوم في محاذاة الثلاثية من جهة الجنوب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مذبح ثان وامامه حوض مستدير في وسطه ثقب يودي الى قناة سائبه، مما يوحي بان الاضاحي كانت تذبح هنا فتسيل الدماء في القناة . وعلى مبعدة الى الجنوب توجد بئر ماء . اننا لا نعلم اي شيء عن الاحتفالات التي كانوا يقيمونها هنا . ولكن مهما يكن من امرها فمن المؤكد ان عدداً قليلا من الناس كان يستطيع المشاركة فيها بسبب ضيق المكان . ويعتبر هذا الموقع من كثر المواقع ارتفاعاً في البتراء ، والمناظر التي يشاهدها المرء منه على غاية من الروعة والجلال . اما في العودة فيستطيع المرء ان يسلك طريقاً اخرى منحدراً مع اخدود الى الشرق من (الموقع العالي — المذبح) وهذه الطريق تؤدي بك الى مقربة من المدرج .

هذه اذاً هي الاماكن الاثرية الرئيسية في البتراء ، والحقيقة ان المرء يستطيع ان يقضي فيها عدة اسابيع بحيث يشاهد شيئاً جديداً كل يوم . فهناك على سبيل المثال، ضاحية (البيضا) وضاحية (البارد) في الجهة الشمالية ، وهناك ضاحية اخرى الى الجنوب تدعى (الصبره) وهناك خرائب القلعة الصليبية في (وعيرة) من جهة الشرق وبقايا قلعة صليبية اخرى على قمة (الحابس) وهي تلة صغيرة تقع مباشرة الى الغرب من الهيكل الروماني .

وهناك الضريح الذي يقال انه ضريح هارون فوق جبل هارون ، ولكن الاهلين من سكان وادي موسى لا تطيب لهم زيارة الاجانب لهذا المزار ، والواقع ان المرء لا يجد شيئاً ايلفت النظر بعد ان يتسلق التلة ويبذل في ذلك العناء . والى جانب هذا توجد بقايا آثار العصر الحديدي القليلة على قمة (ام البيارة) وربما يكون القيام بتسلق هذا المرتفع اشد عناء واكثر صعوبة من تسلق القمم الاخرى . والواقع ان كل قمة من قمم التلال وكل سفح من سفوح الجبال تشتمل على جانب من الاثار ، ولكن المرء يحتاج الى وقت غير محدود وحماسة لا ينضب لها معين بالاضافة الى دليل خبير كي يرى جميع الاماكن الاثرية . ان البتراء من تلك الاماكن التي إما ان يعجب المرء بجمالها ومحاسنها اعجاباً منقطع النظير ، او يرى فيها مكاناً مشؤوما يبعث الملل في النفس . ولا شك ان معظم الناس يرون فيها الجانب الاول ، ولكننا نجد ان رحالة واسع الافق مثل (دوتي) لم يشعر تجاهها بالمودة والاعجاب . ولكن سواء كان مقدّراً لك ان تميل اليها او لا تميل — فانها جديرة بالزيارة ، لان البتراء هي البتراء التي لا مثيل لها في العالم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السابع

معان – راس النقب – القويرة – خربة الخالدي – خربة كتاره – تاريخ العقبة – وادي رم – جبل رم :

معان :

معان هي المركز الاداري للواء الجنوبي ، وهو اللواء الذي تشكل القبائل البدوية الاكثرية الغالبة بين سكانه . وتقع معان على الطرف الاقصى للصحراء ، ويستطيع الانسان الذي يقف عند محطة سكة الحديد فيها ، ان يمد بصره شرقاً فيرى مسافة واسعة من الارض المنبسطة التي لاينمو فيها نبات . والحقيقة ان الهضبة المرتفعة هي التي تنبسط كلياً ، اما بقية الارض فتتخللها التلال والاودية وتدعى جبل الطبيق ، وتمتد حتى تتصل تدريجياً في الجنوب بمنطقة حسما ذات الحجر الرملي . وما تزال تقيم في تلك الجهات بعض القبائل التي ما تزال على حالة تامة من البداوة . وترى أفرادها يقضون حياتهم في بيوت حيكت من شعر الماعز ، ويتنقلون من مرعى الى مرعى ومن ماء الى ماء . اما معان بالنسبة لهم فهي المركز التجاري والمدينة الكبرى – فيقصدونها بمنتوجاتهم وحيواناتهم التي يريدون بيعها ، ثم يعودون حاملين ما ابتاعوه من ضروريات الحياة البسيطه ، وهي مما يتوافر وجوده في اسواق معان .

أنشئت معظم أبنية البلدة من قوالب اللبن الترابي المجفف في الشمس ، والى الشمال الغربي منها توجد احياء تكاد تكون مهملة كلياً ، وهي تتهدم وتتهاوى تدريجياً (١) اما محطة سكة الحديد والمطار فيقعان الى الشرق من البلدة وعلى مسافة منها ، واكثر القادمين لزيارة البتراء يصلون الى هنا اما بالقطار او بالطائرات (٢) وفي المحطة فندق يأوي اليه المسافرون ، ورغم ان الفندق بسيط نوعا ما الا انه يفي بالحاجة . ولا يوجد في البلدة من الآثار مايهم الزائرين ، لان اقدم المنشئات فيها هي قلعة الحاج المربعة التي انشئت حينما كان الحسين ملك الحجاز ينوي ان يقف وقفته الاخيرة ضدالقوات السعودية بعد انتهاء الحرب

---

(١) يجري حاليا العمل في تعزيل الانقاض ونقلها تمهيدا لانشاء ضاحية على الطراز الحديث .

(٢) يستطيع المسافر بالسيارة من عمان ان يصل الى البتراء عن طريق معان في ثلاث ساعات فقط ، وذلك بعد انجاز الطريق الصحراوية التي انتهت سنة ١٩٦٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العالمية الاولى (١). على ان الدلائل تشير الى ان انسان ما قبل التاريخ عاش هنا ، لانه كثيرا ما توجد معاول يدوية كبيرة من العصر الباليوليثي في قاع الوادي ، ولابد ان تكون ميـــاه السيول قد جرفت هذه المعاول من مكان قريب ، لانها غير متآكلة كثيرا بفعل المياه .

تسير الطريق من معان غربا نحو البتراء والعقبة ، ولكن الطريق الى البتراء لم يتم شقها كلهـــا حتى الان (٢) . ولا توجد مشاهد تستلفت النظر بين معان وراس النقب ، لان المنطقة كلها عبارة عن هضبة مطردة النسق ترتفع حوالي اربعة الاف قدم فوق سطح البحر . والطقس فيها بارد جدا اثناء الليل حتى في منتصف فصل الصيف . ولما كانت سكة الحديد تنتهي في راس النقب فان البضائع تنتقل بينها وبين العقبة بواسطة سيارات الشحن . وبعد ان يغادر المرء راس النقب وتنعطف به الطريق على حين غرة — فـــانه سرعان ما يرى اعظم المنـــاظر جمالا وأدعاها الى الدهشة في الاردن على وجه الاطلاق . ذلك لان الهضبة تنتهي فجأة عند شقيف عظيم ينحدر هابطا الى السهل الساحلي على انخفاض ألفي قدم تقريباً ، وترى هنا السهل مغطى برمل ارجواني تتنـــاثر فيه تلال من الحجر الرملي ، ذي الالوان الحمراء والبنية والبيضاء ، وتختلف اشكالها في نمـــاذج مشرشرة غريبة . امـــا الى الجنوب الشرقي فيمكن مشاهدة جبال رم ذات الحجـــارة الرملية ، بينما ترى الى الجنـــوب الغربي الطرف الجرانيتي لسلسلة جبال الشراه (جبل سعير) التي تمتد منحدرة حتى العقبة . ويطلق على هذه المنطقة كلهـــا حتى حدود المملكة السعودية اسم (حسما) . ان المنظر الذي تراه العين من رأس النقب واسع جدا ويصعب وصفه وصفـــا شاملا ، واذا كنت محظوظا واتيح لك ان تراه في الصباح الباكر او قبيل الغروب عندما تترامى عليه الظلال الطويلة ، فانك ترى منظرا لايمكن ان يطويه النسيان .

كانت تقوم في راس النقب قلعة نبطية متهدمة ، وهي واحدة من سلسلة قلاع انشئت لحماية طريق القوافل من الجزيرة العربية الى البتراء . ولكن هذه القلعة صارت محجرا تقتلع منه الحجارة لعمليات انشاء الطرق اثناء الحرب العالمية الثانية . وهنـــا قد لا نرى مبررا لان نرفع اصواتنا بالشكوى من هـــذا العمل ، لان الطريق جيدة ويمكن السير عليها في جميع الفصول ، مما لم يكن متيسرا فيما مضى . وتستدير الطريق وتلف في منعطفـــات دقيقة على

---

(١) لم ينشىء الملك حسين بن علي اية تحصينات حول معان ، ولكن هذه الاطلال هي بقايا التحصينات الدفاعية التي انشأها الاتراك اثناء الحرب العالمية الاولى عندما قام جيش الامير فيصل بالزحف على معان ومهاجمتها .

(٢) لقد تم الان تعبيد معظم اجزاء الطريق الغربية من عمان الى الكرك فالطفيلة فالبتراء .

منحدر الشقيف ، ثم لا تلبث ان تاخذ مجراها في السهل على خط مستقيم . وتبرز التلال الغريبة الشكل على جانبي الطريق ، ومع ان هذه التلال تبدو عارية بالكلية من اي آثار للعمران ، الا انه في الواقع يوجد على كثير منهـا برك نقرت في الصخر لحفظ المياه ، وسدود اقيمت بالحجارة . وترى على صفحات صخور كثيرة كتابات بالحروف النبطية والثمـودية وأحيانا بالحروف اليونانية . وتوجد الى الغرب من الطريق غير بعيد عن سفح الشقيف ، خرائب بلدة الحميمة ، حيث ادار الحزب العبـاسي في القرن الثامن للميلاد ، المؤامرات التي أدت الى سقـوط الدولة الأمويـة ، وانتقـال العـاصمة من دمشق الى بغـداد ، ولكن خرائب الحميمـة لا تبدو للعيـان عند الطريق . وحوالي منتصف المسـافة عبر السهـل الى الشرق من الطريق ، يمكن للمرء ان يشاهد قلعة القويرة التي يتمركز فيها جنود قوة البادية الاردنية . وفي هذا الموقع ايضا كانت تقوم قلعة نبطية ، ولكن هذه القلعة زالت واختفت ، اذ استعمل بناة القلعة الحديثة حجارة القلعة القديمة للبناء ، ولكن البئر الكبيرة التي أنشأهـا الانباط ما تزال قائمة هناك وما تزال المياه التي تتجمع فيها تزود حامية القلعة وحيواناتهـا بما تحتاج اليه من ماء .

وعلى بعد بضعـة كيلومترات الى الامـام تتفرع درب باتجاه الشرق فتصل الى رمّ والمدورة ، وهذه الاخيرة هي آخر نقطـة من مواقع الحدود الاردنية الجنوبية مع البلاد السعودية . وهنا تقترب الجبال من بعضها البعض ، وبعد بضعـة كيلومترات اخرى تدخل الطريق في وادي اليتم . وفي هذا الوادي تسير الطريق معظم المسافـة مع مجرى الماء ، لان الجانبين في غاية من الانحدار والوعورة بحيث يصعب رفـع الطريق عن مستوى المجرى ، الا اذا رصدت لذلك اموال طائلة وانشئت جسور عديدة عليها . ونتيجة لهذا ، فالطريق كثيرا ما تكون في حالة سيئه ، وقد لا ترى منها في بعض المواقع الا قطع متفرقة من التعبيد الذى انشىء محاطا بالامال في صيف احدى سنوات الحرب ، وهي القطـع التي بقيت بعد اول فيضان للماء في الوادى اثناء الشتاء(١) . اما الجهات المحيطة بجانبي الوادي الضيق العميق فمن حجر الجرانيت الذي تتخلله عروق سوداء وخضراء غامقة ، وهناك شقوق في الكتل الصخرية ملئت في العصور الجيولوجية البعيدة بالاتربة والحمم البركانيه .

---

(١) خـلال السنوات ١٩٥٧ – ١٩٦٠ تم انشـاء الطريق الصحراوية بين عمـان والعقبة ، وهي طريق معبدة على افضل طراز تتخللها الجسور المتينة في مقاطع الاودية ، ولا ينقطع السير عليها صيفا او شتاء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خربة الخالدي :

تقع خربة الخالدي غير بعيد عن مدخل الوادي ، وفوق الجانب الشرقي من الطريق بقليل ، وهذه الخربة احدى حلقات سلسلة القلاع النبطية التي انشئت لحماية طريق القوافل ، ويبدو ان المسافة بين هذه القلاع قدّرت على اساس مسيرة يوم واحد بين كل قلعة والقلعة التي تليها — شأنها في ذلك شأن القلاع التي انشأها الاتراك لحماية طريق الحاج من دمشق الى مكة . ان احداً لم يسط على حجارة هذه القلعة ، لذلك ما تزال جدرانها قائمة على ارتفاع مترين تقريبا ، مع ان حجراتها مملوءة بالانقاض المتراكمه . ومهما يكن من امر ، فقد تمّ اثناء الحرب رفع الانقاض من الآبار المحيطة بالقلعة ، وبدأ يستفاد منها مرة اخرى . ورغم ان الارض التي تسيل فوقها مياه الامطار لم يجر اخلاؤها من الحجارة — الا ان الآبار تكاد تمتلىء بالماء خلال الفصول الماطرة . وقد نقر جانب من هذه الآبار في الصخر والجانب الآخر بني من الحجارة ، اما السقوف فقد انشئت بطريقة وضع مجموعة من الحجارة المستطيلة الرقيقة فوق اقواس ترتكز على جدران البئر . وقد عثر في احداها على قطعة نقود تعود إلى العصر البيزنطي ، مما يدل انها كانت ما تزال قيد الاستعمال آنذاك . ولكن من المرجح ان انشاء القلاع والآبار المحيطة بها قد تم اثناء القرن الاول ق.م والقرن الاول ب.م .

خربة كثارة :

وهناك قلعة اخرى مشابهة ، تقع في ملتقى وادي اليتم (الجاد) مع وادي اليتم (العمران) ، وهي تدعى (خربة كثارة) وتشبه القلاع الاخرى في هندستها وطراز بنائها . وتمر الدرب الجنوبية الى وادي رم في وادي اليتم (العمران) ، ولكن عبور هذه الدرب يتعذر احيانا بسبب الرمال الكثيفة في بعض المواضع والتي تسفيها الريح بين الحين والآخر فوق الدرب فتسدها . ويضيق الوادي ضيقا ملحوظا ابتداء من هذا الملتقى وترى الصخور الجرانيتية الضخمة المتناثرة في ارجائه . اما جانباه فجبال ترتفع ارتفاعا يكاد يكون عموديا . وقبيل الوصول الى فم الوادي ترى عبره سداً قديماً هدمت جداره الصخور الضخمة التي تقذفها من علٍ مياه الفيضانات كل عام . لا توجد اية دلائل تشير الى تاريخ انشاء هذا السد ، ولكن من المحتمل ان يكون من بناء الرومان او الانباط .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعد العبور بهذا الاثر بمسافة قصيرة ، تخرج الطريق من مضايق الوادي ، فترى البحر الاحمر يتوهج بفعل اشعـــة الشمس ازرق اللون رغم اسمه ،ويا له من مشهد رائع : كتل الجبال المتراصّة الى الشرق والغرب طالعة من المياه اللازوردية ، وفي الوسط السهل الضيق المستقيم — ساحل الحصباء المرصّع باشجار النخيل .

العقبـــة :

لم تكن العقبة قبل عشرين عاما سوى قريـــة صغيرة يشتغل اهلها بصيـــد السمك ، وتعشش بيوتها المبنية من الآجر الترابي بين بساتين النخيل ، بينما تعمل الحمير في هوادة على ادارة الدواليب لضخ الماء (دولاب لكل بستان) من أجل سقي الخضروات واشجار الفاكهة التي تنمو هناك بسهولة ، ويكثر العصير فيها كما يكثر في نباتات المناطق الاستوائية . ويتوافر الماء النقي بغزارة في باطن الارض على عمـــق لا يزيد عن المترين تحت السطح ، ولو حفر المرء حفرة على بعد متر واحد عن طرف البحر لاستطاع الحصول على ماء صالح للشرب . وكان بعض الناس يزاولون اصطياد السمك بصورة غير منتظمـــة ، على اساس ان يكفي الناتج حاجات القرية المتواضعة . كما كان يسود الموضع جو سعيد من القناعة والرضى ، ترافقـــه حرارة الشمس ودفء البحر وبرودة الظلال في بساتين النخيل ، مما كان يضفي بمجموعه على المكان سحرا وعذوبة وهدوءا منعشا. على ان مدنية العالم الحديث كانت تعد العدة لغزو هذه القرية في هيئة معسكر للجيش ورصيف ميناء صغير . وهكـــذا اصبحت العقبة اليوم بلدة كبيرة مزدهرة ، والمنفذ الاردني الوحيد الى البحر والذى يتلقى الاردن عن طريقه معظم وارداته التجارية . وانك لترى في العقبة وكلاء تجار مدينة عمان ، وقد ذهبت القناعة والسكينة الى غير رجعة . وبالاضافة الى معسكر الجيش العربي ، فقد كان في العقبة حتى عام ١٩٥٦ معسكر كبير للجيش البريطاني غير بعيد عن البلدة ، ومن هنا صار القرويون على شيء من الثراء نتيجة للاموال المتدفقة .

ولكن العقبة اذ تغدو مرة اخرى مركزا للنشاط التجاري ، فهي انما تعيد تاريخها القديم ، لان أقدم الآثار التي عرفناها حتى الآن في جوارها ، تعود الى بلدة مهمة كانت تصهر فيها المعادن على بعد اربعة كيلو مترات الى الغرب من البلدة الحاليـــة . يدعى ذلك الموضع باسم (تل الخليفة) وهو تلة غير مرتفعة تكاد تقع في منتصف وادي عربة المقابل لمنتصف الخليج. ومع ان الموضع يبعد الان مسافة كيلومترين عن شاطىء البحر ، الا انه من المحتمل أن يكون هو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

موضع (عصيون جابر) ميناء الملك سليمان ، لانه الموضع الوحيد في تلك الجهة الذي كان مأهولا بالسكان في تلك الحقبة . ومن المؤسف ان زيارة تلك التلة متعذرة الآن ، لأن خط الهدنة بين الاردن واسرائيل يكاد يخترقها . ولقد جرت حفريات في تل الخليفة خلال عامي ١٩٣٧ — ١٩٣٨ ولكن نتائج الحفريات لم تنشر حتى الان . وفي البداية كان مما يبعث على الحيرة اختيار ذلك الموضع لانشاء بلدة ما عليه ، لان ريحا عنيفة تهب نابحة مع وادي عربة قادمة من الشمال باتجاه موقع البلدة . ولكن عندما كشفت الحفريات عن سلسلة من الافران (Furnaces) الكبيرة التي أنشئت لصهر النحاس في الجانب الشمالي من البلدة — بدا السبب عندئذ واضحا ، لان الرياح كانت تؤمن وجـــود المجرى الهوائي اللازم لاشعال النيران في المصاهر . اما النحاس فقد كان يستخرج من مناجم وادي عربة .

ان تاريخ هذه البلدة يستغرق فترة تبـــدأ في القرن العاشر ق. م. وتنتهي في القـــرن الخامس ق. م. عندما اهمل آمر صهر النحاس كما يبدو ، وانتقل السكان الى موضع افضل واكثر قربا الى موقع العقبة الحالي من الجهة الغربية . وقد كشفت الحفريات عن علاقـــات بين البلدة القديمة وجنوبي الجزيرة العربية ، وتتضح اتصالاتها الخارجية من بقايـــا فخارها الذي يختلف اختلافات بينّة عن نمـــاذج الفخار التي تم اكتشافها في اي موضع آخـــر من فلسطين او شرقي الاردن . ولقد تم العثور على فخار ختم بخاتم يحمل اسم (كوس جابر) ملك ادوم ، وفي الطبقات العليا وجدت قطع فخارية عديدة من الطراز الاغريقي الجميـــل ذي اللونين الاسود والاحمر . وقد تبع تغيير الموضع تغيير في اسم البلدة أيضا . فصارت تدعى (ايلات) او (ايله) وهذا الاسم يطلق الآن على بلدة تقع على الجانب الغربي من الخليج.

لم تبق من المدن التي قامت بعد ذلك على أنقاض المدينة الاولى — بقايا ظاهرة : ولا بد ان تكون تلك البقايا مدفونة تحت كثبان الرمال او تحت التلال الاصطناعية ، وقد تراكمت فوقها مخلفات المعسكرات الحربية المختلفة . وفي احيان متفرقة تظهر للعيان قطعة ثبوتية على هيئة حجر منحوت او كسرة أثرية ، فاذا ما جمعنا المعلومات التي تزودنا بها هذه البقايا ، استطعنا ان نقول ان البلدة استمرت في ازدهار لا بأس به حتى مجيء الاسلام . ولقد بدأت طريق تراجـــان العظيمة من دمشق فمرّت بعمان والبتراء حتى بلغت العقبـــة ، ومن هناك تفرعت طريقان باتجاه الغرب ، احداهما الى مصر والاخرى الى فلسطين . ومما تم اكتشافه أيضا بقايا كنيسة مسيحية ، يبدو انها اقيمت على اسم القديسين (تيودور) و (لونجينوس) . وكان يقيم في العقبة مطران عندما بدأ الفتح الاسلامي ، ويذكر التاريخ لنا ان الخليفة عمر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

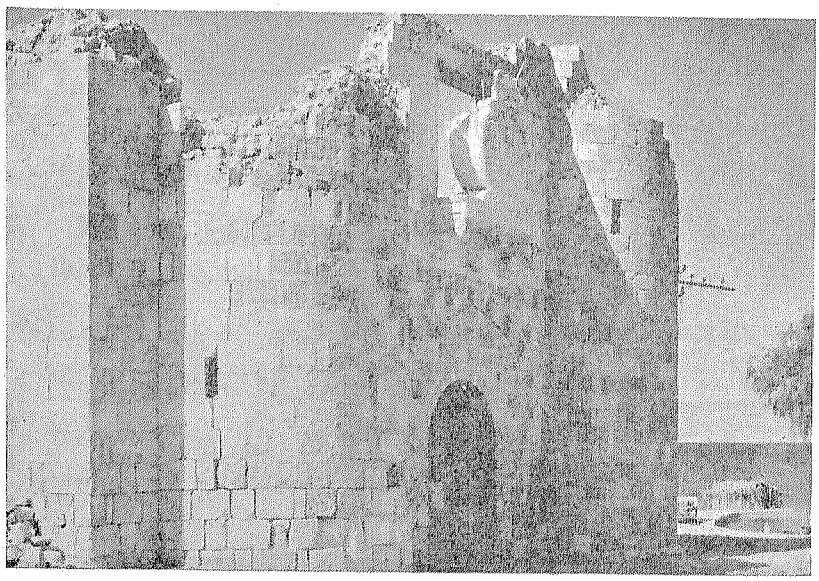

قلعة العقبة التي تعود الى القرن الرابع عشر ،
ويبدو فوق الباب الرئيسي شعار الأسرة الهاشمية .

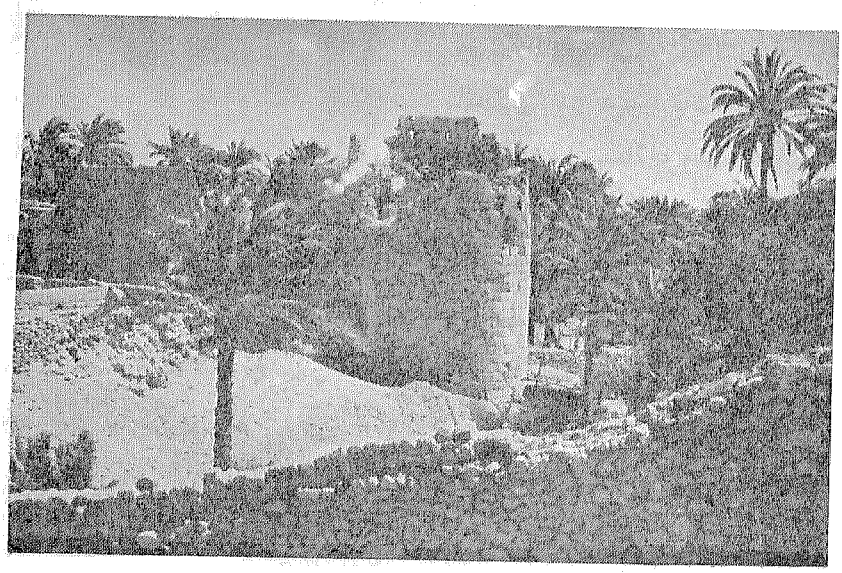

جانب من قلعـــة الازرق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نزل عند ذلك المطران سنة ٦٣٩ اثناء احدى جولاته . وعندما جاء الصليبيون قاموا باحتلال العقبة. وفي عهد بلدوين الاول سنة ١١١٦ ب.م. انشئت قلعة على جزيرة (جراي Graye) التي تعرف الان باسم جزيرة (فرعون) قرب الساحل الغربي للخليج . ومن العسير تحديد التاريخ الذي انشئت فيه قلعة العقبة لاول مرة ، ولكن من المؤكد ان السلطان الناصر ، حوالي سنة ١٣٢٠ ب. م. كانت له يدٌ في ذلك . وهناك كتابة على بوابة القلعة ذكر فيها اسم قنصوه الغوري آخر السلاطين المماليك حوالي سنة ١٥٠٥ ب. م. بعد هذا تختفي العقبة من صفحات التاريخ وتبقي كذلك حتى الحرب العالمية الاولى عندما اصبحت قاعدة للجيوش العربية التي كان يقودها الملك فيصل .

وادي رم :

ليست زيارة وادي رمّ بالامر اليسير ، ولكنها جديرة بالمشقة التي يبذلها المرء في سبيلها . ويمكن الذهاب الى وادي رم ، اما من الدرب الجنوبية — اي من ملتقى وادي اليتم — او بواسطة الدرب الشمالية القريبة من القويرة . ولكن الطريق الجنوبية عسيرة المسلك بسبب وعورتها وكثرة المواقع الرملية فيها ، اما الطريق الشمالية فانها ايسر واسهل ولذلك يطرقها المسافرون اكثر من الاولى ، وخاصة لقلة الاماكن الرملية التي تغوص فيها الارجل والعجلات . على ان كلا الدربين تمران في اراض جميلة للغاية ، بل ان الشمالية منها تمر بسهلين واسعين من الارض الطينية ، ولكن عبور السهلين يغدو عسيرا بعد سقوط الامطار . وانها لمتعة يشعر بها سائق السيارة عند المرور بالارض الطينية المنبسطة ، وما عليه الا ان يتجه الوجهة التي يقصد ثم يملأ ناظريه من المشاهد المحيطة به وهو ناعم البال . والمشاهد خليقة بأن تسترعي الانتباه : من تلال صخرية وجبال ترتفع عمودية من بطن السهل المنبسط ، ومن اودية بعيدة الغور يمتد البصر طويلا معها الى الجنوب . وهنا تجد مرة اخرى بقايا كثيرة من عهد الانباط والسكان الذين سبقوهم مختفية في شقوق الصخور ، كما ترى رجوماً عديدة من الحجارة في اماكن متفرقة ، ومن المحتمل ان تكون هذه الرجوم اضرحة للموتى ولكن لم يظهر اي دليل حتى الآن يكشف عن تاريخ الزمن الذي تعود اليه .

ان وادي رم نفسه هو اكبر اودية هذه المنطقة وافخمها ، وهو جميل جمالا غريباً ، يملأ النفس بالاعجاب ، بل يبعث فيها الروع والرهبة . ولم ينجح أحد ، عدا الكولونيل لورنس ، في وصف هذا الموقع العجيب وصفاً مرضياً في الفصل السبعين من كتابه (اعمدة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحكمة السبعة) . ومع ذلك فان مقدرة لورنس على الكتابة الوصفية لم تستطع في الحقيقة ان تنصفه كل الانصاف . واثناء اجتياز المرء للدرب بسيارته مع الجانب الغـربي من الوادي بعيداً عن المسيل الرملي — فانه يستطيع ان يرى هنا وهناك باحات مرصوفة قريباً من قواعد التلال ، ويحيط بكل باحة منها جدار غشيم من الحجارة المنتصبة ، بينما تتألف ارضية الباحة بدورها من حجارة غشيمة لم تصلح ادوات النحت اياً منها . وفي مواجهة منتصف الجدار الخلفي من كل باحة تقوم عادة مجموعة من ثلاثة حجارة منتصبة عمودياً ، واحياناً لا يكون هناك سوى حجر واحد . وهذه الباحات توجد فرادى واحياناً في مجموعات من خمس او ست ، وحتى الآن لم يكتشف احـد القصد من انشائها او التاريخ الذي تعـود اليه . واذا اوقفت سيارتك قريباً من اية صخور ضخمة قرب الدرب ، فمن المرجع ان تجد عدداً من الكتابات الثمودية منقورة على جوانبها . وتوجد في وادي رم مئات من هذه الكتابات القصيرة ومعظمها لا يزيد عن اعطاء اسم الكاتب واسم ابيه ، مع انك ترى احياناً الى جانب بعضها رسوم حيوانات او رسوم اشخاص ونحتها توقيع ينص على ان « فلان او فلان رسم هذا ». ومن المعلوم انه يمكن العثور على هذه الكتابات الغريبة في المنطقة الممتدة مـن جنوبي البلاد السعودية الى معان ، ولكن لا يوجد سوى القليل جداً منها الى الشمال من ذلك . من المرجح ان يكون رجال القوافل التجارية قد حفروا هذه الكتابات على الصخور ، خلال رحلاتهم بين جزيرة العرب والبتراء ، ومن الغريب ان احداً لم يكتشف حتى الآن نصاً كاملا بالحرف الثمودي . ولقد كانت قبيلة ثمود التي تنسب اليها هذه الكتابة ، تقيم قريباً من مداين صالح ، ابتداء من القرن الخامس ق . م . حتى القرن السابع ب . م . وقد ورد ذكرها في القرآن . واذا تأملنا هذه الآلاف من الكتابات التي ذكرناها — بدا لنا ان كل واحد من سكان تلك المنطقة في ذلك الحين كان يعرف القراءة والكتابة الى حد ان يكتب اسمه على الاقل — وهذه نسبة من التعلّم لا نرى ما يماثلها حتى الآن . وتكشف لنا الأسماء ان اصحابها كانوا مـن العرب ، لان الكثير منها ما يزال شائعاً حتى اليوم ، اما الكتابة فتنسب الى مجموعة الالفباء السامية الجنوبية التي لم يبق منها حياً حتى اليوم الا الكتابة الاثيوبية (الحبشية) وكان الاحباش قد نقلوها من جنوبي الجزيرة العربية . وتنسب الكتابـة النبطية كما تنسب الكتابة العربيـة الحديثة والكتابة العبرية — الى مجموعة الالفباء الساميّة الشمالية .

تقوم الى جانب جبل رم قلعة لجنود البادية الاردنية ، ولكن هذه القلعة تبـدو قزماً صغيراً امام الجبل الضخم الهائل الذي يرتفع ارتفاعاً يكاد يكون عمودياً الى حوالي ١٥٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قدم ثم تميل قمته تدريجياً على ارتفاع ٥٠٠ قدم اخرى . ان الصخر الرملي يقوم على قاعدة من الجرانيت تبلغ كثافتها ٦٠ قدماً ، اما في الوادي الثاني الواقع الى الغرب والذي يسمى (وادي الرمان) فكثافة القاعدة تبلغ مئة قدم من الجانب الشرقي ، ولكنها غير موجودة بتاتاً في الجانب الغربي حيث يرتفع الصخر الرملي مباشرة من الوادي . ومن الواضح ان جميع هذه الاودية ، التي تتجه — على العموم — من الشمال الى الجنوب ، هي في الواقع سلسلة من الانهدامات الجيولوجية العظيمة التي شقت وفسخت كيان المنطقة كلها الى حد كبير ، بحيث ترى ان صخور الجبال في وادي اليتم كلها من حجر الجرانيت — بينما لا ترى الى الشرق من رم سوى الصخر الرملي ولا اثر لصخور الجرانيت التي تقوم عليها . وليس من شك في ان هذا التشقق كان مظهراً من مظاهر الانقلاب الطبيعي الهائل الذي كان من جملة نتائجه وادي الاردن والبحر الميت .

تبدو خلف القلعة من الجهة الغربية ، في محاذاة سفح الجبل ، خرائب هيكل نبطي من المرجح ان يكون قد انشيء في القرن الاول ق . م . وقد اجريت حفريات جزئية في هذا الهيكل ويستطاع رسم مخطط له على ضوء الخرائب المتبقية . كان الهيكل يتألف من ساحة مربعة تحيط الحجرات بثلاثة جوانب منها . اما الجانب الشرقي فقد كان مدخلا مفتوحاً يعبر الناس منه على سلسلة من الدرج . وكانت تزين جدران الساحة اعمدة متداخلة تغطيها طبقة من ملاط الكلس المدهون بلون المرمر . وأما في الوسط ، فيقوم المذبح الرئيسي ، وقد عثر هناك على جانب من تمثال حجري على هيئة آلهة جالسة . وهذا الهيكل يشبه هيكل خربة (التنور) ولكن على مقياس اصغر . وهناك عين ماء في واد فرعي الى الجهة الجنوبية ، وتنساب مياه هذه العين بين طبقتي صخر الجرانيت والصخر الرملي ، وترى على صفحات الصخور المحيطة بها كتابات ونقوشاً نبطية عديدة محت خطوطها الايام . ومن جملة هذه النقوش نقش يمثل احد الآلهة ، اما البركة الصغيرة الواقعة الى تحت فقد كانت سابقاً محاطة بالجدران . وتتفجر في جميع انحاء الوادي ينابيع ماء صغيرة ، وخاصة في شرم جبل رم ، وهذه العين الاخيرة أقواها وأغزرها ماء . ومن الواضح أن هذه العين كانت مقدسة في عصر الانباط ، مثلها مثل العين الواقعة على طريق (الدير) في البتراء . وترى فيما بين هذا الوادي والهيكل بقايا بئر ماء كبيرة ، ويمكن متابعة اثار القناة التي كانت تحمل اليها الماء من العين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واذا مضينا مسافة أبعد الى الجنوب من القلعه ، في المدخل المؤدي الى وادي رم ، بلغنا ينبوع ماء آخر يتفجر من صفحة الصخر في الناحية الغربية حيث تنمو شجرة نخيل الى جانبه ، ويستمد الينبوع اسمه من النخلة اذ يطلق عليه اسم (عين ابو نخلة) . وقد كانت تقوم قرية صغيرة في العصر النيوليثي على الارض المنبسطة الواقعة تحت هذا الينبوع مباشرة ، وعثر على أدوات صوانية دقيقة في ذلك الموضع كما توجد فيه آثار جدران . وبالاضافة الى هذا فان الكتابات الثمودية المعهودة ، وجدت سبيلها الى كل مكان هنا . وفي اول المدخل المؤدي الى الوادي ، ترى رسوما غريبة لايتضح القصد منها . وهي عبارة عن صفوف ، مفردة ومزدوجة ، من دوائر صغيرة جدا من الحجاره ، وهذه الرسوم توجد في منتصف المدخل وفي الطرفين الشمالي والجنوبي . ويبدو ان الدوائر الجنوبية ذات علاقة ببناء ما ، تدلنا الحجارة المنحوتة فيه على الدرجة ٤٥ بأنه بناء نبطي . ولكن من المتعذر على الباحث ان يصل الى تفسير معقول بشأن هذه الرسوم الدارسة والغرض من انشائها . وتجد في أودية عديدة الى الشرق من رم خرائب ابنية وسدود نبطية ، ولكن لايمكن الوصول الى هذه الخرائب الا سيرا على الاقدام او على ظهور الجمال ، لان الرمال الناعمة تملأ معظم قيعان الاودية بحيث لاتستطيع السيارات ان تسير فيها .

ان زيارة رم تجربة مثيرة ، وخصوصا الزيارة التي يقوم بها المرء لاول مرة ، لان رم تختلف تماما عن اي شيء آخر شاهده المرء في حياته . والحقيقة ان المكان الوحيد الآخر في العالم الذي يمكن مقارنته برم هو وادي كولورادو العظيم ، حيث يماثل تكوين الصخور ما نشاهده في رم ولكن على مقياس اعظم كثيرا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثامن

أم الجمال : مدينة نبطية ـ الفترة المسيحية ـ اخلاؤها الخرائب .
قصور الصحراء : قصر الحلابات ـ حمام الصرح ـ الأزرق ـ قصير عمره ـ قصر الحرانة ـ قصر الطوبة ـ الموقر ـ المشتى ؛ كلوه .

ام الجمال :

تقع خرائب هذه البلدة البارزة على مسافة اثني عشر كيلو مترا الى الشرق من بلدة المفرق ، وعلى مسافة ستة كيلو مترات الى الشمال من طريق بغداد . وتقوم ام الجمال في طرف السهل الصحراوي المنبسط ، وهي واحدة من مجموعة كبيرة من البلدان المبنية من الحجر الناري الاسود والتي تمتد شرقا فتدخل حدود جبل الدروز ، واكبرها وأهمها بلدة (بصرى) الموجودة الان في سوريا . وتعتبر ام الجمال البلدة الجنوبية القصوى في هذه المجموعة . وهناك بلدة أخرى مماثلة تدعى (أم القطين) وتقع على مسافة خمسة وعشرين كيلو مترا الى الشرق من ام الجمال ، ولكن معظم حجارة هذه البلدة نزعت ونقلت الى اماكن أخرى لاستعمالها في البناء ، فلم يبق قائما من خرائبها واطلالها الا القليل القليل .

على المسافر عندما يبلغ مفترق الطرق عند بلدة المفرق ، أن ينحرف مباشرة الى طريق بغداد . وبعد ان يسير عليها مسافة قصيرة فانه سرعان ما يشاهد لطخة سوداء في السهل من الناحية الشمالية ، ليست سوى ام الجمال . واذا ما قطع المسافر مسافة تتراوح بين عشرة كيلو مترات وأحد عشر كيلو مترا بعد مفترق الطريق ، فانه يصل الى درب تفصل نحو الشمال وتتجه مباشرة الى ام الجمال . ويخيل اليك لاول وهلة عندما تقترب منها انها بلدة تمور بالحياة وليست خربة خاوية ، اذ ما تزال أبراجها ومنازلها قائمة وفي حالة طيبة من العمران ، كما يبدو من بعيد . تؤدي الدرب الى طرف البلدة حيث يدخلها المرء من خلال فتحة في السور الذي يحيط بالبلدة كلها ، ذلك لان البوابتين اللتين انشئتا اصلا في الجانب الجنوبي من السور قد سدتهما الحجارة المتساقطة . لقد بنيت المدينة كلها بالحجر البركاني الاسود ، وهو حجر خلفته البراكين التي قلبت باطن الارض على مسافات واسعة